فهمُ الأقْدار

نور للقلب والعقل

أسماء عثمان الشرقاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أهدي كتابي لأبي الحبيب الغالي رحمه الله رحمة واسعة؛ فهو المحب لدين الله تعالى، ومن حببني فيه، وتولانا أنا وإخوتي بكامل عنايته ورعايته، واهتم في تربيتنا بالحفاظ على الصلاة، والصيام، وحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وقصص الصالحين والأولياء. فاللهمّ اجزِهِ عنا خير الجزاء.

وأهديه إلى أمي الحبيبة، الأم المصرية المكافحة التي ربتنا على العمل، والإنجاز، والإتقان، وتفرغت لتربيتنا تفرغًا كاملاً، وبذلت كل مجهودها ووقتها وصحتها لصلاح أسرتنا الكريمة. فجزاها الله خير الجزاء.

ثم أهدي كتابي لزوجي الحبيب الذي علمني حرية الفكر، والنظر بعقل وفهم لآيات الله تعالى، فكان نعم المعين وخير الرفيق، فجزاه الله عني خير الجزاء.

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السماوات والأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شاء من شيء.
الحمد لله الكريم الوهاب، الذي ابتدأنا بالنعم من غير استحقاقٍ، وأنعم علينا بنعم الإيجاد، والإمداد، والهدى، والرشاد.
الحمد لله الخالق المالك الرزاق، الذي وزع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف يوزعها في الآخرة توزيع جزاء.
الحمد لله الولي، المدبر المتكفل بخلقه، العليم الخبير بهم، الفعَّال لما يريد، لا يغيب عن علمه شيء ولا يعجزه شيء، فهو الذي يتولى أمور خلقه ويباشر كل ما من شأنه إصلاحهم.
الحمد لله القادر المقتدر، الذي تفتقر كل الخلائق إليه، وبيده الخلق كله وإليه يرجع الأمر كله، المتمكن من الفعل بلا واسطة، القادر على إصلاح الخلائق على وجهٍ لا يقدر عليه إلا هو تبارك وتعالى.
الحمد لله الهادي، خلق الخلق وهداهم للحق ليسعدهم سعادة لا تنقطع عند الموت؛ بل سعادة تدوم إلى الأبد في جنات النعيم، وما الحياة الدنيا إلا إعداد لهذه الحياة الأبدية.
الحمد لله الودود، الذي تعد نعمه مظهرة لحبه ووده لعباده، فهو يتودد إليهم بالنعم التي لا تعد ولا تحصى.
الحمد لله الحكيم، أفعاله كلها متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته متعلقة بالخير المطلق.
الحمد لله السلام، سلمت ذاته من كل عيب، وسلمت صفاته من كل نقص، وسلمت أفعاله من كل شر.
الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.
الحمد لله الذي خلقنا لنتعرف عليه ونسعد بقربه في الدنيا والآخرة، فالله أرحم الراحمين لم يخلقنا ويتركنا بلاعناية ورعاية، بل خلقنا وحفظنا وأكرمنا ووعدنا بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، وتتمثل عناية الله تعالى ورعايته في أقداره التي ينزلها على عباده، والتي تتمثل فيها صفاته، وتتمثل فيها رحمته، وقربه، ولطفه، وعلمه، وحكمته، وإحاطته، ووده، وحبه لعباده وخلقه...

مقدمة

عندما نمر بشدة أو مصيبة نتساءل: ليه يحصل لي كده؟ ليه أمرض المرض ده؟ ليه ابني أنا يمرض؟ ليه أخسر شغلي؟ ليه أخسر فلوسي؟ وليه أنا بالذات؟ ليه شكلي كده؟ ليه أتولد
في العيلة دي؟ أو البلد دي؟ وهو ربنا بيمتحني وإلا بيعاقبني؟
إن الإنسان لو عاش في الدنيا بدون أن يعرف إجابة لأي من الأسئلة السابقة، سوف يعاني من:
١) الألم والقهر والتعاسة عند كل حدث أو قدر يحدث له.
٢) الحيرة الدائمة والسخط المستمر والغضب المتواصل.
٣) الشك في عدل الله تعالى ورحمته.
٤) التخبط في رد فعله تجاه الأقدار؛ فقد يحسن استقبال القدر في مرة، لكنه يسيء الاستقبال في مراتٍ عديدة؛ لأن التصرف السليم الثابت هو القائم على المعرفة والعلم، أما التخبط في التصرفات فيكون بسبب الظنون وعدم اتضاح الرؤية ونقص المعرفة.
لذلك لا بد من فهم الأقدار؛ أي أننا نريد أن نعقل ونعرف ما يقدره الله تعالى من الأحداث ويحكم به من الأمور، من حيث صورها المختلفة، وحكمة الله تعالى فيها، وردود أفعالنا عليها؛ أي صورة استقبالنا لها.
لأن هذا الفهم هو الذي يُعيننا على الإجابة السليمة على أسئلة في غاية الأهمية والإلحاح.
لهذا فإن فهم أقدار الله تعالى تمثل الفهم الأساسي للدين، ذلك أن الإنسان تدور حياته داخل أقدار الله تعالى، وبناء على رد فعله تجاه هذه الأقدار، تتحدد نوعية الحياة التي يحياها.

- هل يحيا حياة طيبة، له فيها رؤية واضحة، ويملك إجابات سليمة وشافية لما يمر به من أقدار؟
- أم يحيا حياة يكثر فيها السخط والألم والحزن على ما يصيبه من أقدار؟ وليس له رؤية واضحة لسبب ما يحدث له، ولا يستطيع أن يقدم لنفسه إجابات شافية لما يمر به.

إن هذا الكتاب من أجل أن نُحسن أن نتكلم مع أنفسنا بالعلم الذي أرسله لنا رب العالمين عندما نمر بالمواقف المختلفة، فنثبتها عند المصائب والشدائد، ونوجهها التوجيه السليم عند
النعم والفتح والعطاءات.
لذلك فإن الهدف من هذا الكتاب:

١- أن نفهم حكمة رب العالمين من أقداره، وذلك من خلال ما أورده بالقرآن الكريم؛ فربنا لم يرسل القرآن ليكون كتابًا نتبارك به ونضعه في الغلاف القطيفة، أو ليتخصص فيه مجموعة من الناس فقط، لكنه أرسله للعالمين، وكل مسلم وكل مسلمة يستطيعوا أن يفهموا ويدرسوا ويعوا ما جاء بكتاب الله تعالى، يقول تعالى: وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ القمر.

فعبادة الله تعالى مع العلم والفهم لأقداره، أكثر يسرًا وخشوعًا وطاعةً. والله تعالى في الكثير من آيات القرآن يدعونا للتفكر والتعقل؛ لأنه سبحانه يريد العبادة التي عن وعي وفهم، وليس التقليد بلا تدبر ولا فهم.

٢- أن نسلك السلوك السليم تجاه هذه الأقدار.

الخطوة التي تلي الفهم هي التصرف السليم، فالمعول الحقيقي والمسعد هو العمل وليس العلم فقط، فأنت لا تستطيع أن تمنع أقدار الله تعالى، لكنك تستطيع أن تقف منها الموقف السليم؛ فالمسلم الذي يعتمد على الفهم السطحي والسريع لحكمة الله تعالى من أقداره، نجده متخبطًا في رد فعله تجاه الأقدر، فقد يحسن استقبال القدر مرة، لكنه يسيء الاستقبال مرات عديدة؛ لأن التصرف السليم الثابت هو القائم على المعرفة والعلم، أما التخبط في التصرفات فيكون بسبب الظنون وعدم اتضاح الرؤية ونقص المعرفة.

٣ـ أن نحيا الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، ونتمتع بالمكافآت التي يستحقها الناجحون، إن نتيجة الفهم السليم والسلوك السليم، التمتع بأحسن الثمرات، الحياة الطيبة السعيدة الناجحة.

الباب الأول

توضيح وتصحيح بعض المفاهيم

١) معنى الأقدار
٢) مهمة الأقدار
٣) أنواع الأقدار
٤) مجال الأقدار
٥) الأسباب والأقدار
٦) صفات الله تعالى وعلاقتها بأقداره.

(١)

معنى الأقدار

يمكننا معرفة معنى أقدار الله تعالى مما ذكره لنا بكتابه الكريم، يقول تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾) القمر.

كل شيء.. الصغير والكبير بقدر، الحي والجماد بقدر، والذي ينمو والشيء الذي يفكر بقدر، والساكن والمتحرك بقدر، الصامت والناطق بقدر، الحاضر والغائب بقدر، المعلوم والمجهول بقدر... فكل شيء خلقه بعلم كامل وبحكمة مطلقة، وخلق له قوانينه وأحكامه التي تحفظه في أحسن حال، فالله تعالى خلق الأرض وقدر فيها أقواتها وقوانينها بحيث تكون في أحسن حال، ويقول تعالى: (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾) المرسلات. فهو سبحانه نعم المُقدر، المُقدر لأحكام وقوانين كل شيء، وأقداره هى الخير لكل شيء.

(٢)
مُهمة الأقدار

يقول تعالى: (تبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾) (الملك)

تدل هذه الآيات الشريفة على أن الله تعالى الملك القدير خلق الموت والحياة من أجل أن يبلو البشر أجمعين. أي جعل فترة بقاء بني آدم في الحياة الدنيا فقط؛ لكي يمتحنهم فيُظهر الأحسن عملاً، المُستحق للجائزة الكبرى، وهي سعادة الدنيا والآخرة. ويُظهر الأقل حُسنًا، فالأقل فالأقل حتى نصل للأسواء عملاً ولكلٍ درجاتٍ مما عملوا.

يقول تعالى: "إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ " الإنسان.

وضح رب العالمين في هذه الآيات الغاية من خلق الإنسان ومهمة الأقدار في حياته؛ إنها للابتلاء، والامتحان، والاختبار.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)

خلق الله تعالى الإنسان، وجعل له السمع والبصر؛ لكي يكونوا أدوات الامتحان، فإذا استخدمهم في معرفة الله تعالى والعمل بما يحب ويرضى فقد نجح، وإن استخدمهم في معصية الله تعالى فقد فشل. وقد يسر الله تعالى الامتحان على الناس إذا هداهم وعرفهم طريق الهدى من خلال رسالاته ورسله (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)، فله بعد هذه الهداية الاختيار الحر الكامل بين طريق الإيمان وهو الشكر أو طريق الكفر، ولكل منهما مكانة في الآخرة بناءً على اختياراته.

"إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾".

إذاً كل الأقدار منذ الميلاد حتى الموت هي امتحانات واختبارات.. لماذا؟ يقول تعالى: (الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾) العنكبوت

هل يظن الناس أن يقولوا ما يقولون من أنهم مؤمنون، وأنهم يفعلون كل ما أمر به الله تعالى، وأن قلوبهم مليئة بحب الله ورسوله، وأنهم على علمٍ كامل به سبحانه وعلى يقينٍ تام بوجوده وصفاته، ثم لا يتم اختبار هذا الكلام؟

إ ن الابتلاء والامتحان هي سنة الله تعالى في خلقه؛ حتى يعلم الصادقين، ويعلم الكاذبين، لكن الله تعالى يعلم دقائق حياة كل إنسان، ويعلم كيف سيكون استقباله لأقدار الله من قبل خلقه .فكيف سيعلم؟ إن هذه الاختبارات ليست لكي يعلم الله تعالى؛ فالله جل وعلا يعلم ما سوف يكون من العباد قبل وجودهم، فهو يعلم السر وأخفى وهو علام الغيوب، ولكن الأقدار والاختبارات هي لكي تُظهر للوجود الفعلي حقيقة إيمانهم من خلال استقبالهم لأقدار الله تعالى؛ أي من خلال إجاباتهم على أسئلة الامتحانات؛ فالله تعالى لا يحاسب الناس على علمه، بل يحاسبهم على ما يقع منهم من أفعال.

نعود للامتحانات والاختبارات: لماذا اتخذ الله تعالى طريق الامتحانات لكي يعلم المؤمن من الكاذب؟ ألم يكن هناك طريق آخر أسهل؟ (هكذا سألتني إحدى الصديقات) .

سنجيب على هذا السؤال الهام جدًا من خلال المثال التالي:

لو افترضنا مدرسًا يُدرس للطلبة طوال العام، فتكونت لديه معرفة شبه يقينية بمستوى التلاميذ، وأصبح يعرف من سوف يجتاز الامتحان بنجاح، ومن سوف يفشل. هل يمكنه أن يعتمد على علمه فقط في إصدار الأحكام على الطلبة؟ فيقول هؤلاء

أعلم أنهم سوف ينجحون في الامتحان فسوف أرفعهم للسنة التالية، وهؤلاء أعلم أنهم سيفشلون في الامتحان فلن يرتقوا للسنة القادمة؟ هكذا بدون امتحان.

هل هذا عدل من المدرس؟ بالتأكيد ليس هذا بالعدل؛ سيرفض الجميع هذا الأسلوب، حتى الشاطر سيقول: يمكن بالامتحان أحصل على درجاتٍ أكثر من التي توقعها الأستاذ لي، والبليد سيقول: امتحني يمكن أنجح، أنت حكمت عليّ غلط.

ولله المثل الأعلى فهو العليم الحكيم؛ لذلك كان لا بد من امتحانٍ يظهر به الصادق من الكاذب، ولابد أن يكون الترتيب نتيجة العمل الفعلي الظاهر، وعند وقوع الامتحانات وظهور نتيجتها حتى الفرد نفسه يمكنه الحكم على نفسه.

يقول تعالى: (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾) الاسراء

هذا هو العدل، والله تعالى هو العدل، ولم يكن العدل ليثيب أو يعاقب بناءً على علمه فقط، بل لا بد من فعلٍ صادر من الناس يرونه ظاهرًا.

إذًا رب العالمين خلق الموت والحياة ليمتحننا. لماذا؟ لكي تظهر حقيقة كل إنسان أمامه فيراها، فيسارع بإصلاحها، ليحيا حياة طيبة وسعيدة في الدنيا قبل الآخرة، إن هذه الامتحانات هي لتوجيه الإنسان نحو الترقي في العبادات والمعاملات، إن النجاح في هذه الامتحانات يعني الصعود في درجات جنة الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾) النحل.

يقول د. النابلسي في شرح هذه الآية الكريمة: "للمحسن في الدنيا حسنة، لا بد من حياة طيبة، لابد من أن تنتظرك حياة طيبة، وادعة، هانئة رغم صعوبة الظروف، رغم الأزمات الحادة، رغم كل شيء تقوله، لا بد من حياة طيبة يضمنها الله لك بعد أن تجتاز الامتحان، لا بد من امتحان، وبعد الامتحان يأتي العطاء."

لما المسلم ينجح في الاختبارات والابتلاءات، ويُثبت أنه الأحسن عملاً، لما يحسن استقبال أقدار الله تعالى نتيجةً فهمه لها "لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ" حسنة فى الدنيا قبل الآخرة، له في الدنيا عطاءات ومكافآت نتيجة إحسانه ونجاحاته، رحمات، وبركات، وتوفيق، ورضا، وسكينة، وسعادة، عطاءات الله تعالى تتوالى وتكثر. وفي الآخرة "وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ" كل النعم والمكافآت التي ستتمتع بها في الدنيا لك في الآخرة خير منها بمراحل، ثم يصف ربنا دار المحسنين المتقين ويقول: "وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ".

أقدار الله تعالى هي للامتحان والاختبار.

(٣)
مجال الأقدار

اختبارات الله تعالى، هي لكل الناس، وعلى مدى أعمارهم.

إن الابتلاءات تقع لكل الناس، للمؤمن، والعاصي، والمنافق، والكافر، فهي للناس أجمعين بلا استثناءات) خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ) ليمتحنكم جميعًا بلا تحديدٍ لجنسٍ أو نوعٍ أو ديانة، ولا محاباة لنوعٍ أو طبقة، فلا يجب القول (المؤمن مصاب) وكأن المؤمن هو وحده المبتلى والمصاب، وغير المؤمن ليس بمصاب، أو كأن المؤمن مصاب بسبب إيمانه! ليس هذا صحيحًا بالمرة؛ كما أنه لا يجب أن يعتقد المؤمن أنه بلغ درجةً عالية من الإيمان لن يتعرض فيها للامتحانات. ذلك أن الابتلاء أمرٌ واقعٌ لا محالة لكل إنسان مهما كانت ديانته، ومهما بلغت درجة إيمانه وصلته بربه.

فالمؤمن يمرض، والمنافق يمرض، والكافر يمرض، والمؤمن يفقد أحبابه، والمنافق يفقد أحبابه، والكافر يفقد أحبابه. والمؤمن يغتني، والعاصي يغتني، والكافر يغتني.... وهكذا.

فالامتحانات تسري على كل البشر، والاختلاف بين الناس ليس في وقوعها؛ لأنها تقع على كل البشر بلا استثناءات، لكن الاختلاف في كيفية الاستجابة لها ..هذه الاستجابة هي التي تحدد المؤمن من العاصي من المنافق، من الكافر. فالأقدار تقع على كل الناس، وعلى مدى أعمارهم كلها.

كل إنسان على وجه الأرض له اختيار فهو في اختبار

(٤)

أنواع الأقدار

هناك نوعان فقط من الأقدار التي تصيب كل إنسان، إما أقدارٌ بما يعتقده خيرًا أو أقدارٌ بما يعتقده شرًا.

وإن الأقدار التي يعتقد الناس أنها خيرٌ هي عطاءات الدنيا من مال وأملاك، وبنين، وصحة، وجمال، وجاه، وسلطان. والأقدار التي يعتقدونها شراً، هي أقدار المنع والحرمان من عطاءات الدنيا، كقلة المال والبنين، وضعف الصحة، وقلة الحيلة، وتواضع الحال.

تعالوا نشوف إزاي الناس حكموا على هذه الأقدار؟ وإزاي ربنا حكم عليها.

يقول تعالى:(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا **ابْتَلَاهُ** رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا **ابْتَلَاهُ** فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾) الفجر

في هذه الآيات الكريمة يقول د. النابلسي:

" يتضح معنى هذه الآية من توضيح كلمة كلا، (كلا) لا تقابل (نعم) كما يتوهَّم بعض الناس، كلمة (كلا) أداة ردعٍ وزجرٍ، فقد يقول لك قائل: هل أنت جائع؟ تقول له: لا، (لا) حرف نفي، إذا قال لك: هل أنت مذنب؟ تقول له: كلا، تردعه وتزجره عن هذا الظن، فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية قال: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ﴾ يقول هو، هذه مقولته وهذا تفكيره وهكذا جرى في خلده وهكذا توهم وتصوّر، إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه، أي إذا قدَّر الله سبحانه وتعالى لإنسانٍ مالاً وفيرًا، أو صحةً جيدة، أو زوجةً جيدة، أو أولادًا كثيرين ذكورًا وإناثًا، أو تجارةً عريضة، أو دخلاً كبيرًا، أو منصبًا لائقا، إذا أعطى الله عزَّ وجلَّ عبده بعض ما في الدنيا من مالٍ أو صحةٍ أو جاهٍ أو سلطانٍ، أو ما شاكل ذلك، فهذا الإنسان قد يظن وقد يتوهم وقد يعتقد أن الله أكرمه بهذا، لا، ليس هذا إكراماً. إن الإنسان يُبتلى بالمال، قد يتوهم الفقير أن الله سبحانه وتعالى لو أعطاه المال لفعل الخيرات في كل اتجاه، وفي كل جانب، فإذا آتاه الله المال بخل به وحاسب على الدرهم والدينار وأصبح حريصاً، إذًا هذا المال الذي يعطيه الله عزَّ وجلَّ ليس إكراماً، بل هو ابتلاء، ومعنى ابتلاء أي يمتحن الإنسان بالمال، فإن كان معدنه ذهباً كان على المال متواضعاً وكريماً، وإن كان معدنه خلاف ذلك أصبح على المال بخيلاً ومتكبراً، فالمال ليس إكراماً إنما هو ابتلاء."

إذًا، يعرض رب العالمين في هذه الآيات لأقدار يُنزلها على الناس، أقدارٌ بالكرم والنعمة " فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ"، وأقدار بالقلة والشدة "فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ"، وسمى الاثنين "ابْتَلَاهُ" أي امتحنه.

الحكم الأول للناس أنهم حكموا بأن من يُقدر الله تعالى له النعم، فيعطيه المال أو الجاه أو البنين أو الصحة، فإنما هو بذلك يُكرمه، الحُكم على هذا القدر بأنه إكرام يعنى أنه متميز عند ربنا، وأن الله تعالى يكافئه، فهو بذلك لا يعتبر أن النعمة، امتحان، بل يعتبرها مكافأة.

والحكم الثاني للناس، أن من يُقدر له الله تعالى الرزق القليل من الصحة أو المال أو الجاه والبنين، فهو بذلك يهينه ويعذبه، فهو لا يعتبر قلة الرزق، امتحان، بل يعتبرها عقوبة وإهانة، فيقول تعالى: (كَلَّا) أداة ردع وزجر عن هذا الظن، إن الحكم ليس ما تقولون، إن الإكرام والنعم، وقلة الرزق والشدائد، إنما هي جميعًا ابتلاء وامتحان. فالإكرام من رب العالمين ليس بزيادة الرزق

من المال والبنين والصحة والجاه، والإهانة ليست في قلة الرزق في المال، أو الصحة، أو الزواج أو الأولاد. بل الإكرام يكون لمن ينجح في استقبال هذه الامتحانات والإجابة السليمة عليها، والإهانة لمن فشل فيها.

ومن يعتقدون أن العطاء إكرام، والمنع إهانة، هم هذه الأصناف من الناس " بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ "

إنهم يعتقدون هذا لأنهم لا يكرمون اليتيم، ولا يحاضون على طعام المسكين، ويأكلون الميراث. وذلك لأنهم يحبون المال حبًا جمًا، فجعلوه معيارًا لحكمهم على من يكرمه الله تعالى ومن يهينه. إن من يمتحنه الله تعالى بزيادة الرزق في المال، فيحبه حبًا جمًا، فيبخل به عن الزكاة والصدقات والتوسعة على من حوله، فقد رسب في الامتحان، وأصبح المال وبالاً عليه، وأهان نفسه عند الله في الدنيا والآخرة. ومن امتحنه الله تعالى بقلة الرزق في المال، فأحسن استقباله بتحري أكل الحلال رغم مغريات الحرام، وبذل استطاعته في الإنفاق على من حوله، وصبر على هذا الحال، فقد نجح في الامتحان، وأصبح تقدير الرزق أي قلته، نعمة له وليس إهانة، وأكرمه الله في الدنيا بسعة الرزق وسعة النفس، وفى الأخرة بالدرجات العلى.

فما نراه من خيرٍ، وما نراه من شدةٍ، ما هو إلا امتحان واختبار، لا يخضع تفسيره لأوهام الناس وأهوائهم، وإن الذين يَدعُون أن من أعطاه الله تعالى ووسع له في رزقه، فهذا الذي يحبه ويكرمه، ومن ضيق عليه فهذا الذي يهينه ويعاقبه، إنما يفترون على الله الكذب.

الخطأ في الحكم على القدر،
يؤدي إلى الخطأ في استقباله، وإلى الفشل في الامتحان.
والنجاح في الحكم على القدر،
يؤدي إلى النجاح في استقباله، وإلى النجاح في الامتحان.

(٥)
الأسباب والأقدار

هذه النقطة لكي نجيب على هذا السؤال المهم، هل الإنسان مسؤول عن أقداره؟

للإجابة على هذا التساؤل سنستعرض حالتين فرق فيهما رسول الله عليه الصلاة والسلام بين مسؤولية المؤمن عن أقداره،

الحديث الأول:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام: **"الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ"** رواه الإمام مسلم.

(احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ) **أولاً:** على المؤمن أن يحرص على كل ما ينفعه فيما يريد تحقيقه، ويتخذ كل الأسباب المتاحة، يريد تحصيل الشهادة، والمذاكرة تنفعه، فعليه بالاجتهاد في المذاكرة، يريد السفر، والسيارة تنفعه، فعليه بحسن تجهيزها، يريد الصحة، والرياضة تنفعه فعليه الحفاظ عليها، وهكذا..

ثم ثانيًا: (وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ) يعني بعد اتخاذك للأسباب، لا تقول: مش ممكن أقدر أعمل كذا أو كذا، ده كتير ده مستحيل، طيب هاجيب منين. لكن ما دمت أخذت أسبابك، فتوكل على الله، وأقدم على ما تريد، واستعن بالله وتوكل عليه وأطلب منه التوفيق والسداد.

ثالثاً: (وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ) بعد كل ما سبق من حفاظ على ما ينفعك واتخاذك الأسباب، إن أصابك شيءٌ لم تتوقعه، منعك من تحقيق ما تريد .الآن، والآن فقط يمكنك أن تقول (قَدَرُ ٱللَّه وَمَا شَاءَ فَعَل)؛ لأنك فعلت المطلوب منك، لكن قدر الله تعالى ألا يحدث ما توقعته، فلم تكن أنت السبب فيما حدث لك من إخفاقٍ وعدم حصول ما تريده.

هذا الحديث الشريف، بين لنا مدى مسئولية المؤمن عن أقداره، فما أصابه هنا من قدر منعه من تحقيق ما يريد، كمرضٍ أو فقد مالٍ، أو حادثٍ، أوما شابه، لا تقع فيه المسئولية عليه، فيكون حسن استقبال هذا القدر بالرضا والتسليم وحسن الصبر، وإعادة المحاولة إن أمكن.

أما الحديث الثاني الذي يبين لنا فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام مدى مسئولية المؤمن عن أفعاله، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام: **"مَنْ نَامَ عَلَى سَطْحٍ لَيْسَ لَهُ إِجَّارٌ فَأَصَابَهُ شَيْءٌ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ"** رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

هنا رسول الله عليه الصلاة والسلام، حذر من أن من نام على سطحٍ ليس له سور فوقع، فعليه أن يعود إلى نفسه ويلومها على تقصيرها وعدم أخذها بالأسباب الواجبة لحمايته من السقوط، هنا قدر السقوط من على السطح لا يُقال فيه قدر الله وما شاء فعل، اصبر واحتسب، هنا صبره يعني عدم الاعتراف بالخطأ عندما نام على سطح بدون سور، مما سيؤدي إلى عدم الاهتمام ببناء السور، وبالتالي تكرار الحادثة، والاحتساب يعني أنه يريد أجرًا من الله تعالى على صبره على ما أصابه!! وهذا غير وراد؛ لأنه هو من ألحق الأذى بنفسه؛ فهو سوف يُحاسب أصلاً على إهماله، ويُعاقب على ما فعله بنفسه، إن لم يتب ويسارع بالإصلاح.

لماذا هذه التفرقة بين الأقدار التي تقع بسبب من المسلم، وتلك التي ينزلها الله تعالى عليه بدون أن يكون له يد فيها؟

ذلك أن تبيان هذه المسئولية ستؤدي لاختلاف اسلوب استقبال هذه الأقدار. إن استقبال الأقدار، أي التصرف الناتج عن كل قدر، هو ما يحدد من نجح، من رسب فيها.

إن الأقدار التي بينا أنها وقعت بسبب من المسلم، فإن استقبالها الناجح يكون بالاعتراف بالخطأ والتوبة منه، وإصلاح ما أخطأ فيه.
وخير مثال على ذلك، موقف الصحابة الذين عصوا الرسول في غزوة (أُحد)، يقول تعالى: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ﴿١٦٥﴾ آل عمران.
أولما أصابتكم -أيها المؤمنون- مصيبة، وهي ما أُصيب منكم يوم "أُحد" قد أصبتم مثليها من المشركين في يوم "بدْر"، قلتم متعجبين: كيف يكون هذا ونحن مسلمون ورسول الله عليه الصلاة والسلام فينا وهؤلاء مشركون؟
قل لهم -أيها النبي-: هذا الذي أصابكم هو من عند أنفسكم بسبب مخالفتكم أمْرَ رسولكم وإقبالكم على جمع الغنائم. هنا قَدرُ الله تعالى بالهزيمة وفقد الأرواح والإصابات بين أفراد الجيش، هو قدرٌ وقع بأيديكم وبسبب منكم، وقد كان الاستقبال الناجح له، أن تاب المؤمنون من هذا الخطأ، وعزموا ألا يعودوا إليه، وشاركوا في الإصلاح، تصوروا لو اعتبروا الهزيمة قدرًا من عند الله لا يد لهم فيه، وبالتالي فليس المطلوب منهم لا توبة ولا إصلاح، كيف كان سيكون الفشل في دنياهم وآخرتهم.
إذًا الاستقبال الفاشل يكون بترك الخطأ على حاله، ثم ادعاء الصبر أو الرضا بالمصيبة، وترديد (قدر الله وما شاء فعل) ويعتقد بذلك المسلم أنه أحسن استقبال المصيبة، بينما قد فشل لأنه هو من تسبب فيها، وسيعاقب على ذلك.
أما الأقدار التي تأتي بعد أن يتخذ الإنسان كل أسبابه، كالذي أتم دراسته على أكمل وجه ثم قدر الله تعالى أمرًا عطله عن الذهاب للامتحان؛ فهذا استقباله الناجح لهذا القدر وهذا الابتلاء، الرضى واليقين بأن كل ما يقدره الله تعالى هو خير، وله أن يقول قدر الله وما شاء فعل، وله ثوابٌ على اجتهاده في فيما كان منه من مذاكرة، ثم له ثواب حسن الصبر والاحتساب ثم المعونة عند تكرار المحاولة.
يقول تعالى: {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾} النجم.
فالأجر والثواب والنجاح لمن سعى وبذل قصارى جهده، كل سعيه، له به ثواب، سواء بلغ مراده أم لم يستطع لقدر خارج عن إرادته. إن ما يقع من شدائد نتيجة أخطائنا من كسلٍ، أو إهمالٍ، أوتجاهلٍ، أو سوء خلقٍ، هي أقدارٌ سمح الله تعالى بها؛ لكي نرى أخطاءنا ونتوقف ونصلحها، هذه أقدارٌ لا تُقابل بالصبر على البلاء، أو الدعاء والبكاء وزيادة الأذكار، إنما تُواجه بإصلاح الخطأ الذي ارتُكب، واتخاذ الأسباب التي أمر الله تعالى باتخاذها.
فالله تعالى خلق الأسباب لكي نحترمها ونعمل بناءً عليها، فمن لا يتخذ الأسباب ثم يصيبه أذى، فيدعي أن هذه أقدار الله ولا يد له فيها، فقد افترى على الله الكذب، لكن إن تاب وأسرع إلى إصلاح الخطأ المادي أوالمعنوي (سوء الخُلق)، فهو أقرب إلى غفران الله تعالى وتوفيقه.
فكما أن هناك أسباب مادية يجب إصلاحها، هناك أسباب معنوية يجب إصلاحها، مثل أن يواجه الإنسان مصاعب في حياته بسبب سوء خلقه وقسوة كلماته وتكبره، فإذا نتج عن هذا تعاسة في الزواج، أو فشل في العمل، أو تباعد في العلاقات، فاستقبال هذه الأقدار ليس بالصبر والاحتساب ظناً منه أنه الضحية، لكن استقبال هذه الأقدار يكون بالتوبة والتغيير إلى الأخلاق الحسنة والمعاملة الطيبة، فكما قلنا من قبل، الصبر هنا مع استمرار الأخلاق السيئة، صبر على معصية، يعاقب الإنسان عليها.

اتخاذ الأسباب المادية والمعنوية التي أمر الله تعالى باتخاذها، من أهم أركان النجاح في استقبال الأقدار.

(٦)

صفات الله تعالى وعلاقتها بأقداره

لا تستطيع أن تثق في إنسانٍ بدون أن تعرف صفاته، فلو تعرفت إلى إنسان اسمه (سعيد) مثلاً، معرفتك بهذا الاسم فقط لا يجعلك تحبه أو تثق فيه، لكن عندما تعرف أنه غني، وأنه كريم وسخي مع كل الناس، ورحيم يعطف على الفقراء، وودود يحب أهله ويصلهم، وحاصل على أعلى درجات العلم والمعرفة، وناجح في عمله، وقد ساعدك منذ صغرك، وعلم برغبتك في دراسة فرعٍ دقيق بالخارج فوفر لك منحة خارجية؛ لتدرس هذه المادة المهمة جدًا لمستقبلك، وكان قريب وسريع الاستجابة في تلبية احتياجاتك، فساعد والدتك في إجراء جراحةٍ عاجلة لها أنقذت حياتها، وكريم لم يرد طلب والدك للحج، وحكيم في اختيار زوج لأختك.

ما مدى حبك لهذا الإنسان؟ ما مدى تقديرك له؟ وما مدى تقبلك لكلامه وقراراته وأفعاله؟ أكيد في أعلى الدرجات، وأكيد سوف تتفهم قراراته، وتُحسن الظن به إن جاءك منه تصرف لم ترَ له سببًا ظاهرًا، وإن أخبرك سوف تصدق ما يقوله لك من أسباب.

ولله المثل الأعلى؛ لذلك لا بد من معرفة أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا؛ لأنها توضح لك نعمة عليك وعطاءاته وفضله، وحكمته من خلقك، وما يريده لك من سعادة في الدنيا والآخرة.

إن معرفة صفات الله تعالى وتأثير هذه الصفات في حياتك هي القاعدة الأساسية التي ننطلق منها لنفهم حكمته من أقداره بكل ما نظنه خيرًا أو شرًا.

وكل صفاته جل وعلا تؤثر في فهم أقداره، وفي فهم كيفية التعامل معها، لكننا سنستعرض هنا الصفات التي وجدتها أكثر ارتباطًا بالأقدار وهي: الرب العدل العليم الحكيم الرحمن الرحيم..

أولاً: اسم الله (الرب)

الرب في اللغة هو المالك وهو السيد وهو المُنعم، هو المربي، ولعلَّ أقرب المعاني إلى الإنسان أنَّه المربّي، لفظ الربّ مشتقٌ من التربية، فالله سبحانه وتعالى مُرَبٍّ ومدبر لخلقه. المربي له صفتان أساسيَّتان: أنَّه مُمِدّ، وأنَّه راعٍ، الذي يمدّنا بما نحتاج هو ربُّنا، والذي يُمدُّ أجسادنا هو ربُّنا، والذي يربّي نفوسنا، يهدينا إلى صراطه المستقيم، يُلْجئنا إلى بابه هو ربُّنا.

قالت العلماء: وإذا أدخِلت -ال- على كلمةٌ رب اختصَّ الله تعالى بها، بينما إذا أضيفت فيمكن أن تأتي لغيره كرب الأسرة، وربة المنزل، ورب العمل.... وهكذا.

فما هي صفات رب الأسرة أو ربة الأسرة؛ إنها العناية، والرعاية، والتربية، والحفظ، والمأوى، والأكل، والشرب، والتمريض، والتعليم كل ما يقيم الحياة على أحسن وجه، وهذا لكل الأبناء باختلاف صفاتهم وطبائعهم وطاعتهم؛ لأن إقامة الحياة حق لجميع الأبناء.

ولله المثل الأعلى؛ فعلى مستوى الخالق العظيم تكون الربوبية، أنه يخلق مليارات البشر والكائنات الأخرى، ويعتني، ويحفظ، ويأوي، ويُسخر للإنسان الكون كله، ويمده بما يقيم حياته من مأكل، ومشرب، ودواء، ويمتعه بآلاف الأصناف والأنواع والألوان، نعمه لا تُعد ولا تُحصى سبحانه رب العالمين.

والعلاقة بين الرب وبين العوالم التي يرعاها علاقة رحمة؛ فالرحمة عطاء فيها علم، وفيها قدرة، وفيها جمال، وفيها لطف، وفيها عناية. وأول صفة من صفات المربي، أنه يكافئ المحسن ويعاقب المسيء، فعندما تأتي بطاعةٍ، تجد في قلبك الراحة والانشراح، ولمجرد أن ترتكب معصيةً يُلقي في قلب العاصي الضيق والكآبة والحيْرة..

فالله يربينا عن طريق قلوبنا، وعن طريق أقداره؛ لذلك في الأثر: "القلوب بين يدي الرحمن يقلبها كيف يشاء"، فيقبضها عند المعصية، ويبسطها ويشرحها عند الطاعة.

وبهذا فإن يقين المسلم بصفة الله تعالى (الرب) تجعله يُحسن استقبال أقداره، حيث يساعده هذا العلم على الثقة في رعاية الله تعالى وحفظه لعباده، ويساعده على حسن الظن بأن الله تعالى لا يريد لعباده إلا الخير، ويعينه على اليقين بأن أقدار رب العالمين هي للتربية، والتوجيه، والرحمة.

ثانيًا: اسم الله (العدل)

العدل هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم، والله تعالى هو العدل وليس العادل، والصفة بالمصدر تعني أن الله تعالى هو العدل نفسه. وعندما يكون العدل ممن يملك السلطة والقوة المطلقة؛ فعدله مطلق، ويشمل كل خلقه في كل الأوقات والأحوال.

•**فعدله يشمل مساواة البشر كلهم لديه**، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿ ١٣﴾)الحجرات

يعتقد أحدٌ أن الله تعالى فضل نوعٍ على آخر أو جنس على آخر، أقداره هي للامتحان وليس للتفضيل أو المحاباة؛ فالله تعالى لا يحابي أحداً ولا فضل عنده إلا بالتقوى.

•**وعدله يشمل نفي الظلم الكامل عنه سبحانه**، يقول تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿ ٤٠﴾) النساء

فأعظم القضاة البشر يستحيل أن يحكم في مثقال الذرة، لكنه سبحانه وحده من يُدخل حتى مثقال الذرة في ميزان البشر كلهم؛ لذلك لا يجب أن يخشى الإنسان من أن يضيع عملٌ عَمِله لله تعالى، حتى لو كان بمقدار ذرة، وكذلك سوف يحاسبه الله تعالى على ما يفعله من ذرة الشر .يقول تعالى: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾) الزلزلة .وذلك لأنه العدل سبحانه.

ويقول لقمان وهو يعظ ابنه، يقول تعالى: (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾) لقمان

•**وعدله سبحانه يشمل حتى من يكفرون به**، يقول تعالى:

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾) هود

من كان يريد بعمله الحياة الدنيا ومُتَعها وفقط، يعطيهم ثواب أعمالهم في الحياة الدنيا كاملاً غير منقوص. فالكفار الذين يعملون أعمالاً نافعة للناس أو خيرة، لا يحرمهم الله تعالى من ثواب أعمالهم، حتى لو لم يطلبوا منه ثوابًا على أعمالهم، ولم يفعلوها ابتغاء وجهه سبحانه، لكنه يعطيهم مكافأة عملهم وأجرهم كاملاً في الدنيا التي عملوا لها، سواء بالمال الكثير، أو بالشهرة، والسمعة الطيبة، وثناء الناس عليهم.

إن صور عدل الله تعالى لا تُعد ولا تحصى، عندما نوقن بهذه الصفة العليا يتغير تقبلنا لأقداره، ولا يتطرق لذهننا أن هناك أي ظلمٍ يقع علينا أو على الآخرين، ولو بمقدار ذرة واحدة؛ فالله عز وجل عدل في خلقه، عدلٌ في أمره، عدلٌ في فعله.

ثالثًا: اسم الله (العليم)

الله تعالى يقدّر الأقدار بِناءً على علمه، وعلمه يشمل ظواهر الأمور وبواطنها، ويشمل السر والجهر، وهو يرانا في الخلوة وفي الجلوة، وفي الحضر والسفر، يعلم النوايا كلها يعلم ما يدور في خلد أي إنسان، ما يجري في النفس من حديث، وما تتمناه وما تصبو إليه وما تشتهيه، وبناء على هذا العلم يقدر الأقدار.. فعندما نعلم أنه ما من ورقة تسقط من أي شجرة إلا بعلمه، وعلمه هذا يعني أن سقوطها عن علمٍ ولحكمة.

يقول تعالى {.. وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ }الأنعام

لا يوجد حدثٌ أقل من حدث وقوع ورقة من شجرة في مكان ما في العالم، هذا الحدث البسيط جدًا بالنسبة لنا، الله تعالى يعلمه وماذا يعني أنه يعلمه؟ يعني أنه يعلم العلم الكامل عن هذه الورقة، تركيبها، بذرتها، وأطوار نموها، وفائدتها، ومتى يجب أن تقع، وأين تقع، وما الذي سيحدث لها بعد الوقوع؛ يبين لنا ربنا علمه بهذه التفصيلية الدقيقة لكي نوقن أن كل ما يحدث لنا من أحداث وأقدار، صغيرة أو كبيرة لا صُدف فيها ولا ارتجال، لكن كلها.. كلها... قدرها الله تعالى بعلمه الكامل الشامل، وبحكمته البالغة لتؤدي غرضًا معينًا وتوصل رسالة لمن ينتبه ويعي.

يقول تعالى: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّه وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَه وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ﴿١١﴾ التغابن

{ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ }يعني أن كل قدرٍ يصيب الهدف منه بالضبط، لا شيء بالصدفة ولا أمر يقدره الله تعالى إلا وله هدف محدد وحكمة بالغة، فكل ما يحدث، يحدث بعلم الله تعالى وبإذنه؛ لأنه من خلق الإنسان وسمح له بالاختيار. فالمؤمن الذي يعلم أن ما يحدث له هو في مجال علم الله وقدرته، يطمئن قلبه ويهدأ، لأنه يوقن أن العليم حكيم عدل رحيم. ويوقن أن أقداره للمؤمن الذي يحسن استقبال الأقدار كلها خير.

رابعًا: اسم الله (الحكيم)

فهو سبحانه الحكيم بمعنى المُحكِم المُتقن، الذي يُقدر التقدير الصحيح، والذي يعرف أفضل المعلومات بأفضل الطرق، فيضع كل شيء في أحسن مكان، وبأحسن قدرٍ، وفي أحسن وقت، وهو الذي يتنزه عن فعل ما لا ينبغي، فلا يمكن تغيير ما قدره لما هو أحسن، ولا هناك أبدع مما خلقه وأراده.

كل شيء خلقه بعلم كامل، وسخره بحكمة بالغة: الأرض، النجوم، النباتات، الحيوانات الأليفة والمتوحشة، السماوات، الجبال، والأنهار، والبحار... كلها بدقة وإتقان وحكمة.

فهل يُعقل أن يفعل كل ذلك بهذه الحكمة، ثم يأتي عند الإنسان، وتكون أقداره له بلا حكمة!! بالطبع يستحيل هذا الأمر؛ لذلك فعندما يُقدر الله تعالى قدرًا لأي بشرٍ على وجه الأرض، فلا بد أنه بحكمة بالغة..

كما يقول د. النابلسي: ملخص اسم الله تعالى (الحكيم)

"في الكلمات الآتية: إنَّ كلَّ شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المُطلقة، وحِكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

هذه الكلمات لو فهمناها، واستوعبناها، وعقَلناها، وعشنا معانيها لتلاشت كل الأحزان في حياتنا .عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام قَالَ: **"لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ"** مسند أحمد بن حنبل ـ صحيح لغيره.

متى يبلغ العبد هذه المكانة، ويوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؟ فقط عندما يوقن بأن الله تعالى عليم حكيم. فالغلط مجاله بين البشر، أما في حق خالق البشر فهو يستحيل، فهو عليم بكل التفاصيل وبكل الأحوال في كل الأوقات، وحكيم يضع الأمور في نصابها، والذي يبدو لنا غلطًا أو خطأً أو ظُلمًا، هو لله فيه حِكمة بالغة؛ لأنه ناتجٌ عن العلم الكامل والحكمة البالغة."

هكذا يوقن المؤمن بربه وبصفاته، وهذا اليقين يؤثر في نجاحه في استقباله لأقداره.

ولكي نتعرف على أهمية اليقين بسم الله (الحكيم)، سنستعرض موقف الشيطان من رب العالمين ومن أوامره، وكيف كان استقباله لاسم الله (الحكيم).

يقول تعالى: **(قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾)** ص.

إن الشيطان يؤمن إيمانًا يقينيًا بوجود الله تعالى رباً للعالمين، لقد كان من كبار العُباد (موقنًا بالله تعالى معبودًا) ، وتكلم مع الله تعالى (موقنًا بالله تعالى موجودًا) ، ودعاه أن يرزقه الحياة الممتدة إلى يوم القيامة، (موقنًا بالله تعالى مجيبًا للدعاء، قديرًا، فعالًا لما يريد) وأقسم بعزته (موقنًا باسمه العزيز أي القوي الذي لا يُغلب).. إنه إيمان يعلو على إيماننا جميعًا، حيث إننا لم نتكلم مع الله تعالى ويحدث بيننا حوار يؤكد لنا وجوده ولم يُلقِ لنا أوامر مباشرة.

فمع هذا اليقين لديه بوجوده تعالى وعزته ووحدانيته، ما الذي جعله يعصاه ويُصر على معصيته رغم كل هذا الإيمان وهذه المعرفة اليقينية؟

إنه عدم اليقين بكل أسماء الله تعالى وصفاته، إنه هنا آمن بصفات الله تعالى المعبود، الموجود، المجيب الدعاء، العزيز لكنه لم يوقن باسمه (العليم الحكيم)، إنه اعتقد أن الله تعالى لم يُصب عندما طلب منه أن يسجد لمن اعتقد أنه أقل منه، اعتقد أنه أعلم من الله تعالى، وأقدر على ترتيب أوضاع الخلق، ومعرفة الأصلح؛ لذلك رفض أمر الله تعالى وأصر واستكبر، فلعنه الله تعالى، وانتقل من خانة الإيمان إلى خانة الكفر يقول تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾) البقرة.

لو أنه أيقن بأن الله تعالى هو العليم الحكيم، وبأنه يعلم دقائق الأمور وما ظهر وما خفى، وبأنه يعلم ما لا يعلمه أي كائن على وجه الأرض، وبأنه بعلمه وحكمته يضع الأمور في نصابها، ويأمر بما فيه حكمة بالغة؛ لاستجاب وأطاع بدون تردد وبلا أي ضغينة تحملها نفسه، لكنه كفر به علياً حكياً، فرسب فى امتحان خلق سيدنا آدم والأمر بالسجود له، واستجاب لنفسه وهواه، بينما نجحت الملائكة لأنهم آمنوا بالعليم الحكيم، يقول تعالى على لسان الملائكة لما أخبرهم بخلق سيدنا آدم، وأمرهم بالسجود له: (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾) البقرة. فهم أطاعوا لأنهم موقنون أنه عليم

حكيم، بينما كفر الشيطان رغم عباداته، لأنه لم يؤمن بالله تعالى عليمًا حكيمًا. إن الإيمان واليقين بصفات الله تعالى يعين المسلم على النجاح في امتحانات الأوامر التي تتضاد مع أهوائه ورغباته.

وما فعله الشيطان، هو ما يفعله المسلم عندما يؤمن بوجود الله تعالى، ويؤمن به معبودًا فيصلي، ويصوم، ويزكي، ويحج، ويعتمر، وتلبس الحجاب، ويلبس الجلباب، ويربي ذقته، لكنه يحقد على هذا، ويكره هذا؛ لأنه يرى أنه الأحق بعطاء الله تعالى، وأنه لم يكن من الصواب إعطاء هذا أو ذاك.

وكالذكور الذين يرفضون إعطاء المرأة نصيبها من الميراث، يرون أن إعطاءها من مال أبيهم حُكمٌ غير صائب من رب العالمين، وأنهم الأحق بهذا الميراث؛ لأنهم أفضل من المرأة التي ستورث فلوس العائلة لزوجها وأولادهم الذين هم ليسوا من العائلة المالكة. وبالتالي فإن أمر الله تعالى بإعطاء المرأة نصيبها من الميراث ليس بحكيم. هؤلاء لم يزيدوا عن كونهم شياطين ولو صلوا، وصاموا، وحجوا، واعتمروا، وتصدقوا .لقد آمنوا بالله تعالى معبودًا، لكنهم لم يؤمنوا به حكيمًا في كل أوامره، لذلك تهربوا من طاعتها ورفضوا تحقيقها.

وكالذين يؤمنون بالله تعالى موجودًا، ومعبودًا، وحفيظًا، ومجيبًا للدعاء، لكنهم لا يؤمنون به رازقًا. فتراهم يعتقدون أن هذه الوظيفة هي التي ترزقهم، أو هذه الجهة، أو هذه البلد فيتبعون ما يجعلهم يحافظون على هذه الوظيفة، أو يحافظون على البقاء في هذه البلد ولو على غير مرضاة الله تعالى.

والذين آمنوا به موجودًا ومعبودًا، لكنهم لم يؤمنوا به عليمًا خبيرًا فتراهم يطيعون الله على الملأ، ويعصونه في الخفاء وهكذا . كل هؤلاء وآخرين مثلهم إيمانهم إيمان شيطاني لأنهم يقفون من ربهم موقف الشيطان عندما يؤمنون ببعض أسماء الله تعالى، وينكرون بأفعالهم أسماء وصفات أخرى، من هنا كانت الأهمية القصوى لمعرفة الله تعالى والإيمان واليقين بكل أسمائه وصفاته.

خامسًا: اسم الله (الرحمن الرحيم)

الله تعالى رحمن رحيم، بل هو أرحم الراحمين، لا يُقدر إلا كل ما هو خير، ولا يُنزل بلاءً إلا وهو رحمة للعباد، فمن رحمة الله تعالى بعباده موالاتهم ورعايتهم والعناية بأحوالهم، وهذا ما يتم من خلال أقداره سبحانه التي يُنزلها بالعباد.

يقول د. النابلسي في شرح هذا الاسم العظيم (بتصرف):

" الله رحيم، لكن ماذا عن ابتلاءات الدنيا من أمراض، وشدائد، ومصائب، وآلام، وماذا عن هذه الزلازل وهذه الفيضانات، وهذه المجاعات، وهذا القهر، وهذا الظلم، وهذا الفقر، وهذه الأمراض الخطيرة والآلام، يحتار في أمرها المرء، ويذهل كيف يُقدرها ويسمح بها الرحمن. لأنه رحمن الدنيا والآخرة، فرحمته تشمل الدنيا والآخرة معًا، ولا تقتصر على الدنيا فقط. فالإنسان إذا مرض فهذا مؤلم لكنه من مصائب الدنيا فقط؛ وكذلك الفقر مُؤلم، والمرض مُؤلم، والحرمان مُؤلم، والقهر مُؤلم، والذُلْ مُؤلم، أما إذا كان هذا الحرمان سببًا لعطاءٍ عظيم ومديد ودائم وخالد في الآخرة. إذا كان هذا الضرر سببًا لنفعٍ طويل، إذا كان هذا القبض سببًا لبسط كثير، فلا يمكن أن نعتبر هذه المصائب قسوة تتناقض مع رحمة الله تعالى."

لكن لماذا هذه الآلام؟ ربنا يمكنه أن يُدخل كل الناس الجنة بدون أن يمروا بهذه الآلام. هذا الأمر لا يتماشى مع أن الله تعالى خلق الدنيا والآخرة بنظام محدد، ووضع لهما قوانين محددة، وأبلغنا بهذه القوانين ومن قوانين الجنة أنه لن يدخلها إلا الطيبون الذين ذهبت كل ذنوبهم، وكانت هذه الآلام هي السبيل الوحيد لذلك إذا أحسنوا استقبالها.

كذلك، فإن بعض شدائد الرحمن تؤدى إلى مصالح دنيوية، فالاختراعات التي أفادت البشرية كلها، ويسرت لها معيشها، نتجت عن معاناة من أمراض أو حروب.

ولنتخيل الآتي: خطٌ رسمناه ممتدًا من أول لوحة بيضاء إلى آخرها، وسهمٌ في آخر الخط إلى خارج اللوحة، يعني خطًا لا نهاية له، ثم نأتي على أول هذا الخط ونضع نقطة صغيرة، هذه النقطة تكاد لا تمثل شيئًا بالنسبة لطول الخط، فلو تصورنا أن حياتنا الممتدة من الدنيا إلى الآخرة حيث الخلود هي هذا الخط الممتد، وأن حياتنا في الدنيا هي هذه النقطة الصغيرة فقط، فلو أحسنّا استقبال أقدار الله تعالى في هذه النقطة، فسوف نسعد إلى ما لا نهاية، فهذه رحمة كبرى.

فإذا كان رحمن الدنيا والآخرة يأخذ بأيدينا؛ لنسعد هذه السعادة الأبدية من خلال بعض المصائب التي لو أحسنا استقبالها في هذه النقطة، لفزنا بحياةٍ أبدية في أعلى درجات السعادة والرضا، فإنه سبحانه يكون بذلك أرحم الراحمين.

إن هذه الأحداث تدل على القسوة والعبثية إن اقتصر الأمر على الدنيا وفقط، في هذه الحالة تصبح دنيا غير عادلة كما نسمع كثيرًا. وحقيقة هذه الكلمة اتهام لله تعالى بأنه غير عادل وغير رحيم (وحاشاه سبحانه) أما إن أخذنا في اعتبارنا أن من يحسن استقبال هذه المصائب والامتحانات، يستحق مكافأة أعظم مما يتخيل، وهي مكافأة ممتدة لا نهائية، في مقابل حسن الاستقبال على أحداثٍ مؤقتة لا تحتل سوى فترة زمنية قصيرة من حياة الإنسان، والتي تمثل حياته على الأرض أصلاً فترة لا تتجاوز الدقيقتين بالمقارنة بالآخرة.

لذلك من أجمل الكلمات التي قالها بعض العارفين: "الشر المطلق لا وجود له في الكون". ما معنى الشر المطلق؟ الشر الذي يُبتغى لذاته، فالله تعالى لا يبتغي لك المرض لتتألم وفقط، ولا المنع لتُحرم مما تحبه وفقط، ولا الفقد لتعاني وفقط، ولا النقص لتشقى وفقط، ولكن لتؤدي أغراضًا خيرةً أخرى، قد نعلمها في حينها، وقد لا نعلمها إلا عندما تظهر بعد مدة من القدر، وقد نعلمها فى الآخرة.

يقول تعالى:(**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾**) الحجرات

فالله تعالى صفته أنه غفورٌ رحيم، هي صفة ثابتة تصبغ كل أقدار الله تعالى، ولم يقل سبحانه أنه المُعذب المُؤلم، بل قال (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) أى أنه إذا استحق أحدٌ العذاب،

فإنه سبحانه يعذبه عذابًا أليمًا، وذلك لردع البشر في الدنيا عن المعاصي التي تجلب التعاسة، فالله تعالى لا يرضى لعبده التعاسة والضنك؛ لذلك يغضب عليه، ويعذبه في الدنيا قبل الآخرة ليترك المعصية، فالله خلقه ليحيا حياةً سعيدة طيبة؛ لذلك فإن التعذيب ليس من صفاته سبحانه، بل هي أمرٌ طارئ، يتواجد عند الحاجة فقط.

يقول تعالى: **(مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)**﴿ ١٤٧﴾ النساء

العذاب هنا ناتجٌ عن فعل الإنسان؛ فالمعصية تحمل في طياتها عقوبتها، من الألم والعذاب. فشارب الخمر مثلاً يعيش حياةً بائسةً تعيسة، يرى فيها العذاب ألوان هو والمحيطون به، فهنا الله تعالى يخبرنا أن الإيمان والشكر يحمينا من هذا العذاب .

فما يفعل الله تعالى بعذابنا؟ هذا العذاب الذي يختفي إن اتبعنا هدى الله تعالى وأطعنا أوامره لنا؛ لكي نحيا أطيب حياة في الدنيا والآخرة.

فالله عزَّ وجل هو الرحمن، رحمن يمتعك بالصحة، رحمن يمنحك المال، رحمن يوفر المأوى، رحمن يبث فيك الراحة النفسية، لكنه أرحم الراحمين ينظر إلى آخرتك فيأخذ بيدك للعمل الصالح، وينظر إلى الحياة الأبدية التي سوف تحياها، ولمصلحة هذه

الحياة الأبدية هو رحمن، ربما يُذهب بعض مالك، يصيبك بمرض، يبتليك في بعض أولادك، لتقودك هذه الشدائد للعودة إلى أرحم الراحمين، وكل هذا ليهيئك لدخول الجنة، لأن الجنة لا يدخلها إلا الطيبون الذين أذهب الله تعالى كل ذنوبهم..

وهكذا نرى أنه مع اليقين بأن الله تعالى رحمن رحيم، سوف نجد أن استقبالنا لأقداره سبحانه وتعالى فيها الكثير من القبول، والرضا، وحسن الظن به، هذا ما يفعله التعرف إليه واليقين بصفاته جل وعلا.

ملحوظة مهمة في أمر التعرف لله تعالى، إن التعرف إلى الله علمٌ له عدة محاور أهمها: التعرف إلى أسمائه وصفاته واليقين بها والتحرك في الحياة بناءً عليها، وهذا الأمر لا يتم بين يوم ليلة، لكنه يتم بصورةٍ منطقية متراكمة مثلما تتم دراسة أي موضوع، فعندما تريد تحصيل علم الطب مثلاً فأنت تدرس مواده على يد أساتذة متخصصين سنوات، ثم تكون لك نظرتك الخاصة واطلاعك على مراجع أخرى ..ثم تختار أفضل الأساتذة لتتدرب على أيديهم فترة، ثم تتراكم الخبرات لديك فتستطيع معالجة الحالات التي تراها بصورة أسهل مما سبق..

كذلك معرفة الله تعالى، لا بد أن نتعامل معه كتعاملنا مع العلوم التي درسناها سنين وسعينا لانتقاء أفضل المدرسين ليدرسوها لنا؛ لكي نحصل على أفضل علم. فلا يكفي أن تحفظ أسماء الله تعالى وصفاته وتعرفها معرفة سطحية؛ لكي تحسن استقبال أقداره، إن معرفة الله تعالى علمٌ متراكم يأخذ العمر كله، فلا يمكن لأحدٍ أن يقول أنا أعرف الله وهذا يكفيني. هذا غير صحيح بالمرة؛ فمعرفة الله تعالى تستغرق العمر كله، وبقدر اهتمامك بمعرفته وتطبيق ما تتعلمه على حياتك، بقدر ارتفاع قدرتك على حسن استقبال أقدار الله تعالى.

معرفة الله تعالى هي الركن الأصيل في حسن استقبال أقداره

الباب الثاني

الحكمة من أقدار الله تعالى
(أمثلة من القرآن الكريم)

١. أقدار الله تعالى بالشدائد لامتحان الصبر.
٢. أقدار الله تعالى بالشدائد للعصاة من المؤمنين لامتحان التوبة.
٣. أقدار الله تعالى بالنعم لامتحان الشكر.
٤. أقدار الله تعالى بالتمكين لامتحان التقوى.
٥. أقدار الله تعالى بالشدائد لامتحان اليقين برحمته.
٦. أقدار الله تعالى بالتفاوت في درجات الدنيا لامتحان العدل والرحمة.
٧. أقدار الله تعالى بالنعم والشدائد للفاسقين لامتحان التوبة والتضرع.
٨. أقدار الله تعالى بالإيذاء البدني والنفسي لامتحان الصبر والتقوى.
٩. أقدار الله تعالى بالتعامل بين بالناس لامتحان الصبر.

(١)
أقدار الله بالشدائد لامتحان الصبر

يقول تعالى:

{وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} سورة البقرة

(وَلَنَبْلُوَنَّكُم) أخبرنا ربنا جل وعلا في هذه الآية الكريمة بأن هناك ابتلاءات وامتحانات قادمة لكل مسلم، أي أن أي قدر يصيب الإنسان، فإنه يصيبه بعلم الله تعالى وإرادته وقصده، بالقدر الذي يريد، وفي الوقت والمكان الذي يريد (فلا مجال للصدفة أو الخطأ ولا يوجد ما يسمى بالرصاصة الطائشة)، لنعلم أن ما يقع لنا من هذه الأمور ليست بالمصادفة ولا هي خارجة عن إرادة الله، وإنما هي تقدير الرب العليم الحكيم.

يقول سبحانه: **(وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ)** إن هذه الأقدار هي: " بِشَيْءٍ مِّنَ " الخوف والجوع، "وَنَقْصٍ مِّن" الأموال والأنفس والثمرات، فهو سبحانه لطف بنا بقوله "بشَيْءٍ مِّن" ليُظهر أن هذه البلاءات ليست كاملة ولا مستمرة.

فلو كانت كذلك لقال سبحانه ولنبلونكم بالخوف والجوع، ولكنه لطف بعباده فقال "بشَيْءٍ مِّنَ" ليدل على أن البلاءات فقط بشيءٍ من الخوف، وبشيءٍ من الجوع، وبشيءٍ من نقص الأموال والأنفس والثمرات، فهذه الامتحانات تأتي في فترةٍ من فترات الحياة وليس كلها، وتذهب بجزءٍ من عطاءات الله تعالى ولا تذهب بها كلها..

فإذا كانت سُنة الله تعالى في خلقه "وَلَنَبْلُوَنَّكُم"، فما الحكمة من هذه الابتلاءات؟

حكمته "وَبَشِرِ الصَّابِرِينَ" البُشرى للصابرين، وتُركت كلمة البُشرى مفتوحة ومطلقة بلا تحديد لنوع البُشرى، أو مقدارها، أو توقيتها وذلك لتشمل كل ما يبشر الإنسان ويسعده.

فمثلا البشرى لمن صبر على الخوف عند قول الحق، أن يُرزق الأمن والسكينة، والبشرى لمن صبر على الجوع؛ لئلا يأكل حرامًا أو يطعم أولاده الحرام، أن يُرزق الشبع والرزق الواسع من الحلال، والبشرى لمن صبر عن نقص المال ورفض المال الحرام، ورفض أكل أموال الناس بالباطل أن يُرزق خير منه من المال الحلال .والبشرى لمن صبر على فقد الأحباب أن يرزقه الرضا ويعوضه وهكذا.. مع كل حُسن استقبال لأقدار الله تعالى بالشدائد، مع كل صبرٍ وفهم ويقين بالله تعالى، هناك بشرى تسعده وتعوضه وترفعه.

فالله تعالى غني كريم واسع رحيم، يختبر عباده؛ ليمنحهم لا ليمنعهم، فمن صبر على النقص الجزئي المؤقت، رزقه الله تعالى العطاء الأفضل في الدنيا، والعطاء الكامل الدائم في الآخرة الذي هو خير وأبقى.

(وَبَشِرِ الصَّابِرِينَ) فمن هم الصابرون؟ إنهم هم **"الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"** إن المعنى اللغوي لكلمة "أَصابَ" هي من الإصابةِ، وإنه لَسَهْمٌ صائِبٌ أَي قاصِدٌ.

إن الصابرين هم الذين يقولون "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" هذا هو استقبال المؤمن الصابر للمصيبة، إن هذا القول يتجاوز لسانه إلى قلبه، إنه يقول قولاً يتطابق مع حقيقة مشاعره وعقيدته وهو: **"إِنَّا لِلَّهِ"** فالمؤمن يعتقد ويعيش حياته كلها تحت مظلة **"إِنَّا لِلَّهِ"**، فهو موقن أنه عبدٌ لله تعالى، وهو مُسلم أمره كله لله العليم الحكيم أرحم الراحمين، وراضٍ بقدر الله، ويطيع أمر الله، فلا يتكلم إلا بما يحبه الله، ولا ينظر إلا لما أباحه الله، ولا يتعامل إلا المعاملة التي تُرضي الله، ولا يحمل إلا قلبًا سليمًا،

ونفسًا مطمئنة، أما من يقول **"إِنَّا لِلَّهِ"** وهو متفلت من أمر الله تعالى؛ فهو لم يقلها وإن رددها ألف مرة، وبالتالي لن يحوز ثمرة هذه الكلمة الطيبة من سكينةٍ، ورضا، وحسن صبر.

ثم إنه موقن بأهم قضية في الحياة وهي الإيمان بالآخرة **"وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"** فالعلم واليقين بأنه راجع لله تعالى تثبته على الاستقامة على أمر الله، وتعينه على تحمل الصعاب، فكل ما يحدث له في الدنيا من شدائد إذا قاسه على ثوابه في الآخرة، فإنه يرى المكسب والفوز العظيم، فهو موقن أنه راجع إلى ربه يوم الحساب ليجزيه خيرًا عما أحسن الصبر عليه في الدنيا؛ فالدنيا ليست نهاية المطاف، فهي مجرد مرحلة من مراحل حياته بينما الحساب الختامي في الآخرة.

عَنْ أم المؤمنين السيدة أُمِّ سَلَمَةَ رضى الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ عليه الصلاة والسلام يَقُولُ: **(مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ اؤْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلاَّ أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا)**، قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: أَيُ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ اللهِ. رواه مسلم.

في هذا الحديث الشريف أخبرنا رسول الله عليه الصلاة والسلام بجانب من البشرى التي وعدها الله تعالى عباده الصابرين، إنه يُخلف عليه خيرًا في الدنيا قبل الآخرة، بهذا تتحول المصيبة من بلاءٍ مؤلم إلى نعمة ورحمة من رب العالمين، هذا الجزاء وهذا الإخلاف بخير مما ذهب من المؤمن، هو لمن أيقن أنه لله، فكانت كل حركات حياته دليلاً على هذا اليقين، وأنه إليه راجع، فكانت كل حركات حياته منضبطة على شرع الله تعالى.

"أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ"، هذه بشرى أخرى، إنها المكافأة السخية من الرب الكريم، هذه هي النهاية السعيدة للصبر على أقدار الله، هذا هو الثواب الذي يفوق بمليارات المرات حقيقة ما قدمه المؤمن، فلقد صبر في جزءٍ من حياته على شيء من الخوف والجوع وقدر من النقص في الأموال والأنفس والثمرات، فكان الثواب **(صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ)**، الصلاة من الله تعالى على عباده تعني الصلة الدائمة بينه وبينهم، وهذه الصلة بأرحم الراحمين الغنى الكريم، تعنى تنزل التوفيق والسداد والبركة والمغفرة والهداية عليهم، وكل العطاءات الربانية التي تأتي بأشكالٍ عديدة، وفي كل الأوقات، بصورة لا يتخيلها الإنسان، فصلاة الله تعالى ورحمته هي أعظم عطاء للإنسان على وجه الأرض؛ فمن تناله صلة الله ورحمة أرحم الراحمين، يحيا أطيب حياة في الدنيا والآخرة، (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) هؤلاء الذين هداهم الله تعالى للإيمان فاهتدوا به.

ومن أقدار الله تعالى التي أخبرنا بها، النقص في الأنفس أي الموت أو المرض .ولدينا في السيرة قصة المرأة الصالحة التي قدر الله تعالى لها المرض، فأحسنت الصبر، وأحسنت استقبال قدر الله تعالى، فكان نصيبها الجنة..

عن عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتِ النَّبِيَّ عليه الصلاة والسلام، فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ لِي، فَقَالَ: "إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعَافِيَكِ"، فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، قَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ أَلا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا" رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ

هذه حكمة الله تعالى من إصابة هذه المرأة بالمرض؛ أنها إذا أحسنت الصبر، فإنها خالدة في الجنة، ولم يكن لهذا المرض دواء في هذا الوقت، لذلك لا بد من ذكر أمر هام ألا وهو أن المبتلى بالمرض لا بد له من السعي الحثيث للشفاء بالبحث عن الطبيب الجيد، والانتظام في أخذ الدواء، وسؤال الله الشفاء التام، فمن حسن العبادة الأخذ بالأسباب التي أمر الله تعالى بالأخذ بها، فأثناء مرضه فإن صبر وبحث عن العلاج وشُفى، فهو مثاب، وإن استمر مرضه وصبر فله الجنة كما بشر رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه المرأة الصالحة.

بهذا فإن أقدار الله تعالى بالشدائد لها في حياة المؤمن الصابر رسالة هامة، ألا وهي تكفير ذنوبه إذا أحسن استقبالها، عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال النبي عليه الصلاة والسلام: **"ما مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المسلمَ إلاّ كَفَّرَ الله عَزَّ وَجَلَّ بها عَنْهُ حَتَّى الشَّوكَةُ يُشاكُها"** رواه مسلم. (ما مِنْ) لتشمل كل مصيبة صغيرة أو كبيرة. إن تكفير الذنوب أعظم حدث يحدث للمؤمن؛ فالذنوب هي التي تحول بين العبد وربه، وبينه وبين إجابة الدعاء، وبينه وبين زيادة الرزق والتوفيق والسعادة.

وعنها أيضًا قالت، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "مَا ضَرَبَ مِنْ مُؤْمِنٍ عِرْقٌ (ألم) إلا حَطَّ اَللهُ عَنْهُ بِهِ خَطِيئَةً، وَكَتَبَ لَهُ بِهِ حَسَنَةً، وَرَفَعَ لَهُ بِهِ دَرَجَةً ."المستدرك على الصحيحين. إسناده حسن.

إن الله يبتلي ليعافي، ويمنع ليعطي، ويمتحن ليكافئ.

هذه حكمته سبحانه وتعالى من الابتلاءات بالشدائد، أن ينال من يُحسن استقبالها مكانة الصابرين الذين يحبهم ويغفر لهم ذنوبهم "وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ".. "وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ".

إذًا قدرُ الله تعالى: شيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات
حكمته: البشرى للصابرين.

(٢)
أقدار الله تعالى للعصاة من المؤمنين لامتحان التوبة.

يرسل العليم الحكيم الرحيم أقداره ببعض الشدائد لبعض المسلمين العصاة، تنبيهًا لهم ليتداركوا ما هم عليه من معصية، ويتوبوا لله ويعودوا عن معصيتهم؛ لأنه لو تركهم عليها فإن مصيرهم سيكون النار. لذلك فإنه يسوق لهم ابتلاء فيه شدة لعله يوقظهم من غفلتهم، ويحيي في قلوبهم الالتجاء إلى ربهم فيكون في ذلك نجاتهم في الدنيا والآخرة.

تتمثل هذه الأقدار فيما يذكره لنا رب العالمين من قصة أصحاب الجنة بسورة القلم، لنرى كيف تكون امتحاناته لمن خالف أمره وتحايل على ما يريده الله تعالى ويحبه من عبده. تبدأ القصة من الرجل الصالح الذي كان يملك هذه المزرعة الغنية بزراعاتها الغزيرة الجميلة، وكان له عادة في التعامل مع ربه الكريم؛ أنه يقسم المحصول بعد جمعه ثلاثة أقسام :الثلث الأول للفقراء، الثلث الثاني يعيده في الأرض للزراعة، الثلث الثالث لاستهلاكه وأسرته.

لذلك أصبحت هذه المزرعة كالجنة، وأصبح إنتاجها وفيرًا ويكفي هذه الجوانب كلها، وكان له عادة مع الفقراء، أنهم يعلمون وقت الحصاد فيأتون في الصباح الباكر من هذا اليوم ليأخذوا نصيبهم. ثم تُوفي هذا الرجل وورثه أبناؤه الثلاثة. فلم يعجبهم ما كان يفعله أبوهم، ورأوا أن إعطاء الفقراء هذا القدر من المحصول كثير وغير عادل، وأنهم هم من شقوا وتعبوا في هذه الأرض وهم الأولى بالمحصول كله.. فكان الامتحان.

يقول تعالى:

ـــ ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴿٢٠﴾)

لَيَصْرِمُنَّهَا :ليقطعوا ثمارها .كَالصَّرِيمِ :كالليل الأسود محترقة سوداء.

أقسم الإخوة أن يقطفوا ثمار جنتهم في الصباح الباكر، وأنهم سوف يأخذونها كلها ولن يستثنوا منها شيئًا يتركوه للفقراء. فكان الرد الإلهي السريع أرسل الله تعالى عليها طائفًا من عنده (نار أو عاصفة أو أمراً آخر لا نعلمه) تركت أرض هذه الجنة الخضراء سوداء قاحلة، دمرها الله تعالى بكل ما كان فيها من زروع وثمار ناضجة، وأشجار سامقة ونخيل.

ـــ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾

الغُدْوة بالضم :البُكْرَة ما بين صَلاةِ الفجر وطلُوعِ الشمس.

الحَرْدُ: الجِد والقصد. والحَرْدُ: المنع، وحَرَّد الشيءَ: منعه.

انتقل الله تعالى بنا لنرى حال الإخوة في اليوم الذي قرروه لحصد المحصول، استيقظوا بمنتهى الهمة والنشاط في الصباح الباكر، وحرضوا بعضهم على السرعة؛ لكي يحققوا غرضهم قبل أن يحين الميعاد الذي يأتي فيه الفقراء عند الحصاد، وانطلقوا في طريقهم للمزرعة وهم يتكلمون بصوت خافت حتى لا يسمعهم الفقراء فيتبعوهم، وذكروا بعض بقرارهم، إياكم أن يدخل مسكين واحد المزرعة اليوم، وشعروا أنهم على قرارهم بمنع الفقراء قادرون "وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ".

ـ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾

المشهد الأخير للقصة: وصول الإخوة لحديقتهم، وكانت الصدمة الكبرى رأوا في مكان جنتهم أرض سوداء محترقة قاحلة، ظنوا في أول الأمر من هول الصدمة أنهم ضلوا الطريق، لكنهم لما تأكدوا أنها هي، أدركوا سريعًا خطأهم، وعلموا أن الله تعالى حرمهم من نعمته وعطائه لما قرروا حرمان الفقراء، واتضح أن أوسطهم في الترتيب أو أحسنهم عقلاً، قد نبههم من قبل لصفات الله تعالى وعظمته وقوانينه، هذا معنى (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)، فالتسبيح يعني اليقين بصفات الله تعالى واتخاذ القرارات بناءً على اليقين بها، لكن كلامه ذهب سدى مع حماسهم واندفاعهم نحو تحقيق هذه الخطة الخبيثة، ولكن إخوته عادوا سريعًا للحق وهذا شيء رائع جدًا، فكم منا لما تأتيه شدة يسارع بلوم نفسه على أفعاله التى يعلمها ويتوب لله تعالى، فيكون الابتلاء بالشدة طريقة للجنة.

هذا الموقف يدل على أنه أحيانًا حتى الصالحون، حب الدنيا يغريهم ويدفعهم لمعاصي تفسد عليهم دينهم ودنياهم، لكن ميزة الصالحين الذين لهم معرفة بالله تعالى، أنهم سريعو العودة عن المعصية، وسريعو الفهم لرسائل الله تعالى لهم، فتلاوموا على فعلتهم هذه وندموا وتابوا واعترفوا بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم وللفقراء، ودعوا الله الغني الكريم أن يبدلهم خيرًا منها ويقينًا قد فعل سبحانه؛ لأنه يقبل التوبة ويبدل السيئات بالحسنات.

ـ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ (سورة القلم).

بمثل ذلك العقاب الذي عاقبنا به أصحاب الجنة، يكون عقابنا في الدنيا لكل مَن خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله من النعم فلم يؤدِّ حق الله فيها، ولَعذاب الآخرة أعظم وأشد مِن عذاب الدنيا، لو كانوا يعلمون.

يعلق د. راتب النابلسي على هذه القصة فيقول:

"قصة أصحاب الجنة واضحة ومعروفة، وأصبحت كالصريم أي تلفت وانتهت نتيجة ما أصابها، "فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ" ليس هذا بستاننا، فلما تأكدوا منه قالوا "بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ"، فلضعف إيمانكم بخلتم، فلما بخلتم عوقبتم " قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ".

انتهت القصة والآن إلى التعقيب: قال تعالى "كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" معنى هذه الآية أن العذاب أسوقه للعباد العصاة من أجل هذا، من أجل أن أردهم إليَّ، ومن أجل أن أحملهم على الصواب، ومن أجل أن أحملهم على التوبة".

إن هؤلاء الإخوة امتحنهم الله تعالى أولاً بوفرة الزرع وغزارة المحاصيل والثمار حتى كأنها جنة، فكان لا بد أن تكون الإجابة السليمة على هذا الامتحان شكر الله تعالى بزيادة العطاء، بطيب نفس ورضا ودعاء لله تعالى بالقبول.

أما الإجابة الخاطئة فهي الاعتقاد أن هذا المال يخصهم وحدهم ولا حق لأحد فيه. وبالتالي يحق لهم منعه عمن يشاءون، ومنحه من يشاءون .ألا يعلموا أن الله تعالى يرزقهم ويعطيهم ويوسع عليهم من أجل إنفاقه على أنفسهم وأهليهم والفقراء والمحتاجين؟ وأنه إن منعوا هذا الرزق، فإن الله بالتالي يمنعه عنهم؛ لذلك امتحنهم ثانيًا بذهاب الحديقة مصدر رزقهم لينظر كيف يعملون.

وهناك ستة نقاط مهمة في هذه القصة الرائعة نود تبيانها:

١) لقد حوسبوا على نياتهم واتفاقهم قبل أن يتحول لعمل!

ونحن نعلم أن الله تعالى يحاسب على الأعمال وليس على النوايا، والتفسير في الحديث الشريف، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ عليه الصلاة والسلام: **"إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ"** رواه البخاري.

يتجاوز رب العالمين عن وسوسة الصدور، وهي الأفكار التي تراود الإنسان فقط دون أن يعمل بها، أو يتكلم بها أي يبدأ أولى خطوات التنفيذ بوضع خطة العمل كما فعل أصحاب الجنة، فهم لم يصلوا لمرحلة العمل، لكنهم تكلموا واتفقوا وأقسموا ليحققوا مرادهم بلا أي نية في الرجوع، فجاءتهم العقوبة.

لذلك يقول تعالى: **(لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾)** البقرة.

إن تبدوا ما في أنفسكم من نوايا طيبة أوسيئة بالكلام، أي كلام وضع الخطة، مع صدق النية في التنفيذ، أوتخفوها فلا يعلمها أحد إلا أنتم والله تعالى، يحاسبكم الله تعالى عليها؛ فيغفر لذوي النوايا الطيبة، حتى لو لم يصلوا لمرحلة التنفيذ .ويعذب ذوي النوايا السيئة حتى لو لم يصلوا لمرحلة التنفيذ، والله سبحانه وتعالى على كل شي قدير.

لهذا عوقب أصحاب الجنة قبل التنفيذ الكامل لأنهم عقدوا النية وشرعوا في بداية التنفيذ.

٢) ما هو موقف الفقراء من حرق المزرعة الغناء التي كانت تغنيهم وتشبعهم؟

طبعًا الحزن الشديد والألم على فقد مورد غذائهم. طيب الفقراء ذنبهم إيه؟ هل هذا امتحان للفقراء أيضًا؟ نعم، هذا امتحان للفقراء أيضًا، والحكمة من هذا القدر فيما يخص الفقراء هو امتحانٌ توجه قلوبهم واعتقادهم، فمنهم من استقر في قلبه أن هذه المزرعة هي التي ترزقه، وأن رزقه يأتي منها، وأنه بدونها لن يأتيه الزرق، ولن يجد ما يأكل، فيصاب بالهلع، والرعب والأسى والحزن والمرارة، لما تذهبت هذه المزرعة ولا يجد مصدر الرزق الذي يعتقد أنه بدونه سيهلك. فيدخل بذلك في الشرك بالله تعالى؛ لأن الشرك بالله تعالى هو أن تعتقد أن هناك أي شخصٍ، أو جمة، أو جماعة، أو بلد ممكن أن تنفعك أو تضرك، أو ترزقك أو تمنع عنك الرزق.

ومنهم من سينجح في هذا البلاء، فيقابل هذا القدر بالسكينة والتوكل على الله تعالى، ويُرجع أمر الرزق لله تعالى ويسأله وحده ويتوكل عليه، حتى لو احترقت مزارع الدنيا كلها؛ فهو على يقينٍ أن هذه المزرعة لم تكن هي من ترزقه، لكن الله تعالى وحده هو من يزرق؛ فهذه المزرعة، أو هذه الجهة ،أو هذه البلد أو هذه الوظيفة ليست إلا أداة وسبب يرزق بها الله تعالى من يشاء. فالله تعالى هو المالك على وجه الحقيقة، وهو الرزاق وحده على وجه الحقيقة. هذا هو امتحان التوحيد، وهذه هي الإجابة الصحيحة عليه.

وهكذا مثلاً من يعمل في دولة غنية وله راتب كبير، وقد استقر قلبه على أن هذه الدولة هي التي تغنيه وترزقه، أوهذه الوظيفة، أو انتماؤه لهذه الجماعة، ثم يذهب هذا المصدر فجأة. فماذا يكون رد فعله واستقرار قلبه، هل يصيبه الهلع والرعب، ويظل يندب حظه ويشعر بالتعاسة والحرمان؛ لأن مصدر رزقه قد ذهب، ويشعر أنه سيهلك بدون هذا المصدر، أم سيواجه الأمر بقلب مستقر مطمئن إلى أن الرزق بيد الله تعالى وحده، وأن من يعتقد أنهم يرزقونه لا يملكون لأنفسهم رزقًا، وبالتالي لا يملكون له نفعًا ولا ضرًا.

٣) الناس العاديون ممن ليسوا فقراء من الجيران والأقارب، ما هو استقبالهم لهذا الابتلاء أمامهم؟

حين يرون أولاد الرجل الصالح تذهب حديقتهم بهذه القسوة، وبهذا الفناء الكامل. منهم من يعرف صفات الله تعالى ويوقن بها، هذا سوف يُرجع الأمر لله تعالى ويثق في حكمته ورحمته، هؤلاء قد استقبلوا قدر الله بنجاح.

ومنهم من لا يعرف الله تعالى إلا معرفة سطحية لا تعينه ولا تنفعه في فهم أقداره، هذا سوف يشكك في عدل الله تعالى ورحمته، ويتهم الدنيا بأنها غدارة وليس لها أمان، وهم يقصدون طبعًا أقدار الله تعالى، هؤلاء قد فشلوا في استقبال قدر الله تعالى لغيرهم. فهكذا البلاءات تأتي لتكون امتحانات لكل من يعايشها ويراها ويسمع عنها.

٤) إن هناك كلمة واحدة سحرية ترفع عن الإخوة أي مسئولية عن هذا الدمار

كلمة لو قالها هؤلاء الإخوة لمّا رأوا الحديقة مدمرة، لحولتهم من جناة إلى مجني عليهم، ولجعلتهم لا يفكرون في أي ذنبٍ ارتكبوه، ولجعلت الأمر يمر بلا أي دروس مستفادة.

هل علم أحد ما هي هذه الكلمة السحرية التي ترفع عن أي إنسان أي ذنب، وتفقده التفكير السليم والبحث الحقيقي عن الأسباب؟

إنها كلمة (**إحنا اتحسدنا**) الناس حسدتنا على المزرعة الجميلة التي تركها أبونا لنا "حسدونا وباين في عنيهم"، هذه الكلمة هي التي يوحي بها الشيطان لمعظم الناس كلما أصابتهم شدة، إنها الكلمة التي تفقد المسلم الاستفادة من أي رسالة يرسله الله تعالى له، فلا ينظر في أخطائه ولا معاصيه، بل يُحَمل الناس من حوله كل ما يحدث له، ويتجاهل كل أفعاله، فيمتلئ قلبه غيظًا، وبغضًا لأقاربه ومعارفه وجيرانه. وبدلاً من أن يستفيد برسالة الله تعالى له، يرتكب ذنوبًا إضافية بسوء الظن بهم واتهامهم بحسدهم له، والهدف من هذه الاتهامات الكاذبة إخراجه من أي مسئولية وإلقاء المسئولية على أي أحد آخر، أو معالجة شعوره بالنقص وحصوله على شعور زائف أنه أفضل من كل الناس لذلك فهم يحسدونه لما فى قلوبهم من غيظ وحقد عليه!!!

وبهذا يظل الإنسان على معصيته، وتظل الأقدار والعقوبات تنزل به، ويظل يتساءل ماذا فعلت يا ربي علشان تعمل فيَّ كده؟ ويظل يتهم الدنيا الغدارة والناس الوحشة والزمن اللي ملوش أمان.

٥) الفرق بين الرضا والصبر

قرأت على الفيس بوك تعريفًا للفرق بين الرضا والصبر يقول: *(هناك فرق بين الصبر والرضا، فالرضا درجة أعلى من الصبر، أن تصبري يعني أن تتحملي الألم لأن هذا قدرك وليس في يدك شيء غير الصبر، لكن الرضا أن تشكري الله على هذا الألم)*..

ما رأيكم في هذا الكلام؟ هل لو فكر الإخوة أصحاب المزرعة بهذه الطريقة، واعتبروا أن هذه الشدة ينبغي الرضا بها، وشكر الله على الألم الناتج عنها، هل كانوا سيتنبهون لحكمة الله من هذه الرسالة، ويسارعون بإصلاح أخطائهم؟

بالطبع لا، لن يستقبلوا هذه الشدة بالتوبة والندم، وبالتالي سيظلون على معصيتهم ويعيدونها مرات ومرات، وسوف تتوالى عليهم المصائب أيضًا مرات ومرات، إن هذا التعريف خاطئ، ولا يقود المسلم لرضا الله تعالى، بل قد يقوده لغضب الله تعالى، لأنها صبر ورضا بالمعصية.

هذا لنتعلم أن حسن استقبال البلاءات والشدائد ليس دائمًا الصبر والرضا. فهناك بلاءات الصبر والرضا فيها معصية، تقود إلى تعاسة الدنيا ونار الآخرة، لكن لا بد من البحث الصادق من جانب كل إنسان عما يمكن أن يكون السبب لنزول هذه الشدائد، فنحن نرى في قصة الإخوة أصحاب الجنة، أنهم هم فقط من كانوا يعلمون حقيقة نيتهم ومعصيتهم؛ لذلك فإن كنت تعلم معصية أنت قائم عليها، فشهادة الناس لك في حال وقوع مصيبة وشدة أنك من الصالحين، وأن ما أنت فيه رفع درجات، لن تنفعك في شيء، فكل إنسان أعلم بحقيقة نواياه وحقيقة أفعاله، وعليه أن يتوب فقط لربه ولا يخبر أحدًا.

٦) التوبة الرائعة لأصحاب الجنة

مثلما ذكرنا قصتهم، لديهم مزرعة رائعة الجمال، تزداد جمالاً سنة وراء الأخرى، عندما كان أبوهم يخرج زكاة الزرع بطيب نفس وحب لثواب الله تعالى وعطف على المساكين، فلما توفى أبوهم، اتخذوا قرار لا رجعة فيه بالحرمان الكامل للمساكين من ثمار مزرعتهم الغنية، فابتلاهم الله تعالى بقدر التدمير الكامل لمزرعتهم هذه.

تعالوا نحلل مواقفهم المختلفة ونشوف أين سقطوا وأين نجحوا..

أولاً: علمُنا بالله تعالى يقول أنه لا يمكن أن تكون هذه أول غلطة لهم في حق الفقراء، فالله تعالى لا يعاقب من أول غلطة أبداً، إنه يعفو عن كثير، ويبعث رسائل هينة كثيرة، لعل الإنسان يفهم بسرعة ويعود.

فمثلاً من الممكن أنهم كانوا دائماً في حالة ضيق ورفض للفقراء الذين كانوا يأتون المزرعة في حياة أبوهم يأخذوا نصيبهم، فكانوا يتكبروا عليهم ويتكلموا معهم بطريقة غير لائقة، وقد يرفضوا أن يعطوهم من النوعيات الجيدة من الثمار؛ لأن تصميمهم على حرمان الفقراء من نصيبهم من المحصول لم يأت فجأة أبدًا. بالتأكيد هي رغبة نمت بداخلهم بالتدريج، وهم لم يتوقفوا ولم يردعوا أنفسهم عن التفكير بهذه الطريقة، ولم يتوقفوا عن التعامل معهم بطريقة فيها كراهية وتعال، وأكيد ربنا أرسل لهم رسائل كثيرة، لكنهم لم يتوقفوا عندها ولم يهتموا بها، ولم يحسنوا فهمها، حتى وصلوا لمرحلة خطيرة بعد وفاة أبوهم، أن قرروا الحرمان الكامل للفقراء من ثمار المزرعة.

بهذه الصورة، فهم قد سقطوا في أول ابتلاء لهم بامتلاك هذه المزرعة الرائعة، لقد أساؤا للفقراء وكرهوا ما يأخذونه مما أغناهم به الله تعالى..

ثانياً: استقبالهم لقدر التدمير الكامل للمزرعة، كانت إجابة صحيحة جداً، استقبلوا هذا القدر بالتوبة الرائعة الواضحة السريعة الصريحة المحددة، ليس استغفاراً عاماً وفقط.. لا.. إنه الاعتراف الواضح بالخطأ، والندم الحقيقي، وتحمل المسئولية الكاملة عنه بلا أعذار أو تبريرات.

لقد نجحوا نجاحاً باهراً في امتحان الشدة، كانوا يستطيعون أن يختلقوا لأنفسهم مائة تبرير يحميهم من لوم النفس والشعور بخزي المعصية، لكنهم آثروا الصدق والتوبة، وتحملوا ألم المصارحة بالمعصية، على أن يكذبوا على أنفسهم، ويفقدوا التوبة الحقيقية، فيخسروا دينهم ودنياهم.

ثالثاً: الفهم الرائع لصفات الله تعالى عندما قالوا: "عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ" يعلمون أن الله تعالى سيبدلهم خيراً منها، لأنهم اعترفوا وندموا وتابوا، والله يحب التوابين، وأنه قادر أن يبدلهم خيراً منها. فلديهم العلم بصفات الله تعالى، كما قال لهم أخوهم الأوسط: "قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ" فالتسبيح هو معرفة أن الله تعالى أعلى وأجل من أن يستطيع أن يعصيه أحد ولا يحاسبه، وأن ما أصابهم إنما هو من فعلهم، وما كان الله تعالى أن يصيبهم بهذه الإصابة لولا استحقاقهم لها.

إن هذه التوبة وهذه المعرفة بصفات الله تعنى شيئًا واحدًا، أنهم كانوا يحملون في عقولهم ونفوسهم أرشيفًا كاملاً بالمعلومات اليقينية عن الله تعالى وعن أفعاله وعن قوانينه وأقداره من قبل، ولولا وجود هذا العلم لم يكونوا ليفهموا ما حدث لهم بهذا الوضوح وهذه السرعة. فكما رأينا من قبل أن الفرق بين الأصناف الأربعة بالحديث الشريف، هو العلم، لكن لابد من تواجده قبل مواجهة الإبتلاءات الكبرى، سواء كانت بالشدة أوالنعمة، لأنه استحالة أن يعرف المسلم كل القضايا الهامة التي تثبته حين الإبتلاءات، في أثناء حدوث الإبتلاءات ذاتها. فحدث مثل الذهاب الكامل لرأس المال، هو حدث مزلزل يكاد يفقد الإنسان عقله، بل إنه بالفعل أفقد بعض الناس عقولهم، بل وحياتهم. فلولا العلم اليقيني السابق المستقر بالعقل والقلب لدي أصحاب الجنة، ما فهموا بهذه السرعة والوضوح سبب ما حدث لهم، وما عرفوا أن التوبة النصوح هي الطريق الوحيد أمامهم للنجاة وتعويض خسارتهم.

وكمثلٍ، من المعروف أن من يريد أن ينجح في فتح الباراشوت بعد القفز من الطائرة، لا بد أن يتعلم ذلك وهو على الأرض أولاً، حيث أنه يستحيل أن ينجو من يقفز بلا تدريب سابق، ولا يكفيه اعتقاده الشخصي أنه قادر على فتح الباراشوت وهو في الهواء الطلق بدون علم أو تدريب، العلم هنا والتدريب هما انقاذٌ للحياة.

وهكذا العلم بالدين، من يتعلم دينه وقرآنه وقت الرخاء سوف ينجو وقت الشدة، وهذا معنى الحديث الشريف: **{اعْرِفِ اللَّهَ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ}**، فمن يعتقد أنه ناصح وعارف كل حاجة، وهيقدر يعدى من أي بلاء أو أزمة بدون علم أو تدريب، فمصيره كمصير من يحاول فتح الباراشوت وهو في الهواء. فوقت الشدة والأزمة والألم، الإنسان في الهواء تماماً، يبحث عن النجاة، فلا يجدها، فإن كان على علم مسبق بحكمة الله تعالى من أقداره، ومدرباً من قبل على حسن استقبالها، فإنه يستطيع تخطى الأزمة بنجاح وفلاح، كنجاح أصحاب الجنة في تخطى شدة فقد مالهم كله.

وإن لم يكن على علم من قبل بحكمة الله تعالى من أقداره، ومدربًا على حسن استقبالها، فإنه يفشل في استقبال قدر الله تعالى ولو كان بالنعمة، كفشل قارون الفاشل.

هكذا رأينا أن أبطال قصة أصحاب المزرعة سقطوا في أول امتحان وهو امتحان الغنى، ونجحوا في ثانى امتحان وهو امتحان الشدة، وبهذا كان الابتلاء بالغنى وبالاً عليهم، بينما كان الابتلاء بالشدة نعمةً لهم.

وهكذا فإن من حكمة الله تعالى في بعض البلاءات أن تكون إنقاذًا للعبد من النار، إنه برحمته يسوق له مرضًا مؤلمًا، أو فقدًا لحبيب، أو فقدًا لمال، أو لجاه، أو أي بلاء فيه شدة، فإن كان على معصية، فانتبه وتاب لربه وأقلع عن معاصيه، غفر ذنوبه ورحمه، وأبدل سيئاته حسنات، كل ذلك حبًا له ورعاية وعناية به. يقول تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾) السجدة. الحكمة من البلاء "لعلهم يرجعون"، يرجعون لأمر الله تعالى والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة. فالله تعالى لم يقدر البلاء لإيلام الإنسان وتعذيبه، ولكن ليقوم بمهمة إنقاذ للعاصي.

يقول ابن القيم في "إغاثة اللهفان": "إن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء ويستعد به لتمام الأجر، وعلو المنزلة".

إذًا قدر الله تعالى: الابتلاء بالشدائد
حكمته: التوبة

(٣)

أقدار الله تعالى بالنعم لامتحان الشكر

كما يبتلي الله تعالى المؤمنين بالنقص في الأموال والأنفس والثمرات، يبتليهم بالزيادة في الأموال والأنفس والثمرات؛ ليمتحن ثباتهم على الدين ووقوفهم عند حدود شرع الله، فهل سيشكرون ربهم المنعم ويستخدمون نعمته في طاعته والإنفاق في سبيله؟ أم ستستخفهم النعمة فيتكبرون ويطغون ويبخلون؟

سوف نستعرض حالتين تعرضتا لامتحانٍ الغنى؛ في الحالة الأولى نرى النجاح في هذا الامتحان، وفي الحالة الثانية نرى السقوط.

•**الحالة الأولى:** سيدنا سليمان تعرض لهذا الامتحان، فآتاه الله ملكًا ومالاً لم ولن يكونا لأحدٍ، خزائن ملئى، وكنوزًا شتى، وأراض، ومزارع، وحدائق لا مثيل لها، وتسخيرًا للرياح، فيمطر السحاب حيث أراد، وتسخيرًا للجان فيعملون بأمره ما لا يستطيع بشر أن يعمله، لقد آتاه ملكًا ومالًا يتضاءل بجانبه غنى أغنى الأغنياء في أيامنا الحالية، فكيف كان استقبال العبد المؤمن لهذا الامتحان؟

قَالَ تعالى على لسان سيدنا سليمان عليه السلام لما رأى هذا الملك العظيم: **{... قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}** ﴿٤٠﴾ النمل.

بعد أن استعرض سيدنا سليمان ملكه العظيم من جنود يأتمرون بأمره، وجنود من الجن يشيدون له القصور ويفعلون له ما شاء، وطيور وحيوانات ورياح يأمرها فتذهب حيث شاء.

مُلكٌ لم ولن يكون لأحد من خلق الله تعالى، ونتيجة هذا المُلك فإن كنوز الدنيا كلها تحت قدمه .لما رأى ذلك كانت أول كلمة علق بها على عطاء الله تعالى له: **(قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي)** هذا أول رد فعلٍ للمؤمن عندما يرى عطاءات ربه ونعمه عليه، هذه أول إجابة سليمة في امتحان الغنى، أن يُرجع الفضل فيما يملك لمن يعطي ويمنح على وجه الحقيقة وهو الله تعالى؛ ذلك أن إرجاع النعمة والفضل لله تعالى يعني استخدامها فيما يُرضي مانحها ومالكها.

ثم أعلن حقيقة هذا العطاء فقال: **"لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ"** ونلحظ أنه في مواجهة الشكر.. الكفر؛ لأن الشاكر لنعمة ربه إنما يفعل ذلك لأنه يؤمن بالله تعالى، يؤمن بوجوده، وبملكه، وبغناه، وبقدرته، وبعلمه، وبحسابه. أما من يُغطي على نعم ربه فلا يشكرها فقد كفر بالنعمة؛ لقد فعل ذلك لأنه لا يؤمن بأن الله تعالى هو المالك على وجه الحقيقة، وأنه ليس هو الرازق، وأنه ليس الغني القادر، إن الغني المؤمن يرى غناه امتحانًا وابتلاءً واختبارًا، لا يراه مجالًا للتفاخر، والكبر، والنظرة الدونية للآخرين؛ إنه فقط امتحانٌ يفرق بين المؤمن الشاكر لربه بالعمل والإنفاق في سبيله، وبين من كفر نعمة ربه، فغطى عليها ومنع حق الله تعالى فيها.

ثم يقرر حقيقة التعامل مع الله تعالى **"وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِي غَنِيٌّ كَرِيمٌ "** من يشكر الله تعالى على نعمه وعطاءاته، إنما يشكر لنفسه أي أنه هو من سوف يستفيد من هذا الشكر وليس الله تعالى؛ لأنه بشكره هذا يرتفع درجات عند الله في الدنيا والآخرة، فهو قد نفع نفسه ووضعها في الوضع الجميل الذي يسعدها، ويجعلها أهلاً لاستقبال المزيد من النعم والعطاءات.

أما من كفر النعمة واعتقد أنها أتته بذكائه واتصالاته وقدراته، وبالتالي فيرى أن من حقه أن ينفقها على ملذاته وأهوائه ولا يتبع فيها أمر الله تعالى، فهذا قد كفر النعمة.

والحق أن الله تعالى غني عن هذا وذاك لأنه هو الغني الكريم، "إِنَّ رَبِي غَنِيٌّ كَرِيمٌ" فمن يُحسن فإنما يُحسن لنفسه ومن يسئ فعليها.

وفي حديث لرسول الله عليه الصلاة والسلام يبين لنا فيه كيف النجاح في امتحان الغنى، عنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: خَرَجْتُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام يَمْشِي وَحْدَهُ لَيْسَ مَعَهُ إِنْسَانٌ، قَالَ: فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَهُ أَحَدٌ، قَالَ: فَجَعَلْتُ أَمْشِي فِي ظِلِّ الْقَمَرِ، فَالْتَفَتَ فَرَآنِي، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟، فَقُلْتُ: أَبُو ذَرٍّ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَالَهْ"، قَالَ: فَمَشَيْتُ مَعَهُ سَاعَةً، فَقَالَ: **"إِنَّ الْمُكْثِرِينَ هُمُ الْمُقِلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ خَيْرًا فَنَفَحَ فِيهِ يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ وَوَرَاءَهُ، وَعَمِلَ فِيهِ خَيْرًا"** رواه البخاري

يقرر رسول الله عليه الصلاة والسلام أن المكثرين من الأموال سواء كانت أموال سائلة، أو عقارات، أو أراضي، أوغير ذلك.. هم المقلون في الحسنات يوم القيامة، إلا.. من اكتسب ماله بالحلال الطيب، ثم أنفقه في سبيل الله بكثرة. فابتلاء المال نعمة للعبد الصالح الذي ينفق في كل المجالات، ولكل الأشخاص المحيطين به يمينًا وشمالاً، سرًا وعلانيةً، للأرحام وللأغراب، زكوات وصدقات ومنحًا وهبات ومساعدات، وتسديد ديون وعلاج مرضى...، إنفاقه هذا هو الذي ينجيه عند الحساب، ولا يفعل ذلك إلا من علم حكمة ربه في هذا الابتلاء بالعطاء، وأنه امتحان وليس تفضيل وتكريم من الله تعالى.

أما من أُبتلى بكثرة المال ولم يعلم حكمة ربه في هذا الابتلاء بالعطاء، فبخل وأمسك، فقد رسب في هذا الامتحان وكان يوم القيامة من المقلين في الحسنات.

•**الحالة الثانية**: نأتي للجانب الآخر الذي أُبتلي بالغنى الفاحش والمال الوفير، ثم سقط في امتحان الشكر، إنه قارون، يقول تعالى:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (القصص)

هذا نموذج ذكره الله تعالى لنا في القرآن؛ لنتعلم منه حال السقوط في امتحان الغنى والشكر فنتجنبه. إنه قارون الذي آتاه الله تعالى كنوزًا يعجز عن حمل مفاتيحها الأشداء من الرجال فماذا فعل؟ سنبحث في قصته ونرى استقباله لقدر الله تعالى له بالغنى.

سنستعرض الآيات التي سردت قصة قارون من خلال ٨ نقاط أساسية:

النقطة الأولى: التعريف بقارون. النقطة الثانية: ثروة قارون. النقطة الثالثة: مجموعة النصائح التي وجهها المؤمنون لقارون. النقطة الرابعة: استجابة قارون. النقطة الخامسة: ردود الأفعال المختلفة للناس من حول قارون. النقطة السادسة: نتيجة سقوط قارون في ابتلائه بالغنى. النقطة السابعة: التمني من الأفعال. النقطة الثامنة والأخيرة: التعليق الرباني على هذه القصة.

١) التعريف بقارون: "إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِم"

معنى: من قوم موسى، إما لأنه كان من بني إسرائيل، أو من قومه يعني: الذين يعيشون معه. والمفسرون يقولون: إنه ابن عمه. وما يهمنا من أنه كان من قوم موسى، أي كان من اليهود المنتمين لديانة سماوية، أي كأنه الآن من المسلمين، ثم إن سيدنا موسى عليه السلام طلب من قارون زكاة ماله، دينار في كل ألف دينار، ودرهم في كل ألف درهم، فرفض قارون وامتنع، بل وألَّبَ الناس ضده عليه السلام. كان منهم لكنه ظلمهم، لم يحدد رب العالمين نوع الظلم، ليظل مفتوحًا على كل أنواع الظلم وأشكاله، من منع الزكاة والصدقات والمساعدات، إلى أكل أموال الناس بالباطل بالغش، والخداع، والرشوة، والاحتكار، إلى استخدام ماله في تشجيع الفاسدين، وإغواء الشباب والضعفاء، كل أنواع الظلم..

٢) ثروة قارون: "وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ"

أعقب رب العالمين وصف قارون بالظلم، أن آتاه كنوزًا هائلة!!! بالرغم من ظلمه آتاه الله تعالى هذا الكم الهائل من الأموال. لماذا؟ لماذا يؤتي الله المال الكثير والغنى الفاحش لبعض الظلمة، ويدع بعض المؤمنين في فقرهم؟ هذا السؤال يعني أنني أحكم بأن إيتاء المال يعني الرضا من الله تعالى، والكرامة لمن يعطيه المال، وهذا معيار خاطئ تمامًا، كما بينا من قبل ما قاله رب العالمين في سورة الفجر؛ لقد أعطاه المال ليبتليه ويمتحنه، وليس لأنه يكرمه، كما قال سيدنا سليمان (لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)، رب العالمين يبين لنا أنه يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب؛ لأن المال امتحانٌ مثل أي امتحانٍ آخر يقدره الله تعالى، هو امتحانٌ في انتظار إجاباتنا، وإجابتنا هي التي من خلالها نعرف ربنا راضٍ عنا أم لا.

٣) مجموعة النصائح إلى وجهها المؤمنون لقارون: "إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾"

أرسل الله تعالى له من ينصحه، ويدله على الطريق السليم للتعامل مع ابتلاء الغنى والمال قالوا له: "لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ"، إنه لا يجب من يفرح بماله فرح المختالين المتكبرين؛ فالله تعالى لا يحب كل مختال فخور. لأن الفرح المذموم الذي ينشأ عن الكبر والفخر، يعني مباشرة البعد الكامل عن الله تعالى؛ حيث يستحيل أن يتكبر أو يتفاخر من يرى أن الله تعالى هو الرزاق القوي العظيم الرقيب الحسيب.

والله تعالى يحب لنا أن نفرح، لكن الفرح المحمود الحقيقي وليس الزائف، الفرح بأمورٍ حقيقية تؤدي لفرح الدنيا والآخرة، الفرح بعطاء الله تعالى وبالهدى الذي يسعدنا، ويشف ما في صدورنا من أي ألم وحزن، يقول تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾)** يونس

فى هذه الآيات الكريمة يقول د. النابلسي:
(لا يحب الفرحين بالدنيا؛ لأنها مؤقتة زائلة، لكنه يحب الفرحين بالآخرة، فلما يسعى الإنسان في تحقيق هدفه الأخروي، ويفرح، فوالله معه الحق، وإنه على الحق، لكن قبل تحقيق هدفه الأخروي الفرح لا معنى له، إن المؤمنين يفرحون بعطاء الله، يفرحون برضى الله عنهم).
ومما جاء فى الأثر عن سيدنا أبو بكر أنه لم يحزن قط لشئ فاته من الدنيا.
واستكمل الناصحون نصحهم: "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ".
أي أنه يجب أن يهدف من كل تصرف يتصرفه في ماله أن يرفعه الله به في الآخرة .أي ينفق ماله في الأمور والجهات التي يحبها الله تعالى، والتي وعده بها مقامات عالية في الآخرة، وهذه النصيحة هامة جداً لأنها تؤدى إلى التوجيه السليم للإنفاق، حيث أنه لا يمكن لعاقل أن ينفق ماله على المعاصي ويبتغ به الدار الآخرة.
ولا يجب أن ينسى أن نصيبه من الدنيا أن يعمل للآخرة؛ فالدنيا لم يخلقها الله تعالى للتكاثر، والتفاخر، والمباهاة، إنما خلقها لتكون مجال العمل الصالح، فلا تنسى أن نصيبك من الدنيا وسبب وجودك فيها، أن تعمل للآخرة، فالدنيا مزرعة الآخرة، خلقنا فيها لتكون مجالاً للعمل الصالح، فلو ضاع نصيبك هذا من الدنيا ضاعت الآخرة كلها والعياذ بالله، فالمؤمن يعمل ويجتهد ويكسب مال بالحلال ويتزوج ويربي أولاده ويُحسن دائمًا من معيشته، ومبتغاه جنة الآخرة، لا يكون كل همه أن يترقى في الدنيا فقط، هؤلاء سيكونون مثل الذين ذكرهم رب العالمين في الآية الكريمة **(فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾)** النجم.. خطأ كبير ألا يريد المسلم من حركته في الدنيا، العلو في الدنيا فقط، هذا يُعرض الله تعالى عنه، هو أعرض عن أن يبتغي الله بعمله، فأعرض الله عنه. فالمؤمن يتحرك في الدنيا بكل طاقته. لكن رضا ربنا هو مبتغاه، وهدفه ثواب الدنيا والآخرة. إذًا نصيحة الصالحين لقارون بألا ينسى نصيبه من الدنيا هذه مهمة جدًا؛ لأنه يترتب عليها موقعه في الآخرة.
ثم إن الفطرة الطبيعية تجعل الإنسان يُحسن لمن أحسن إليه، والله تعالى أحسن إليك وإحسانك لله تعالى يكون بالإحسان إلى خلقه والإنفاق والتعمير في أرضه. ونصحوه "وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ" من الواضح أنه كان يتعمد أن ينشر الفساد في الأرض، يبغي الفساد لأنه فاسد ونشر الفساد يفيده في أعماله؛ ينشر الرشوة، والمحسوبية، والاحتكار، والسرقات، والمؤامرات ويعين الفاسدين، ويحمي المجرمين، ويُبعد المصلحين، والله تعالى لا يحب الفساد ولا المفسدين، امتحنه بالعطاء فاستخدم العطاء في الإفساد، فساد متعمد ومقصود؛ ليجني من ورائه الأموال الطائلة، كما أن الفاسد يريحه أن يجد من حوله في مثل فساده، ويؤرقه ويزعجه أن يرى شريفًا واحدًا.
ثم أتوا بالحكم النهائي "إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِين" ومن لا يحبه الله تعالى يبعده ويحرمه ويشقى بذلك، فيظل يتخبط في ماله حتى يهلك. فماذا كان رده بعد كل هذه النصائح المهمة؟

٤) استجابة قارون: "قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي" ."فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ".
الرد الأول: "قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي"
دي نصاحتي وده العلم اللي اتعلمته، ودي فلوسي تعبي وشقايا، محدش يقول لي أصرف هنا وهنا، ومتصرفش هنا وهنا، أنا اللي عملت الفلوس دي، وأنا حر فيها. وقد يكون تعب فعلاً في تحصيل الفلوس، وتعلم وعمل بجد اجتهاد سنوات طويلة، لماذ نرفض أن يقول دي شطارتي وذكائي؟ لأنه بالنظر إلى أساس الأمر سوف نرى أن أمر تحصيل العلم الذي تعلمه وحصل

به هذه الأموال، هو علمٌ سمح الله تعالى له بتعلمه لمْا بذل فيه المجهود المطلوب، واستخدم في تحصيل العلم وجمع الأموال، الأدوات اللي خلقها الله تعالى وسخرها له. مما يعني أن مقولة سيدنا سليمان "هَذَا مِن فَضْلِ رَبِي" ليست لمجاملة رب العالمين لكنها الحقيقة، بينما مقولة قارون كاذبة.

الرد الثاني كان رداً عملياً: "فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ"

لم يكتف بما يفعل من ظلم وفساد، إنما خرج في موكب هائل من العربات المزينة والخيول المطهمة، وسار على طريق مفروش بالرمال الناعمة والألوان الزاهية، والحرس على جانبي الطريق يقفون لتحيته وحمايته، خرج في هذه الزينة على قومه للاستعراض والتفاخر؛ لكي يستعرض أمواله وقوته وحرسه؛ لكي يتكبر بها على الضعفاء ولكي يُلقي في قلوب الناس المهابة منه؛ فينصاعوا له ويعلموا أنه لا سبيل أمامهم سوى التسليم لما يريد. خرج على قومه في زينته لكي يذلهم ويرهبهم ويُلقي الحسرة في نفوسهم.

وكل إنسان يخرج متعمداً متفاخراً أمام الناس بماله أو أولاده أو بيته أو سيارته أو لبسه وشياكته.. ليلقي الحسرة في قلوبهم، إنما هو في طريق قارون والعياذ بالله، وليحذر أن يلقى جزاه.

٥) ردود الأفعال المختلفة للناس من حول قارون: "قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾"

هنا يعرض لنا رب العالمين مساجلة حدثت بين طائفتين من الناس، الذين كانوا يقفون في طريق موكب قارون يتطلعون إلى فخامته وزينته. الطرف الأول هم من يريدون الحياة الدنيا وفقط، ولا ينظرون للآخرة بما فيها من حساب على هذا الموكب وهذه الأموال، وما فيها من حساب على هذا الامتحان، قالوا بحسرة: "يا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُوَ حَظٍ عظِيمٍ" يا ريت عندنا زي اللي عند قارون.. هي دي العيشة.. هو ده الحظ.. آدي الناس اللي عايشة مش زينا، ياعيني على حالنا..

بينما قال الطرف الثاني الذين لديهم علم بالله تعالى وبعطاءاته وحكمته من هذه العطاءات "وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ" العذاب لكم إن لم تعلموا أن ثواب الله تعالى على العمل الصالح خير من كل مال قارون، ولن يستحق هذا الثواب إلا من فهم الحكمة من امتحانات الدنيا وصبر عليها ونجح فيها.

هؤلاء الذين أوتوا العلم لهم رؤية خاصة، لهم قيمٌ خاصة، لهم أحكامٌ خاصة، لهم تقييمٌ خاص مرتبط مباشرة بالله تعالى، لقد استقبلوا قدر الله تعالى في غنى قارون استقبال ناجح، لقد حكموا الحكم السليم نتيجة فهم وعلمهم بالله تعالى.

- ولنا هنا وقفة سريعة، لنرى معيار الله تعالى فيمن له الحظ العظيم..

يقول تعالى: **(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾)** فصلت.

لا تستوي الأخلاق الحسنة والأخلاق السيئة، قدم أنت أحسن ما تستطيع تقديمه من قول وفعل، وقابل إساءة المسيء لك بالإحسان إليه، أحسن إليه كما تحسن للصديق المقرب، هذه

الأخلاق الراقية يتخلق بها الذين صبروا أنفسهم ووجهوها لما يحبه الله تعالى ويرضاه، وما يُوفَّق لها إلا ذو الحظ العظيم، وتخيلوا كيف يكون هذا الحظ الذي يطلق عليه العظيم أنه عظيم، هو رحمة ومغفرة وتوفيق وفلاح وسعادة، وأطلق رب العالمين الحظ العظيم ولم يربطه بالآخرة فقط، ليكون في الدنيا والآخرة.

هل ترون الاختلاف الشاسع بين من يعتبرهم الله تعالى ذو حظ عظيم، ومن يعتبرهم الجهلاء ذو حظ عظيم. إن أصحاب الحظ العظيم عند الله تعالى هم أصحاب الأخلاق العظيمة، وأصحاب الحظ العظيم عند أهل الدنيا هم أصحاب الغنى والأموال، وبالطبع من يعتبرهم الله تعالى أصحاب الحظ العظيم هم الفائزون حقًا في الدنيا والآخرة.

٦) نتيجة سقوط قارون في ابتلائه بالغنى: "فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ"

لما سقط سقوطًا مدويًا في امتحان الغنى، فأساء استقبال قدر الله بالغنى الهائل، جعل الله نهايته مدوية أيضًا؛ فالجزاء من جنس العمل، أهلكه الله تعالى هو وماله وبيوته وكنوزه، وغارت في أسفل سافلين، لقد أعطاه الله تعالى الفرصة تلو الأخرى؛ ليتوب ويتعلم حكمة الله تعالى من إعطائه هذا المال، لكنه رفض النصيحة واستمر في غيه، بل وأعلن هذا الرفض لأمر الله تعالى في موكبه المزين، فاستحق السقوط المدوي في هذا الامتحان.

خسف الله تعالى به وبمتلكاته، والله تعالى يخسف بكل من يتشبه بقارون، لكن هناك أشكال كثيرة للخسف؛ قد يكون الخسف في المال فقط، فنرى من كان في أعلى درجات المجتمع من حيث الأبهة والفخامة، فقد ماله في ظرف يوم واحد ولم يجد مأوى ينام فيه .أو يكون لديه المال ولا يمكنه الاستفادة منه، أو يكون المال وبالاً عليه، كل هذه صور مختلفة من الخسف، يأتي الله تعالى بملايين ومليارات الصور المختلفة للخسف كلٌ حسب درجته في امتحان الأموال، وكل قدر بعلم وحكمة وتدبير من أحكم الحاكمين.

ولدينا قصة حقيقية لملياردير سُمى قارون العصر الحديث، تتشابه قصته مع قصة قارون، طبعاً لن أذكر اسمه، هذا الشخص ولد في مكة عام ١٩٣٥ وكان والده من أصول تركية، وكان الطبيب الخاص لمؤسس السعودية ابن سعود الجد، ودرس هذا الملياردير في كلية فيكتوريا في الإسكندرية بمصر، ثم انتقل إلى ولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة لإكمال دراسته وبعد سنة واحدة فقط دخل عالم الأعمال والتجارة ولم يعد للدراسة أبدًا.

تزوج إنجليزية اعتنقت الاسلام وأنجب منها خمسة أبناء وبنات، وانتهى هذا الزواج عام ١٩٧٤ ودفع أكبر تسوية طلاق في التاريخ حينذاك وبلغت ٨٧٥ مليون دولار، جمع ثروة هائلة، وأصبح من أغنى الشخصيات في العالم خلال سبعينات وثمانينيات القرن الماضي؛ نتيجة العمولات الهائلة التي تلقاها عن صفقات السلاح الكبيرة بين الدول الخليجية والشركات الأمريكية والبريطانية. ومن أشهر صفقات السلاح التي توسط فيها كانت صفقة أُطلق عليها "اليمامة" وهي عبارة مبادلة السلاح بالنفط وكانت قيمتها ٢٠ مليار دولار بين الحكومة السعودية وبريطانيا، وأشارت التقديرات في ثمانينات القرن الماضي إلى أن ثروته كانت تبلغ حوالي ٤٠ مليار دولار.

تعالوا نشوف إجاباته على امتحان هذا الغنى الفاحش، هو أصلاً كيف جمع هذه المليارات؟ سنجد أنه واجه عدة دعاوى قانونية وفضائح من بينها فضيحة إيران-كونترا، وقضية اتهامه من قبل القضاء الأمريكي بغسيل الأموال لصالح أسرة الرئيس الفلبيني الشهير ماركوس الذي نهب مليارات من خزينة دولته، يعنى هذا أنه كان يساعد الحكام الفاسدين في سرقة أموال شعوبهم، واعترف في لحظة نشوة لصحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، أن صفقة موسى في العام ١٩٨٥ التي هدفت إلى تهجير يهود الفلاشا الأثيوبيين إلى إسرائيل، والتي نفّذتها الولايات المتحدة وإسرائيل والسودان عبر الأراضي السودانية تمت في مزرعته الخاصة بكينيا، يعني كان يعمل لصالح أعداء الأمة، من أجل تحقيق مصالحه وزيادة أمواله، كان متهما بالتلاعب بأسهم شركات خاصة بالاتصالات، وله دور في فضائح وخسائر بنك الاعتماد، وكلها مصادر ملوثة لأمواله، وكان يخرج من معظم القضايا

بأمواله ونفوذه، كان يرى أن الوسائل لا تهم في قانونيتها ما دام الوصول إلى الكنز هو الهدف، ولنا أن نتخيل وسائله إذا كان هذا مبدأه وقانونه.

إذًا أول إجابة على امتحان الغنى كان أنه يجمع أمواله من مصادر مشبوهة ومحرمة، وهذه طبعًا إجابة خاطئة، وسقوط في الامتحان.

ثم ما هي إجابته التالية على ابتلاء الغنى، كيف كان إنفاقه لماله؟ كانوا يقولون عنه إنه كان معروفاً بولعه بالقمار وإقامة الحفلات الصاخبة الكبيرة ودعوة المشاهير من الرجال والنساء لهذه الحفلات التي كانت أنهار الشمبانيا تسيل خلالها حسب وصف صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية التي نشرت سيرة حياته، وبمناسبة بلوغه الخمسين من العمر أقام حفلة في مزرعته الواقعة على الشاطئ في مارابيا بإسبانيا، ومساحتها ٥ آلاف فدان، حضرها ٤٠٠ شخص، ووصفها أحد الحضور بأنها الاحتفال كانت الأكثر بذخا بعد الاحتفال الذي أقامه ملك فرنسا لويس الرابع عشر بمناسبة توليه العرش.

ونشرت مجلة (تايم) تقريرا عنه ذكرت فيه أن نفقاته الشخصية في اليوم تقترب من أرقام المليون دولار، ويقال إن ابنته اشتهت آيس كريم من فرنسا وشوكولاتة من جنيف فأرسل لها طائرته الـ ٧٤٧ من كينيا إلى باريس ثم إلى جنيف وذلك لإحضار الآيس كريم والشكولاتة، والطائرة بكامل حمولتها من الملاحين وعادت بنفس اليوم، ولديه يخت أكبر من يخت أوناسيس فيه مهبط ٤ طائرات وعدد ٦١٠ ملاح وخادم، وكان من جلسائه الرئيس نيكسون وغيره من الشخصيات، أما عن الحرس الشخصي فلا تسأل عن العدد. وكان يمتلك ١٢ قصرًا في عدة دول، في مصر، ومدريد، وموناكو، وكان، وجزر الكناري، ولندن، وروما، وسان فرانسيسكو.

بهذا العرض، يكون قد استخدم أمواله بإسراف وسفه وتفاخر، وفى ارتكاب معاصي وفواحش بفجر وعلانية، فهذه ثاني إجابة خاطئة على امتحان الغنى، وسقط في إجابة السؤال الثاني.

فما هي إجابته الثالثة على ابتلاء الغنى؟ كيف هو إنفاقه في سبيل الله تعالى؟

رغم الأموال الطائلة التي تسد عين الشمس، إلا أنه كان يستنكف أن يساعد أي مديون أو مريض أو مسجون، وكان يردد: أنا لست وكيل آدم على ذريته، يعنى أنا مش مسؤول عن الناس دي، الفلوس دي ملكي لوحدي، أصرفها زي ما أنا عايز، محدش له حق فيها، كان لا يعرف شيئًا اسمه صدقات أو مساعدات إنسانية للمحتاجين. هذه ثالث إجابة خاطئة على امتحان وابتلاء الغنى. فسقط في السؤال الثالث.

إجابات كلها غلط في غلط، فسقط سقوطاً مدوياً، فماذا كانت النتيجة؟ عوقب بالخسف، خسر فلوسه كلها. بداية الخسارة كانت إنه تعرض إلى خسارة كبرى تجاوزت المليار بعد غرق مناجم ألماس كان يملكها في ولاية يوتاه الأميركية، في أواسط الثمانينات، حيث أدت الأمطار والفيضانات إلى غرقها، وأيضًا انخفضت قيمة العقارات، وخسر في عام ١٩٨٣ مبلغ مليار و ٥٠٠ مليون دولار، وكانت تلك الحادثة السبب الرئيسي في تراجع ثروته، وتوالت خسائره الفادحة، وخسف الله تعالى بماله كله، وأصبح مفلسًا تمامًا، وتخلى عنه الجميع، وأصبح حالُه كحال أي إنسان مغلوب على أمره.

ثم قيَّض الله له أحد كبار رجال الأعمال السعوديين كان يعطيه ما تيسر من المال ليستطيع العيش بأبسط الإمكانيات حتى توفي.

لذلك أُطلق عليه قارون العصر؛ لأنه المثال الحي المعاصر لقارون، ومثله ملايين الحالات، كلٌ بصورة تناسبه وتناسب أفعاله وكفره بالنعمة.

٧) **التمني من الأفعال: "وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾"**

بعد وقوع هذه الآية المُزلزلة أمام من كانوا يتحسرون على أنفسهم أنهم ليسوا مثل قارون، تنبهوا للحقيقة الربانية، تلك التي كانوا يعلمونها لكن حب الدنيا غلب عليهم، أو أنهم تنبهوا لكلام أصحاب العلم الذين صححوا لهم معتقدهم بأن ما فيه قارون ليس هو الحظ العظيم، وأخبروهم أن المال مال الله يعطيه من يشاء، وأن العمل الصالح هو خير من كل هذه الممتلكات.

هؤلاء الذين كانوا في غاية الإعجاب بقارون بالأمس، فاستقبلوا قدر الله تعالى له بالغنى استقبالا خاطئا، وتمنوا أن يكونوا مكانه. اليوم بعد ما رأوا آيات الله تعالى في هذا الفاشل، استقبلوا هذا القدر بنجاح، **"وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ"** اعتبروا واعترفوا بحكمة الله تعالى من قدره بكثرة المال أو قلته، إنها ليست للتعظيم أو الحرمان، إنها تبعًا لمشيئته سبحانه، تلك المشيئة التي جعلت من بسط الرزق أو تقديره وقلته، امتحاناً وابتلاءً، تلك المشيئة التي تقدر الأقدار بكل حكمة ورحمة وعلم.

ثم حمدوا الله تعالى أن مَّنَّ عليهم بعدم الخسف بهم مع قارون **"لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا "** لماذا اعتقدوا ذلك؟ اعتقدوا ذلك لأن من لا يعلم حكمة الله تعالى من قدر الغنى وابتلاء المال، وتمنى أن يكون مثل هذا الغني العاصي فهو معه يشاركه ذنوبه تمامًا ويستحق عقوبته.

وقد وضح لنا رَسُولُ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام هذا المعنى الهام في الحديث الشريف ..

عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيِّ، قَالَ: **"ضَرَبَ لِي رَسُولُ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام مَثَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَرْبَعَةُ نَفَرٍ**

١. رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَمَالا، فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ،

٢. وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالا، فَيَقُولُ: لَوْ آتَانِي اللَّهُ مِثْلَ مَا آتَى هَذَا لَعَمِلْتُ فِيهِ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ،

٣. وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي غَيْرِ الْحَقِّ لا يَتَّقِي فِيهِ رَبًّا وَلا يَصِلُ فِيهِ رَحِمًا،

٤. وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ آتَانِي اللَّهُ مِثْلَ مَا آتَى هَذَا لَعَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ".

المعجم الكبير للطبراني (صحيح لغيره).

الصنف الأول: الرجل (أو المرأة طبعًا) الذي آتاه الله علمًا ومالاً، لا يعني آتاه الله هنا أن الرجل تنزل عليه العلم والمال بلا جهد منه، ولا سعي ولا إرادة، إنما آتاه الله تعالى يعني أن الرزق كله بيد الله، وهو قد اجتهد واتخذ الأسباب لكي يكسب المال الوفير واجتهد في تحصيل العلم النافع. وبالتالي كافأه الله تعالى فرزقه المال الوفير والعلم الصحيح، فالله تعالى وعد من يعمل ويجتهد، بأنه لن يضيع أجره أبدًا وسوف يرزقه ما عمل له .هذا الرجل عنده المال، وعنده من العلم ما يجعله ينفق ماله في كل الأوجه التي يحبها الله تعالى، ينفق بسعة وسخاوة نفس، ولم يصفه رسول الله عليه الصلاة والسلام بأكثر من أن قال: (فهو يعمل بعلمه في ماله) أي أفاده علمه فثبته أمام امتحان الغنى وكثرة الأموال، فكسب ماله من حلال وأنفقه فيما يحبه الله ويرضاه، فهو غني متعلم.

الصنف الثاني: رجل آتاه الله تعالى علمًا لأنه اجتهد في مجال العلم، وسعى وبذل من وقته وماله لتحصيل العلم، لكنه لم يجتهد في مجال كسب المال الاجتهاد الذي يجعله صاحب ذا

مال كثير، يستطيع أن ينفق منه كما يفعل المؤمن صاحب المال، فهو فقير متعلم، لكنه نتيجة علمه يعلم ثواب هذا الأول؛ لذلك يرجو لو كان مثله، فله من الثواب مثل الأول، وذلك مكافأة له على علمه الذي نفعه في معرفة الحق من الباطل، وجعله يأخذ الجانب الصحيح.

الصنف الثالث: فهو الرجل الذي اجتهد واتخذ الأسباب لكي يمتلك المال الكثير، فهو غني ذو مال عريض، لكنه لم يجتهد لكي يتعلم العلم النافع الذي يدله على كيفية التعامل السليم في كسب المال وإنفاقه، فهو يتخبط في كسب المال وإنفاقه، يكتسبه من حلال وحرام، وينفقه في الحلال والحرام، فهو غني جاهل، وفعله المتخبط هذا ظاهر للجميع، فهو غني جاهل.

الصنف الرابع: هو الرجل الذي لم يجتهد لا في كسب المال ولا في اكتساب العلم، فهو الفقير الجاهل، لا يملك التمتع بالدنيا لفقره وقلة ماله، لكنه معجب بالغني الجاهل، ويتمنى لو كان في مكانه، فيفعل كما يفعل في أمواله، فعليه مثل أوزار الغني الجاهل جزاء جهله وتهاونه في أمر العلم بدينه.

هذه هي الأصناف الأربعة التي لا يخرج منها أحد، والحديث يؤكد على معنى أن التمني يترتب عليه ثواب وعقاب، التمنى المشوب بالرغبة الشديدة، بحيث لو وقع له فلوس حالا سيتصرف بالطريقة التي كان يتمناها، ثم أخر الآية الكريمة فيها حكم خطير جداً "وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ"، بدأنا قصة قارون أنه من قوم موسى، يعني أنه يهودي على ديانة سماوية كأنه من المسلمين الآن، وانتهت القصة بالتعليق عليه بأنه لا يفلح الكافرون، مثلما وضع سيدنا سليمان الكفر في مقابل الشكر (ليبلوني أأشكر أم أكفر)، هذه هي خطورة الامتحانات وخاصة امتحان الغنى والأموال، حتى أن العلماء وضعوا الغنى الشاكر في مرتبة أعلى من الفقير الصابر لصعوبة امتحانه، وهذا يؤكد لنا أن الامتحانات بصفة عامة نتيجتها هي التي تحدد من المؤمن ومن الكافر، فقد يأتى قدر بالشدة أو النعمة لمسلم فيسيئ استقباله، ويجيب إجابة خاطئة، فيتحول لكافر، وقد يأتي القدر لكافر فيحسن استقباله، ويجيب إجابة صحيحة فيتحول لمؤمن.. وهكذا.. إن أقدار الله تعالى امتحانات مستمرة ترفع أقواماً وتضع آخرين.

هذه هي الأمثلة القرآنية التي أرسلها الله تعالى لنا لنتعلم منها حكمته من أقداره بالغنى لهذا أو ذاك .إن قدر الله تعالى بالغنى، وكثرة الأموال، والأولاد، والعقارات، والسيارات، والمجوهرات، ليست لأن الله تعالى يُفضل هذا الإنسان عن الآخرين، إنما لأنه اختار أن يمتحنه بهذا الامتحان.

٨) التعليق الرباني على هذه القصة: "تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"

ختم رب العالمين القصة بهذا القانون القرآني والحُكم الرباني الرائع، تلك الدار الآخرة هنا يعنى الجنة طبعاً، ربنا جعلها لمن؟ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ.. ما هي إرادة العلو؟

هي أن يريد الإنسان من مكانته، وماله، وزواجه وأولاده وأكله ولبسه وسكنه وعربياته، ومن سفرياته.. و.. و.. أن يظهر أمام الناس بصورة تقول لهم "أنا أحسن منكم" "أنا أعلى منكم"، الذي يستخدم كل هذه الأشياء لتؤدي وظيفتها وفقط بدون أي نية أو إرادة للمنظرة والتفاخر، فلا يقع تحت طائلة الاستعلاء. لكن من يستخدم عطاءات الدنيا ليعلوا في الأرض ويستعلي على الآخرين، فهو ممن يريدون علوًا في الأرض، هذا قد حُرم من الآخرة، لأن الاستعلاء لابد أن يصحبه فساد من كبر وظلم وقهر وأكل للحقوق.

ونلحظ أمرًا خطيرًا جدًا، إن الوعيد ليس على حدوث الاستعلاء الفعلي ولا على الفساد الفعلي، لكنه يبدأ من إرادة العلوِ والفساد، "يُرِيدُونَ عُلُوًّا" وهذا يعنى أنه من الممكن أن يشترى إنسان بيتًا للاستعلاء به، لكن لم تُتَح له الفرصة لتحقيق ذلك، سوف تصيبه هذه الآية، ولن تكون الآخرة من حظه. حتى العلم، لو تعلم المسلم الدين من أجل أن يأخذ مكانة متميزة عند الناس ويصبح أعلى منهم، يدخل في هذه الآية، كل كلام، أو فعل أو علم أو مظهر، كانت النية فيه الاستعلاء على خلق الله، فهو من أصحاب الآية ولن تكون له الدار الآخرة.

إذًا الآخرة (الجنة) هي للذين يريدون علوًا في الآخرة، هي النصيحة التي قالها المؤمنون لقارون، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، يعنى أن تبتغى بكل عملك في الدنيا العلو في الآخرة، هؤلاء هم أصحاب الآخرة.

والعاقبة للمتقين، النهاية الحسنة ومكافأة النجاح للمتقين، أولئك الذين يضعون ربهم عندهم على القمة، الأولوية لديهم رضا رب العالمين، الذين يعرفونه ويقدرون صفاته في كل خطوة يخطونها، ببساطة هما إللى بيعملوا حساب ربنا عند كلامهم وتصرفاتهم وقراراتهم وكسبهم وصرفهم .. عند كل حركة من حركات حياتهم، وحتى إذا مرت عليهم أوقات نسوا فيها مراقبة الله تعالى لهم، فإنهم سريعوا العودة والإستغفار والتوبة.

هنا سؤال أخير، هناك من جمعوا فلوسهم من الحرام وأصبحوا ملياردريات وماتوا وعندهم فلوسهم كاملة بعد ما عاشوا فيما يبدوا لنا أحسن عيشة، لماذا لم يخسف الله بهم؟ الجواب سمعته من الشيخ النابلسى وهو منطقى ومناسب جداً: أن الله سبحانه وتعالى إذا عاقب الظالم في الدنيا لا يعاقب جميع الظالمين، بل عقاب الله لهذا الظالم عقابٌ يُسَمَّى رَدْعِيّ ليردع به بقيَّة الظالمين، وإذا كافأ المحسن فهى مكافأةٌ تشجيعية، الجزاء تشجيعي، والعقاب رَدْعي، ولكن الحساب الدقيق يوم القيامة: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فالدنيا عمل بلا حساب والآخرة حساب بلا عمل.

يعني العقوبات التي ينزلها ربنا على المستحقين ليست العقوبات التي يستحقونها، فالاستحقاق الكامل في الآخرة، هي فقط لكى ينتبهوا ويتوبوا أو يكونوا مثل ردعي للآخرين. وكذلك المكافآت، مهما كانت مكافآت الدنيا فهي ليست المكافآت التي يستحقها المؤمنون، الاستحقاق الكامل في الآخرة، بل هي ليزدادوا إيمانًا، وكمثل للآخرين لكى يكونوا مع المؤمنين.

إذًا قدر الله تعالى: الفتح بعطاءات مذهلة.

الحكمة: ليبلوني أأشكر أم أكفر.

(٤)

أقدار الله تعالى بالتمكين لامتحان التقوى.

من أقدار الله تعالى التي ينزلها على عباده، أقدار تمتحن مدى تمسكهم بأمره ونهيه، حين تسهل سبل المعاصي أمامهم، يقول تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾)** المائدة.

أُنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، فكانت الغزلان والطير تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتلها وهم مُحرِمُون، يقول ابن عباس: هو الضعيف من الصيد وصغيره يبتلي الله به عباده في إحرامهم، حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه (ومن المعروف أنه يَحرُم على المسلم صيد الحيوانات وهو مُحرمٌ وقد نوى آداء العمرة أو الحج).

وفي معنى الآية يقول المفسرون: "إنه صيدٌ سهل، يسوقه الله إليهم، صيد تناله أيديهم من قريب، وتناله رماحهم بالمشقة، ولقد حُكى أن الله ساق لهم هذا الصيد حتى لكان يطوف بخيامهم ومنازلهم من قريب إنه الإغراء الذي يكون فيه الابتلاء".

ولقد كشف الله للذين آمنوا في هذا الحادث عن حكمته من قدره هذا، إنه "لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ"، فلا يكون الكف عن محارم الله عز وجل بسبب عدم توفرها، بل ليختبر الكف عنها مع توافرها، فيكون هذا دليل المسلم على إيمانه بالله تعالى وخشيته منه وتقواه، وفى حياتنا الآن مثل التليفزيون، والموبايل، والكمبيوتر، وغيرها... هي ليست بحرام إذا اتقى المسلم ربه، ولم يؤدى ضعف يقينه برؤية الله تعالى له، ويستغل عدم اطلاع الناس على ما يفعل بها، في المعصية وارتكاب المحرمات.

لذلك فقد تكثر أمام المسلم سبل المعصية، وليس الأمر صدفة، بل هو تقدير إلهي لامتحان المسلم هل سيصمد ويتقي الله بالرغم من سهولة الحصول على مبتغاه وقد نُهي عنه، أم تنهار مقاومته ويقع بالمعصية؟ فمن المقولات الخاطئة (لو ربنا مش عايزني أعمل كده مكنش حطه أمامي) ولا يعلم أن وقوعها بين يديه هو الابتلاء الذي يمتحن الله به عباده المؤمنين، فهل الصائم يشترط على الله ألا يريه أي طعام أثناء صومه حتى يتم صيامه؟ أم يجاهد نفسه ويمتنع عن الأكل والشرب مهما بدا له من أصناف الأكل واشتهتها نفسه؟ وهل لو رأى الطعام فأفطر هل هو معذور لأن الطعام كان بين يديه؟ بالطبع هو غير معذور ولا يُقبل منه هذا الأمر.

وكلمة " يَعْلَمَ اللَّهُ" لا تعني أن الله عز وجل لم يكن يعلم ثم علم؛ فالله تعالى يعلم الغيب ويعلم ما تخفي النفوس وما ستكون عليه، لكنها تعني أن الله سبحانه يمتحن الناس لكي تظهر إجاباتهم على الامتحانات في الدنيا أمام أنفسهم، فتكون هي الدليل الظاهر الذي سوف يرونه يوم القيامة، فيحكموا هم بأنفسهم على ما وقع منهم، يقول تعالى: **(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾)** الإسراء

فالله تعالى لا يحاسب الناس على ما يعلمه عنهم إنما يحاسبهم على ما يقع منهم. وهكذا يمتحن الله تعالى الإنسان بالتمكين مثلاً من وظيفة معينة، ويفتح لصاحبها الجاه والسلطان والمال، ليمتحنه هل سيصمد أمام هذا التمكين ويستخدمه في طاعة الله وتقواه؟ أم يؤدى به ضعف يقينه برؤية الله له إلى استخدامها في جلب مصالحه وفرض سطوته؟

إن قدر الله تعالى بتمكين الإنسان من ارتكاب معصية، لا تعنى رضاه عنها، إنما تعني امتحان عسير لا يصمد فيه إلا القلة.

إذًا قدر الله تعالى: سهولة الحصول على المعاصي
حكمته: ليعلم الله من يخافه بالغيب.

(٥)

أقدار الله تعالى بالشدائد لامتحان اليقين

أرسل رب العالمين لنا في قرآنه الكريم، أمثله لحكمته من بعض أقداره بالشدائد. في سورة الكهف ضرب الله تعالى لنا ثلاثة أمثلة من أقداره مرت على سيدنا موسى عليه السلام والرجل الصالح، يجمعها أمر واحد سنعرفه عندما نستعرضها: يقول تعالى: **(فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾).**

فلنتخيل أننا نسمع هذه القصص بدون أن نسمع حكمة الله تعالى فيها.. سوف نرى الآتي:

القصة الأولى: ناس مساكين غلابة يعملون على مركب لنقل الناس من ميناء لآخر، تراهم مكافحين شرفاء يعملون ليل نهار بجد واجتهاد ويتحرون الكسب الحلال، لديهم عائلاتهم التي ينفقون عليها. منهم المريض ومنهم الصغير، يلبسون ثيابًا قديمة وخفيفة، يُعلمون أولادهم بأقل التكاليف، يأكلون أبسط وأخشن الطعام، وهم من الصالحين ذوي الأخلاق الحسنة. في هذا الوضع نعرف أن سفينة هؤلاء المساكين قد خُرقت، أصابها خرق عطلها عن الحركة!.. بينما كل السفن الأخرى سليمة تعمل بكامل طاقتها.

القصة الثانية: أم وأب صالحان طيبان، يحبهما الناس جميعًا، كثيرا الصدقات والصلات لأهلهما وجيرانهما، أخلاقهما حسنة مع الجميع، يغيثان المحتاج ويقرضان المعسر ويسعيان في الخير دائمًا. نتخيل مثلاً أنهما لم ينجبا من بعد زواجهما لمدة ١٠ سنين، وهما يدعوان الله تعالى أن يرزقهما الذرية الصالحة، والناس يدعون لهما، فإذا بالله تعالى يستجيب دعاءهم ويرزقهما ولدًا جميلاً أحباه حبًا كبيرًا، وبذلا الكثير في رعايته والعناية به، ثم إذ فجأة وفي أجمل سنٍ يُقتل هذا الولد ولا يعرفان من قتله؟ ولا لماذا قتله؟! لنا أن نتخيل ذهولهما وقلبيهما اللذين اعتصرهما الألم والحزن على وحيدهما.

القصة الثالثة: أسرة مكونة من أبٍ صالح شريف مكافح وأولاد الصغار، يسعى من أجل إطعامهم وتعليمهم وتربيتهم، يغرس فيهم القيم الإيمانية والأخلاق الحسنة بالرغم من أن المجتمع حوله كله فاسد وأفراده من ذوي الأخلاق السيئة. لا يراعون الجار ولا الصاحب ولا المسافر، همهم الحصول على المال بأي طريقة ومن أي أحد، يبخلون بمد يد العون لأي محتاج ويتركونه جائعًا

مشردًا بدون أن يهتز لهم جفن، قلوبهم قاسية وأخلاقهم سيئة. في ظل هذه الظروف، يتوفى الله تعالى الأب ويترك صغاره وحدهم، لا يوجد من يرعاهم ويحميهم من هؤلاء الأنذال القساة، كان ليه ربنا يتوفى الأب؟
إن الذي يجمع هذه القصص الثلاثة أننا لما نراهم بهذه الصورة سوف نقول: سبحان الله !! ليه كده.. هما عملوا إيه علشان ربنا يعمل فيهم كده ؟؟

تعالوا نشوف ليه ربنا عمل فيهم كده، ونشوف حاجة مهمة جداً نتخيلها وهى مش مذكورة فى القصة، تعالوا نتصور الاستقبالات المختلفة لهذه الأقدار، وصور النجاح وصور الفشل فيها.

أولاً: أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

أصحاب السفينة مساكين، والمسكين هو من له دخل، لكنه لا يغطى احتياجاته الأساسية، إنهم يعملون على السفينة ولا عمل آخر لهم، وما يأتيهم من عملهم لا يكاد يغطي احتياجاتهم، ثم يُقدر الله تعالى أن تُخرق، إن هذا يعني أن مصدر رزقهم القليل الذي يعتمدون عليه قد تعرض لأذى الشديد، وهذا سيؤدي إلى تقليل الدخل عن حد الضرورة، بينما كل السفن الأخرى سليمة تماماً وتعمل بكامل قوتها.

كيف سيكون استقبالهم لهذا القدر المؤلم الذي تركهم في أسوأ حال، فمن أين الآن ثمن إصلاحها؟ وأثناء فترة توقفها من أين سيأكلون؟ (يعني هو الحال ناقص!) هم أمام قدر مؤلم لا يجدون له أي تفسير، ولا يرون فيه أي حكمة.

هذا الامتحان لهؤلاء الناس لا نعلم ماذا كان رد فعلهم، وكيف كان استقبالهم لقدر الله تعالى وامتحانه. لكن نتصور الصورة الأولى: لو كانوا على علم بالله تعالى، فأحسنوا استقبال هذه المصيبة وقالوا :حسبنا الله ونعم الوكيل، وكلهم ثقة ويقين بأن الله تعالى سيكفيهم ويعوضهم، وخاصة أن هذه المصيبة لم تكن بسبب منهم، أو بتقصير أو اهمال، بل كانوا متبعين لكل ما من شأنه أن يحافظ عليها، لكن قدر الله وما شاء فعل.

تصورا لو كان هذا استقبالهم الناجح لهذا الامتحان ولهذه الشدة، بدون أن يعلموا أن هذه المصيبة ستنجيهم من كارثة كانوا مقدمين عليها، تصورا الثواب العظيم الذي كانوا سينالونه، ثم مكافأة الدنيا، أن قَدر اللهِ تعالى قد أنقذ سفينتهم من أن يفقدوها تمامًا ويستولي عليها الملك الظالم، بل هناك مكافأة أخرى، أن سفينتهم ستكون هى السفينة الوحيدة الناجية التي تعمل على هذا الخط، فبعد اصلاح الخرق وعودتها للعمل، سيزيد دخلهم أضعاف السابق، وقد يشترون سفناً جديدة ويتوسعون، ويصبحون من الأغنياء، كل هذا بسبب هذا القدر الذى ظهر لنا فيه قسوة بالغة.

ثم نتصور الصورة الثانية: الاستقبال المعاكس، لو أنهم أساءوا استقبال قدر الله تعالى بخرق السفينة، فاتهموا الأقدار بأنها ظالمة (اشمعنى إحنا يا رب..يعني تيجي علينا وتسيب الأغنيا.. هو مفيش حاجة في الدنيا دي تفرح..كل حاجة تغم.. جتنا نيلة في حظنا الهباب) هذه هي الكلمات التي نسمعها من كل إنسان ينعم بعطاءات الله تعالى ونعمه، فإذا مسه ضر لا يتقبل أن يخوض أي امتحان يقدره الله تعالى له، يختبر به ما يدعيه من إيمان وحب لله وثقته في أقداره. إنهم لو استقبلوا هذا القدر المؤلم بهذه الصورة، فقد رسبوا في هذا الامتحان وخسروا كثيرًا، وسوف يندمون عندما يرون أن هذا القدر كان هو أحسن شيء مر بهم. لقد فقدوا ثواب النجاح في هذا الامتحان، لأنه أظهر حقيقة ما فى قلوبهم من عدم اليقين بأنه سبحانه العليم الحكيم أرحم الراحمين، لا يقدر إلا كل ما هو خير، وقد يفقدون التوفيق فيما هو آت من عملهم.

إن هذا الموقف في القصة يُعلمنا الاستقبال السليم لأقدار الله تعالى بالشدائد التي لا يد لنا فيها، فعندما لا نرى في المنظور القريب أي حكمة من الشدة التي تواجهنا، فلن يُثبتنا إلا معرفتنا بالله تعالى وثقتنا بعلمه ورحمته وحسن ظننا به.

ثانيًا: وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

القدر الآخر الذي أجراه الله تعالى على يد العبد الصالح هو قتل الغلام، لقد استنكر سيدنا موسى عليه السلام أن يُقتل هذا الغلام البريء الذي قد يكون بهي الطلعة لطيفًا محبوبًا، وقد يكون وحيد والديه !!ولم يظهر منه شيئًا سيئًا، والغُلامُ يطلق على الإنسان من حين يُولَد إلى أن يشبّ فعنده نحو ١٠ سنين هل عرف الأبوان الحكمة من قتل ولدهما؟

لم يعرفاها ولن يعرفاها في حياتهما .قد يكون أصحاب السفينة تنبهوا لحكمة ربهم لما وجدوا الملك الغاصب أمامهم يأخذ السفن ظلمًا وعدوانًا، لكن أهل هذا الغلام لم يعرفوا أبدًا الحكمة؛ لأنهم لم ولن يعرفوا مستقبل ابنهم وما سوف يحدث فيه، لكن الله تعالى أخبرنا ليُعَلمنا أنه سبحانه لا يُقدر إلا الخير، لكن عباده يتفاوتون في استقبال هذا الخير، منهم من يسخط ويقنت ويكفر، ومنهم من يعرف يقينًا أن ربه أرحم الراحمين، ولا يُقدر إلا الخير لعباده فيرضى ويتأدب ويُحسن الصبر.

هذان الأبوان اللذان وصفهما ربهما أنهما مؤمنين، بالتأكيد أحسنا الصبر ليقينهما أنه قَدرُ الله تعالى أرحم الراحمين، فسعدا بعد ذلك بمكافأة الله لهما بالتعويض بالابن الطيب الصالح، كما أن ابنهما الذي مات كان سيكون مصيره النار؛ لأنه كان سيختار الكفر والطغيان فيشقى ويشقى به أبواه، فأراد الله تعالى له الخير، فأماته قبل البلوغ ليدخله الجنة، وأراد بأبويه الخير فأبدلهما خيرًا منه .لكن هل كل ابن يموت يكون بهذا السبب؟ بالطبع لا. لكن الله تعالى يضرب لنا الأمثال لكي نثق في علمه ورحمته، ونعلم علم اليقين أن كل أقداره هي خيرٌ مطلق لمن يُحسن استقبالها.

كما أن هنا ملحوظة: هل رب العالمين أعطى هذا الولد ولوالديه ميزة لم يعطها لغيرهم ممن هم في مثل هذه الحالة؟ لماذا ترك الأولاد الذين يشقى بهم أبواهم ولم يتوفهم مثل هذا الولد ويستبدل بهم أولاداً خيراً منهم؟

الإجابة، أن معرفة الله تعالى واليقين بأنه العليم الحكيم أرحم الراحمين، يعنى التسليم بأنه يعطى كل البشر فرص متساوية للمعرفة والتوبة والعمل الصالح، ثم يُقدر لكل إنسان ما يناسبه من الأقدار التي لو أحسن استقبالها لنال أعلى درجات السعادة في الدنيا والآخرة، وفى هذه الحالة كان قتل الغلام على قسوته وصعوبته على الوالدين، هو القدر المناسب لهم ليرفعهم ويعوضهم، والمناسب للولد ليدخل الجنة، وهكذا في كل حالة، يقدر سبحانه الأقدار بعدلٍ كامل وحكمةٍ بالغة، ليعين أصحابها على الوصول لأعلى الدرجات إن أحسنوا استقبالها كما أحسن هاذان الأبوان استقبال قدر الله تعالى في ابنهما.

أما الصورة الأخرى للاستقبال الفاشل لهذا الابتلاء والامتحان، هو ما نعرفه جميعاً من السخط والشكوى وامتلاء القلب بالحزن المدمر للنفس ولمن حولهم، هؤلاء فقدوا النجاح وثواب الصابرين، بينما هذا القدر كان أحسن قدر لهما ولحبيبهما، لا شك أن فقد الأحباء مؤلم جداً، لكن يقين القلب بعلم الله تعالى وحكمته ورحمته، يساعد الإنسان كثيراً على حسن الصبر والنجاح فى هذه الأقدار.

ثالثًا: وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾.

القدر الثالث الذي أخبرنا الله تعالى به، كان موقفًا غريبًا من العبد الصالح لم يفهمه سيدنا موسى عليه السلام، لقد أتيا على قرية وهما جائعان ومرهقان وطلبا من أهل القرية أن يُضيفوهما ويُطعموهما، فلم يجيبوهما وتركوهما جائعين، إن رد الفعل الطبيعي

لتصرفهم هذا أن يتركاهم ويرحلا عنهم، لكن العبد الصالح فعل عكس ذلك، لقد أقام بهذه القرية وأصلح فيها جدارًا متهدمًا فأعاد بناءه دون أن يطلب منه ذلك أحد، ودون أن يأخذ على ذلك أجرًا. ولنا أن نتصور سخرية أهل القرية وتعجبهم من فعله هذا، ونتصور استغراب سيدنا موسى عليه السلام وهو يرى العبد الصالح يعمل في إصلاح جدارٍ في قرية لئيمة رفض أهلها أن يطعموهم، لكن حكمة الله تعالى البالغة ورحمته المطلقة كانت وراء هذا الأمر العجيب .إنه من أجل أن يحفظ للأطفال الصغار كنز أبيهم الصالح الذي يقبع تحت هذا الجدار، حكمة لم نكن نعلمها ولا نتخيلها وقت بناء هذا الجدار. إن هذا القدر يطمئنا به الله تعالى على أولاد الصالحين، إن الأب هو المعيل الوحيد لهؤلاء الأطفال، وهذه قرية أهلها لئام، لن يتكفلوا بهم ولن يعينوهم، ولو علموا مكان المال لسرقوه. فلما أراد الله لهذا الأب الوفاة، تكفل هو سبحانه بأولاده، وأرسل الرجل الصالح يبني لهم بدون أجر .يقول تعالى: **(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾**) النساء.

أما الاستقبال الحسن الناجح أو الاستقبال السيئ الفاشل، فأعتقد أنه هنا سيكون خاصاً بأولاد الرجل الصالح، فهم إما يستخدموا هذا المال الذى حفظه الله تعالى لهم فى الخير، ويتعاملوا معه بالشكر والعمل الصالح، فينجحوا بذلك فى ابتلاء الأموال. أو يستخدموه فيما لا يحب الله تعالى ويرضى كما رأينا فى قصة قارون، فيكونوا بذلك قد فشلوا فى ابتلاء الأموال وأساؤوا استقبال قدر الله تعالى.

وقد اختتم الله تعالى هذه القصص بأنها كلها "رَحْمَةً مِّن رَبِّكَ" إن حقيقة هذه الأقدار على عكس ما رأيناه من قسوة ظاهرة، مثلما رأينا أن خرق السفينة كان رحمة بأصحابها، وقتل الولد كان رحمة به وبالأب والأم، وبناء الحائط بدون أجر فى القرية اللئيمة، كان رحمة بالأطفال اليتامى ليحفظ لهم كنزهم.

هذه المواقف الثلاثة بين الله تعالى لنا حكمته فيها، لنعلم ونوقن أنه هو الرحمن الرحيم وأنه العليم الحكيم، وأن أقداره للمؤمنين كلها خير حتى وإن بدت لأول وهلة أنها غير ذلك.

هذا ما يجب أن يكون عليه يقين المؤمن، وهذا ما عليه مدار الامتحانات، تلك الابتلاءات التي تبين حقيقة يقيننا بعلم الله تعالى وثقتنا به وبرحمته، وأن أقداره كلها خير، سواءً علمنا الحكمة حين القدر أو لم نعلمها. هذا هو الدرس الذي يريد الله تعالى أن نتعلمه مما سرده علينا، فليس من اللازم أن نعلم الحكمة عند كل قدر، كما اشترط ذلك العبد الصالح على سيدنا موسى عليه السلام، إذ اشترط عليه ألا يسأله عن شيء مما يراه حتى يخبره، ذلك حتى نتعلم حسن الصبر أمام أقدار الله تعالى.

هذا اليقين به سبحانه وبعلمه وحكمته ورحمته لا يؤخذ ممن يدعي بالكلام أنه موقن برحمة ربنا وحكمته، وإن أقر بلسانه ذلك مليون مرة، إنما يؤخذ من الأعمال، وصورة استقبال أقدار الله تعالى، والتعليق على الأحداث التي تقع فعلاً.

لقد أعلمنا ربنا بحكمته ورحمته في كل قدر حتى نوقن ونرضى، ونعلم أنه لو أطلعنا الله تعالى على الغيب ما اخترنا إلا ما اختاره الله تعالى لنا، لكنه سبحانه حجب عنا حكمته في بعض الأقدار حتى يمتحن يقيننا برحمته، وثقتنا به، ويمتحن دعوتنا محبته والرضا بأقداره.

إذًا قدر الله تعالى: الأقدار بما لم يكن في الحسبان

الحكمة: امتحان العلم بالله تعالى

(٦)

أقدار الله تعالى بالتفاوت في درجات الدنيا لامتحان العدل والرحمة

يقول تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾)** الأنعام

الله تعالى جعل الناس مستخلفين في الأرض لعمارتها، ورفع البعض فوق البعض، ليختبر من أعطاهم فيما أعطاهم، ويختبر من منعهم فيما منعهم، وهو سبحانه سريع العقاب للظالم المسيء، وغفور رحيم للصالح المحسن.

وفي تفسير الوسيط للشيخ سيد طنطاوي: {وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأرض أي: خلائف القرون الماضية، فأورثكم أرضهم لتخلفوهم فيها وتعمروها بعدهم . وقوله "وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ" أي: فاوت بينكم في الأرزاق، والأخلاق، والمحاسن، والمساوئ، والمناظر، والجمال، والأشكال، والألوان وغير ذلك. ثم بين سبحانه العلة من هذا التفاوت فقال: "لِيِبْلُوَكُمْ فيمآ آتَاكُمْ " أي: ليختبركم فيما أنعم به عليكم، يختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، ويختبر الفقير في فقره ويسأله عن صبره }.

وفى تفسير الكشاف للزمخشرى: { وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات" في الشرف والرزق "لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءاتاكم" من نعمة المال والجاه، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضيع، والحرّ بالعبد، والغني بالفقير، والرئيس بالمرؤوس، "إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب" لمن كفر نعمته "وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" لمن قام بشكرها. ووصف العقاب بالسرعة؛ لأنّ كل ما هو آت قريب}.

إن الله تعالى هو القادر على أن يُغني كل البشر ويرفعهم ويعزهم، لكنه سبحانه جعل الدنيا دار اختبار، وإن من الاختبار أن يجعل للبعض درجة أو درجات على الآخرين، يجعلهم في مكانة تتيح لهم بعض القوة أو السيطرة في بعض الأمور "لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءاتاكم" فالاختبار والابتلاء هنا يكمن في اعتقادهم أولاً، ثم أفعالهم ثانياً.

فالاعتقاد السليم والاستقبال الصحيح لابتلاء وامتحان علو المكانة والتمكن من الآخرين، أن يعتقدوا أن هذا الرفع إنما هو امتحان من رب العالمين واختبار، وأنه لا يعني أنهم الأفضل أو أن الله تعالى اجتباهم واصطفاهم لتميزهم، لكنه اختبار لهم من الله؛ ليختبر طريقة تعاملهم مع من رفعهم الله تعالى عليهم ومكنهم منهم. ونتيجة لهذا الاعتقاد السليم، فهم يعطون من رُفعوا عليهم درجات حقوقهم كاملة، ويقومون بواجباتهم تجاههم بأقصى استطاعتهم، بمنتهى التواضع والأدب والعدل والرحمة؛ يعلمون أن الناس عند الله سواسية لا فضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى، وأن الأقل في الدرجة قد يكونون هم الأعلى في التقوى وفي مكانتهم عند رب العالمين، هؤلاء يحسنون استقبال قدر الله تعالى برفع درجتهم على من سواهم، فينجحون في هذا الابتلاء، فلهم مغفرة الله تعالى ورحمته، يقول فيهم جل وعلا "وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ".

أما الاعتقاد الخاطئ والاستقبال السيئ لقدر العلو والتمكين من الآخرين أن يعتقدوا أن هذه المكانة وهذا الرفع نابع من تميزهم الذاتي وأنهم أهل لهذه المكانة؟ أي أنهم أفضل من الآخرين، وبالتالي فليس لأحد لديهم حقوق وليس عليهم لهم واجبات. فنراهم يتكلمون بعنصرية بغيضة، ويتعاملون بكبر، ويظلمون ويسيئون إلى من رفعهم الله تعالى عليهم، وبالتالي يسقطون في الامتحان. هؤلاء لابد أن يعرفوا أن سقوطهم في هذا الامتحان جعل الله تعالى له عقوبة سريعة في الدنيا قبل الآخرة، يقول تعالى فيمن فشل في هذا الابتلاء "إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ".

ونحن نرى أن هذا امتحان يومي لكل إنسان؛ لأنه في كل يوم وفي كل موقف، أنت فوق من أمامك بدرجات أو أقل منه بدرجات .الزوج مع زوجته، والزوجة مع الزوج، الأم والأب مع الأولاد في صغرهم، والأولاد مع الأم والأب في كبرهم، المعلمون مع التلاميذ، الأصحاء مع المرضى، الأغنياء مع الفقراء، الرؤساء مع المرؤوسين، ذوو النفوذ والسيطرة مع من لا يملكونها، الحكام مع المحكومين، الأقوياء بمختلف أسباب القوة مع الضعفاء بمختلف أسباب الضعف.

القوي ممتحن بقوته كيف يفعل مع من هو أضعف منه؟

هل سيعدل معه ويعطيه حقوقه ويُحسن إليه؟ أم سيظلمه ويمنعه حقوقه ويسيء إليه؟

إن من أقدار الله تعالى أن يضع الناس في درجات متفاوتة في الدنيا، هذا التفاوت في الدرجات ليست مصادفة ولا عبثًا ولا تفضيلاً لأحد على آخر، ولكنه للامتحان والاختبار .ليمتحن كل إنسان في السلطة الممنوحة له، والتي تجعل له قدر من التحكم فيمن تحته، هل سيتقي الله تعالى ويتذكر أن الله يراه ويسمعه وسيحاسبه؟ فيستخدم سلطته في إقامة الحق والعدل ويحسن مراعاة من يرعاهم؟ أم سيستخدم السلطة التي منحها الله تعالى في الظلم والبغي والعدوان؟

لذلك لا يجب أن نعتقد أن من قدر الله تعالى له الدرجة الأعلى هو حبيب الله وحبيب الأقدار، بل هو ممتحن وامتحانه يزداد صعوبة مع ارتفاع هذه الدرجة، وزيادة تمكنه ممن هم أقل منه في الدرجة.

إذًا قدر الله تعالى: التفاوت في الدرجات والسلطات

الحكمة: امتحان أصحاب القدرة فيما آتاهم

(٧)

أقدار الله تعالى بالنعم والشدائد للفاسقين لامتحان التوبة والتضرع.

لله تعالى أقدار ينزلها على الفاسقين العصاة، وقد ذكر بالقرآن الكريم أمثلة لهؤلاء الذين امتحنهم بهذه الأقدار لعلهم يهتدون ويتوبون، فإذا هم يزدادون بعدًا وغيًا، فأنزل بلاءات وأقدار فيها هلاكهم.

في هذه الحالة يأتي قدران: القدر الأول هو الامتحان، ويكون فيه إمهال ووقت يمنحه الله تعالى لعباده؛ لكي يراجعوا أنفسهم ويعودوا عن معاصيهم، وقد يكون بالرخاء أو بالشدة، فإذا كان هناك إصرار وتمادٍ في المعصية أتى القدر التالي بالعقوبة، وهذا لا يكون فيه إمهال، بل هو الإهلاك والقصم، وسوف نستعرض مثالين لذلك.

المثال الأول:

يقول تعالى: **(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾)** الأعراف

هذه قصة أصحاب القرية التي كانت تطل على البحر..

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) كان سكانها من اليهود الذين أمرهم الله بالتفرغ للعبادة يوم السبت، واليهود في زمانهم كأنهم مسلمون الآن. حرم الله تعالى عليهم الانشغال بأمور الدنيا تمامًا في هذا اليوم، فإذا هم يعتدون على قدسية هذا اليوم، فاصطادوا الأسماك فيه، امتحن طاعتهم لأمره بهذا الامتحان: الأسماك تأتيهم بكثرة ووفرة يوم السبت، يوم تحريم العمل وتحريم الصيد، ولا تأتي باقي أيام الأسبوع حيث يحل لهم صيدها.

إنها قرية تقع على الساحل، أي معظم رزقها وطعامها من الأسماك، فإذا حُرمت من الأسماك فقد جاعت، لماذا يا ربي تعرضهم لهذا الامتحان القاسي؟

يقول تعالى: (كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) إنه سبب من أسباب أقدر الله تعالى بالشدائد؛ بسبب فسقهم أنزل الله تعالى عليهم هذا القدر وهذا الابتلاء وهذه الشدة، إنهم ارتكبوا الكثير من المعاصي قبل نزول هذا القدر، فالفاسقون هم العصاة المجاهرون بالمعصية، الذين علموا أمر الله ونهيه ولكنهم لم ينتهوا عما نهى عنه، ولم يأتمروا بما أمر به، وقد ذكر رب العالمين الكثير من معاصي اليهود بالقرآن الكريم، وعند دراستها سنجد للأسف الشديد تشابهًا كبيراً بين أفعالنا الآن وأفعالهم ومعاصيهم التي استحقوا عليها العقوبات المتوالية.

فلو ضربنا مثلاً بواقعنا، نرى طائفة كبيرة من المسلمين الآن يرتكبون المعاصي وهم يعلمون كأخذ الرشاوي، وأكل أموال الناس بالباطل، وغش البضائع، واحتكار السلع، والجشع، والكذب الدائم والمستمر في كل شيء وأي شيء، وظلم الضعفاء، وأكل المواريث، وأكل أموال اليتامى وإساءة معاملتهم، والعلاقات المحرمة، وعقوق الوالدين، وعدم تربية الأبناء على الدين، والمتاجرة بالدين.. وما إلى ذلك، هذه أخلاق وتصرفات الفاسقين الخارجين عن أمر الله تعالى ونهيه.

نعود لليهود أصحاب القرية، لفسقهم هذا ابتلاهم، وامتحنهم بقدر كثرة الأسماك وسهولة الحصول عليها وقت تحريمها، وصعوبة الحصول عليها عندما تكون حلالاً، إنه ابتلاء صعوبة الحصول على الكسب الحلال، وسهولة الحصول على الكسب الحرام، إنه امتحان عسير على من سبق له الخروج عن أمر الله تعالى، وتكرر منه هذا كثيرًا.

هؤلاء العصاة من اليهود بالرغم من فسقهم ومعصيتهم واستحقاقهم للعقوبة، أرسل الله تعالى لهم مع الامتحان، من ينصحهم وينبههم ويعظهم؛ لعلهم يرجعون، يقول تعالى: وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

إن بداخل هذا المجتمع الذي أغلبه من الفاسقين طائفة من المؤمنين الطائعين على علم بأن هذا القدر ابتلاء وامتحان من الله تعالى جزاء المعصية، ولن يرفع إلا بتوبة، لكن هذه الطائفة انقسمت إلى قسمين :قسم يرى أن العصاة أصروا وفجروا فلا فائدة من نصحهم، وأن الله تعالى معذبهم لا محالة. وفئة أخرى أكثر علمًا وحرصًا ورحمةً بالناس وفهمًا لأقدار الله تعالى، أصرت على متابعة النصح والإرشاد، ودعتهم للتوبة وترك المعاصي وطاعة الله تعالى في أمره وفي نهيه .فالله تعالى يريد لعباده الحياة الطيبة ولا يريد لهم العذاب.

يقول تعالى﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿ ١٤٧)﴾ النساء. لقد تناسوا واستمروا في معصيتهم؟ كان استقبالهم لنصح الناصحين أنهم تناسوا ما ذكروهم به، وسمعوا وكأنهم لم يسمعوا واستمروا في غيهم، تناسوا أن الكذب حرام، وأن الغش حرام، وأن السرقة حرام، وأن أكل أموال الميراث حرام، وأن الإعراض عن العلم بالله حرام، وأن ظلم الضعفاء حرام، وأن الاحتكار حرام، وأن عقوق الوالدين حرام، وأن العري حرام، وأن ترك الصلاة حرام، وأن عدم تربية الأولاد على القيم الصحيحة حرام، وأن المتاجرة بالدين أكبر حرام .تناسوا الدعوة لترك كل المحرمات مع علمهم بتحريمها.

فأنجى الله تعالى الطائفة المؤمنة التي كانت تنهاهم عن السوء، وأنزل على الفاسقين عذابًا شديدًا موجعًا؛ لعل شعورهم بالألم يردعهم ويعودوا عن معصيتهم، يقول تعالى: (أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)، وقد بدأ سبحانه بذكر نجاة الصالحين.. (أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) وهذا يدل على أن الله تعالى ينجي كل من تعلم وعمل بعلمه وسعى في نصح غيره، ولو كانوا في نفس المجتمع ونفس الظروف فالقول الخاطئ أن "السيئة تعم، والحسنة تخص" غير صحيح بالمرة، ولا يجوز في حق الله تعالى؛ فهو سبحانه قادر على أن يخص من يستحقون السيئة بالعقاب، وينجي من يستحقون الحسنة، ولو كانوا في بيت واحد.

فلما أعرضوا عن نصح الناصحين، أنزل الله تعالى أول درجة من درجات العذاب (وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) وهو العذاب الشديد الذي يتركهم بؤساء.

وهو يعني الفقر واشتداد الحاجة، يعني العذاب الذي يحمل الحزن والهم والاكتئاب؛ لعل هذا العذاب أن يرجعهم عن غيهم ومعصيتهم.

ولو تصورنا هذا الأمر على حياتنا الحالية؛ إذا أعرض المسلمون عن هذا العلم الذي ينصحهم ويعظهم ويهديهم، وتجاهلوا العمل به وتناسوه، فإن الله تعالى يرسل عليهم عذابًا يجعلهم تعساء يعانون من الفقر واشتداد الحاجة، ويجعلهم في حزن وهم واكتئاب مثل :الارتفاع الفاحش في الأسعار بحيث تتضاعف أسعار كل السلع الضرورية فيعيشون في ضنك، وانتشار الأمراض البدنية والنفسية، وطغيان الفساد، وسوء الخُلق، وصعوبة المعيشة؛ لعلهم يتوبون ويعودون ويكفون عن المعاصي.

إن الله تعالى يُدخل العصاة في امتحانٍ أشد مما سبق؛ عسى أن ينتبهوا ويرتدعوا ويتوبوا ويرجعوا عن فسقهم ومعاصيهم، ويتقوا الله تعالى فيمتنعون عن الكذب، والسرقة، والاحتكار، والجشع، والغش، والظلم، فإن فعلوا ذلك فقد فازوا في الدنيا والآخرة، ونجحوا في الامتحان، وإن تمادوا في معاصيهم لسابق تفلتهم وفسقهم، بحجة صعوبة العيش وإن الناس كلها بتعمل كده، ويا عم قول يا باسط... فقد رسبوا في الامتحان.

إن الامتحان إما يردهم إلى الحق فيكون رحمةً بهم، وإما أن يصروا على المعصية فيستحقون بذلك العذاب الأليم، فالمعاصي تجلب الامتحانات الشديدة. ذلك أن الطالب الذي ينجح من أول امتحان، لا يحتاج الأستاذ لإدخاله امتحان آخر، بل ينتقل للصف الأعلى مباشرة، أما من يرسب فإنه يدخل الملحق والإعادة، فإن رسب يعيد السنة ويدخل الامتحان مرة ثالثة وهكذا.. إلى أن يستنفذ مرات الرسوب، فيطرد من المدرسة، وهذا يعني أنهم لو كانوا مستقيمين على أمر الله تعالى، فأطاعوا أمره وتجنبوا معصيته، ما تعرضوا لهذا الامتحان العسير.

فماذا كان استقبال اليهود أصحاب القصة للعذاب البئيس؟ يقول تعالى (فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) لم يرتدعوا، بل ازدادوا بعدًا وغيًا في معصيتهم. (عتوا) اِسْتَكْبَرواَ وَجَاوَزَا الْحَدَّ .لقد تجاوزوا كل الحدود التي حدها الله تعالى عمداً وإصراراً؛ لذلك أنزل الله تعالى بهم الذل والخنوع، فمعنى قَرَّدَ فلانٌ: ذَلَّ وخضع، قَرَّدَ الرَّجُلُ: سَكَتَ عَيّاً وَذَلَّ. والخاسئُ: الصَّاغِرُ الذَّليل. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع ، عن أبي العالية في قوله : (كونوا قردة خاسئين) قال : يعني أذلة صاغرين.

أنزل الله تعالى بهم الذل، فكانوا أذلاء خاضعين صاغرين، لا يمكنهم صد عدوهم ولا الارتقاء بمعيشتهم، فكانوا أحرص الناس على حياة، يقول تعالى: (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ..) البقرة.

حريصين على أي نوع من أنواع الحياة، حياة حقيرة، حياة ذليلة، حياة خاضعة لأعدائهم..

ولابد أن ننتبه أن هذا ليس لليهود فحسب، بل هو لكل من يتصف بهذه الصفات ويتمادى في المعاصي ويتناسى ما أمر به الله تعالى من العدل والإحسان والتقوى والعمل الصالح، حينما تعم هذه الصفات المجتمع، ويصم آذانه عن دعوة المصلحين، فإنه سيلقى هذا المصير من الذلة والخنوع، ويصبح في حضيض الأمم ولا تقوم له قائمة إلا أن يتوب لله تعالى ويتخلق بما أمر الله تعالى به.

أما من يبتلى بالعيش في مثل هذا المجتمع، فإن نجاحه في هذا الابتلاء بأن يكون مثل المجموعة التي آثرت الاستمرار في النصح رغم ما يبدو عليه الأمر بأنه لا أمل في رجوعهم للحق، للقيام برسالتهم في الإصلاح التي هي رسالة الأنبياء كلهم، وحتى يكونوا من الناجين في الدنيا والآخرة.

هكذا هي أقدار الله تعالى. امتحانات يكتب إجاباتها الأفراد، فنزول القدر بالعذاب البئيس كان الامتحان قبل الأخير لعلهم يرتدعوا، فلما كانت إجاباتهم التمادي في المعصية، تم نزول القدر الأخير بالهلاك، فغير حالهم من حال تكريم إلى حال إهانة وتحقير.

وهكذا نفهم بعض أقدار الله تعالى مع عباده، وهكذا يجب أن نحذر من التمادي في المعصية والمجاهرة بها وصم الآذان عن العلم والنصيحة.

إن العذاب الأليم قد يكون: الأمراض، أو غلاء الأسعار، أو تسليط الظلمة والفاسدين، أو تعاسة الحياة الأسرية، وفساد الأبناء، من أمثلة هذا يكون العذاب، وليس من اللازم أن يكون دخانًا من السماء أو فيضانًا في الأرض، فيجب أن ننتبه لأقدار الله تعالى التي تأتي بالشدائد فنسارع بالتوبة والإصلاح.

- هناك ملحوظة نريد مناقشتها: ماذا كان حال الطائفتين الصالحتين (الطائفة التي كانت تنهى عن السوء، والطائفة التي قالت لهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم) فيما يخص المعاناة من الجوع نتيجة قلة الرزق من الأسماك؟ هل كانوا يعانون مثل معاناة العصاة؟ أم كان لهم وضع مختلف؟ لقد قدر الله تعالى على العصاة هذا الامتحان وهذه الشدة، فهل لهم نفس القدر؟

إنهم من نفس القرية ويجري عليهم ما يجري على أهلها من نقص الأرزاق، لكن الاستقبال مختلف؛ فهم يعلمون أن ما يحدث هو نتيجة المعصية، لذلك فهم يسارعون بالتوبة والإصلاح بقدر استطاعتهم، ويوقنون أن الله تعالى هو الرزاق الكريم الرحيم. فيتحرون أكل الحلال الطيب، ولا يستدرجون لأكل ما فيه شبه أو الحرام، ولو جاعوا، ويسألونه بالدعاء أن يرزقهم ويبارك لهم، والله تعالى يستجيب لعباده المخلصين، فيرزقهم الرزق الطيب حتى في أشد أوقات المجاعات، وغلاء الأسعار، ويبارك لهم فيما يرزقهم به، وهم راضون شاكرون لنعمة الله تعالى.

هذا هو الاستقبال الذي يرفع الله به الدرجات لعباده الصابرين المؤمنين، وبهذا فقد يأتي القدر والبلاء الواحد، يرفع الله تعالى به أقوامًا ويضع آخرين.

المثال الثاني:

نأتي للنموذج الثاني لأقدار الله تعالى التي تأتي لإهلاك العصاة بعد وعظهم وتحذيرهم بعدة صور:

يقول تعالى: **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾)** الأنعام

يعرض الله تعالى لنا في هذا النموذج كيف يمنح الناس الفرصة بعد الفرصة، ويسوق إليهم التنبيه بعد التنبيه. فإذا نسوا ما ذكروا به، ولم توجههم الشدة إلى التوجه إلى الله والتضرع له، ولم توجههم النعمة إلى شكر الله وحسن عبادته، كان هذا دلالة على فساد فطرتهم فسادًا لا يرجى معه صلاح، وكانت حياتهم قد فسدت الفساد الذي لا تصلح معه للبقاء، فحقت عليهم كلمة الله، وأنزل بهم العقاب الذي يستحقونه.

ولنبدأ بالآية الأولى **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ)** يبين الله تعالى هنا سننه وقوانينه التي تسرى على كل البشر، إنه سبحانه يرسل رسله إلى الأمم التي شردت عن أمر الله تعالى وتمادت في غيها، يرسل إليها رسائله في صورة شدائد وأزمات ومجاعات، حتى ينتبهوا من غفلتهم ويعودوا لربهم، فهناك أشخاص وأمم تصلحهم دعوة الداعين إلى الله، ويصلحهم تذكيرهم بنعم الله تعالى وبآياته في خلقه، وهناك أشخاص وأمم لا ينتبهوا إلا عندما يتوجعون، وهناك أشخاص وأمم لا ينتبهوا ولو توجعوا وعانوا الآلام والأمراض والمجاعات!!

وقد جعل الله تعالى في فطرة الإنسان أنه عندما يتألم، فإنه يلجأ إلى من يسمعه ويقدر على إجابته ومن هو أقوى منه ومن بيده الأمر كله، وهو رب العالمين؛ لذلك يرسل الله تعالى بعض الشدائد لبعض المؤمنين فيسارعوا بالتوبة والتضرع لله تعالى (كما فعل أصحاب الجنة) فيكون ذلك إنقاذًا لهم من معصية تهلكهم.

لذلك في هذه الآية الكريمة أرسل الله تعالى إلى أمم البأساء والضراء (فَقْر، شدَّة، مشقّة، مرض) لعل فطرتهم تقودهم للعودة لربهم وترك المعاصي فماذا فعلوا؟

(فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(لولا) حرف شرط يدلّ على امتناع شيء لوجود غيره. يعني أنهم امتنعوا عن أن يتضرعوا لله تعالى لوجود القسوة في قلوبهم، امتنعوا أن يتوبوا ويتركوا المعاصي ويدعوا الله تعالى أن يغفر لهم، وذلك لقسوة قلوبهم، تلك القسوة التي تكونت على مدار سنين من المعاصي وأكل الحرام وارتكاب المحرمات.

يقول تعالى في مثل هؤلاء **(كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)**﴿ ١٤ ﴾ المطففين

لقد تكونت طبقة من الصدأ منعت تواصلهم التواصل السليم مع الشدائد.. هي الطبقة التي تكونت من كثرة المظالم مع عدم التوبة "وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" مع قسوة القلب أصبحوا بيئة خصبة لوسوسة الشيطان فاتبعوه واستجابوا له عندما زيّن لهم معاصيهم، ألقى في نفوسهم أن معاصيهم القبيحة هي أعمال جميلة، فرددوا ما أملاه عليهم من أن معصية الكذب والغش والتدليس والخداع، إنما هي فهلوة ونصاحة وذكاء، وأن معصية العري فن وثقافة وتمدن، ومعصية الزنا هي تعبير عن الحب والحرية، ومعصية التجارة بالدين هي نصرة للدعوة، وأن ارتكاب جرائم القتل والإرهاب جهاد في سبيل إقامة الخلافة الإسلامية!!

يقول تعالى فيهم فى سورة البقرة: **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾)**

إن كثرة المعاصى صغيرها وكبيرها والاستمرار فيها، يكون طبقة سميكة على القلب تعطل أجهزة الاستقبال عن التقاط الإشارات الربانية، أو تخطئ في تفسيرها كالذي يرى النور الأحمر الذي يضيء على شاشة السيارة أمامه؛ لينبهه إلى نفاذ الوقود وضرورة التوقف وعلاج الأمر قبل حدوث كارثة، فيعتقد جهلاً أنها إضاءة للزينة، أو يعلم معناه لكنه يعتقد أنه قادر على السير بالسيارة لأنه ذكي وقادر على تفادي أي حوادث، فيظل يسير بسيارته حتى يدفع ثمن عدم قراءته السليمة للتنبيهات التي كانت أمامه، فإذا ظل يسير بعد إضاءة النور الأحمر، جاءه القدر الأخير بالحادثة المروعة.

ثم فى الآية الثانية يقول تعالى: **"فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ"** لم يستفيدوا من الرسائل الربانية، ولم يتوقفوا عن معاصيهم، فأنزل الله تعالى قدره بالغنى الفاحش؛ حتى نعلم ونوقن ونتأكد أن عطاءات الدنيا ليست هي المكافأة ولامنعها هو العقاب.

صورالله تعالى هذا الفتح بالأرزاق والأموال والأبناء والجمال والزينة وكل أنواع المتع، كالسيل الذي تدفق عليهم، فالتعبير القرآني " فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ " لكي نتصور التدفق الذي يحدث من خلال باب تم فتحه .فماذا كان فعلُ من قست قلوبهم من قبل عن التضرع لله تعالى عند الشدائد؟ (فَرِحُوا بِمَا أوتُوا) فرحوا بالأموال والعقارات والأراضي والمساكن والأولاد، ذلك الفرح الذي أخذ بلبهم وعقولهم وقلوبهم وأنساهم المنعم، وبالطبع استخدموا هذه العطاءات في معصية الله تعالى؛ لأن الله تعالى بسننه وقوانينه وأوامره ونواهيه، ليس في ذهنهم على الإطلاق، فازداد بعدهم عن الله تعالى وازدادت معاصيهم وإجرامهم.

وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام حين قال: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام قَالَ: **"إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ"**، ابن حنبل (حسن لغيره).

إذًا فلو رأينا من أنفسنا أو من غيرنا الإقامة على المعاصي، بينما تُفتح أبواب عطاءات الدنيا، فلنعلم أنها علامة سيئة ومخيفة لأنها تعني الاستدراج لمزيد من المعاصي بالاستغراق في الدنيا، ومزيد من البعد عن الله، وفي هذا البعد يكمن العذاب الأليم. فكان القدر النهائي... **(أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ)**.

الإبلاس: الحَيرَة واليأس، ومنه سُمّيَ إبليس؛ لأنه أبلَسَ من رحمة الله: أي يَئِسَ منها وتحيَّر. وقال الأزهري: مُبلِسون: أي نادمون ساكتون متحسّرون على ما فَرَطَ منهم. وكل من انقطعت حُجَّتِه وسكت :فقد أبلَسَ. فكان أن أخذهم على غرة وهم في سهوة وسكرة، فإذا هم حائرون منقطعوا الرجاء في النجاة، عاجزون عن التفكير فيما يحدث لهم، مذهولون من الكارثة التي أهلكتهم، وهم من اعتقدوا أنهم محاطون بكل أسباب الحماية والبقاء.

وهذه الآية كما تنطبق على المجتمعات، فإنها تنطبق أيضًا على الأفراد، فمن كان على معصية فامتحنه الله تعالى بالشدائد ليرجع عن معاصيه ويتوب، فزادته الشدة قسوة في قلبه وبعدًا عن ربه واستغراقًا في معصيته، فابتلاه الله تعالى بالفتح الهائل بكل أنواع النعم، حتى إذا فرح بما أُوتِيَ ذلك الفرح المذموم الذي يؤدي إلى نسيان الله تعالى، ونسيان يوم الحساب، والاستغراق في الدنيا وجمعها من الحرام، واعتقد أن الأمر قد دان له، أخذه الله تعالى وهو غافل ولاهٍ، وانقطع أمله في النجاة، وقد أرانا الله تعالى مرحلة الفتح في قصة الفاشل قارون، وأرانا أخذه بغته وهو فى أوج غناه وعزه وفخره.

وإن أقدار الله تعالى بالعقوبة والقصم لهذا الإنسان أوهذه الجماعة، أو هذه البلد أو هذه الأمة قد يكون ماديًا بمعنى إنهاء الوجود كليًا أي الموت، أو إهلاكًا معنويًا بمعنى إنهاء الوجود بالمكانة الكبيرة التي كانت من قبل، والوجود بمكانة ضعيفة أو سيئة.

وبذلك نرى أن بعض أقدار الله تعالى بالغنى الفاحش على معصيةٍ وإجرامٍ، إنما هي امتحانات للعصاة إن رسبوا فيها تؤدي لهلاكهم وقصمهم.

إذًا أقدار الله تعالى: الشدة ثم الفتح للعصاة

الحكمة: استنفاذ الصور المختلفة للابتلاءات لاستحقاق الهلاك.

(٨)

أقدار الله تعالى بالإيذاء البدني والنفسي لامتحان الصبر والتقوى

يقول تعالى: (**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)** ﴿١٨٦﴾ آل عمران.

من أقدار الله تعالى امتحان المسلمين في أموالهم وأنفسهم، وامتحانهم بسماع كلام مؤذٍ ومؤلم، يحزنهم ويضرهم ممن يعادونهم من اليهود والنصارى، ومن المشركين بالله تعالى، فما هي صورة هذه الأقدار؟ وكيف يكون حسن استقبالها؟

إن قدر الله تعالى هنا في الأموال والأنفس يكون بالشدائد، يعني الأمراض والموت والتقتيل، وضياع الأموال أو نقصها، ويعني الفقر وتدني مستوى المعيشة وسوء الخدمات وما إلى ذلك .وقد جمع الله تعالى بين هذه الشدائد وبين سماع الكلام المؤذي من الأعداء، ليدلنا على أن هذه الشدائد هي من صنع بعض اليهود والنصارى، الذين يحاربون المسلمين ويحقدون عليهم، وكذلك من صنع المشركين الذين يعيشون داخل المجتمعات الإسلامية أو خارجها، الذين يتخذون المجرمين أولياء، فنرى احتلال أراضي المسلمين وتقتيلهم، ونشر الأمراض بينهم، وتلويث بيئتهم، وسرقة أموالهم وثرواتهم، ونشر الإرهاب في العالم واتهام المسلمين به.

ثم بعد تسببهم في هذه الشدائد، ستسمعون منهم كلامًا مؤذيًا، بأن هذا حدث لتخلف المسلمين، وأن سبب تخلفهم دينهم الذي يدعوهم للجهل والارهاب، وأنهم لن يتقدموا إلا إذا تركوا دينهم، وأن رسولهم إرهابي، وأن تاريخهم كله تقتيل وإجرام، وأنهم في ذيل دول العالم، وأنهم... وأنهم.. نعرف جميعًا ما يقوله أعداء الخارج من اليهود والنصارى، وما يقوله أعداء الداخل من المشركين الذين يوالونهم ويرددون كلامهم ويزيدون عليه لتكون لهم الحظوة عند أسيادهم من أعداء المسلمين.

لماذا هذا القدر المؤلم؟ إنه لامتحان الصبر والتقوى في مواجهة هذه الشدائد، يقول تعالى: **(وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)**، إن الإجابة الصحيحة على هذا القدر وهذا الامتحان هي: الصبر والتقوى، فلنبحث كيف يكون الصبر والتقوى في هذه الحالة.

الصبر هنا ليس هو القبول والسكون والرضا! بل هو الصبر على دفع الأذى الذي ينال المسلمين من أعدائهم، دفع الأذى في الأموال والأنفس، بالعمل الجاد والدؤوب على توفير فرص عمل حقيقية ودفع الفقر عنهم، والعمل على توفير الوقاية والعلاج الذي يصلح صحتهم، ودفع الأذى الذي يسمعونه من تصريحاتهم ومقالاتهم وكتبهم وسخريتهم، بنشر الحقائق ومواجهة أكاذيبهم، إنه الصبر على الاستمرار في إصلاح أحوال المسلمين لمواجهة هذا الأذى.

هذا الأمر في حاجة إلى الكثير من الصبر؛ فالصبر على الإصلاح ليس بالأمر السهل؛ أن تصبر على الإصلاح في جو من الألم والإحباط والفساد والتخلف والمؤامرات، أمر شديد الصعوبة على النفس. تصبر على التعلم والتعليم، تصبر على أداء عملك بشرف وإتقان، تصبر على الكسب الحلال.

إن المسلم الذي يشارك في الإصلاح، ويقدم في سبيل ذلك من نفسه وماله وجهده، قد لا تكون النتيجة خلال عمره، بل قد تظهر بعده بسنين طويلة، لذلك فإن الصبر عليه من عزم الأمور، أي من الأمور التي يجب أن يصاحب الصبر فيها ثبات وقوة وجدية وقصد، فهو ليس صبر كأي صبر، بل هو صبرٌ له مواصفات أكثر وأعلى.

أما عدم الصبر فيتمثل فيمن يمكث في بلده ناقمًا ساخطًا على كل شيء فيها، ومتهمًا مجتمعه بالتخلف والجهل، ورافضًا أي دعوة للمشاركة في الإصلاح، لعدم قدرته على الصبر والعمل الدؤوب المستمر. كما نرى عدم الصبر في دعوات الهجرة وترك بلاد المسلمين لما فيها من شدائد وفقر ومرض، وما قد يترتب على هذه الهجرة من ترك الإصلاح والسفر حيث المعيشة السهلة والحياة الرغدة. فالهجرة في حد ذاتها ليست بمذمومة، لكن المذموم ترك الإصلاح لقلة الصبر وانحطاط الهمة.

ولا بد أن يصاحب الصبر، التقوى وهي الضمير الديني الحي اليقظ الذي يُعين صاحبه على تجنب الفواحش والآثام والمعاصي، ويعينه على فعل الصالحات والخيرات والمستحبات، في كل وقت وفي كل زمان وعلى أي حال. وهي هنا تعني السير في هذا الإصلاح بما يحبه الله تعالى ويرضاه، بلا كذب، ولا غش، ولا خداع، ولا تدليس، بل إصلاح بصدق واستقامة وإخلاص العمل لله تعالى، وهذا أيضًا ليس بالأمر السهل؛ حيث أنه في أوقات الشدائد والأزمات، قد يجد الإنسان نفسه وكأن علاج بعض الأمور لن يكون إلا بالكذب والخداع والتدليس ليس مع الأعداء، بل مع مجتمعه ومن وثقوا به فإن فعل ذلك فقد التقوى. هكذا نرى لماذا جعل الله تعالى تحقيق الصبر والتقوى معًا (مِنْ عَزْمِ الأُمُور) لأن تحقيقهما معًا في مثل هذه الظروف في حاجة لشخصيات تملك الإخلاص لله تعالى، والجد والاجتهاد، والإصرار، والعمل الدؤوب، والعزيمة القوية، والرؤية الواضحة.

هذا هو الاستقبال الذي يحبه الله تعالى ويرضاه من عباده المؤمنين عند هذا القدر، إنه ليس باستحلال دم من أساء ممن سمعنا منهم الأذى أو سبهم، وتنظيم المسيرات للحرق والتخريب بادعاء الغضب من كلامهم، إن من يفعل ذلك إنما يفعله لأنه أسهل بكثير من الصبر والتقوى كما ذكرناها، وكما يريدها رب العالمين.

إذًا قدر الله تعالى: الشدة في الأموال والأنفس، وسماع الأذى من الأعداء
الحكمة: امتحان أصحاب العزم في الصبر والتقوى.

(٩)

أقدار الله تعالى بالتعامل مع الناس

لامتحان الصبر.

ادخرت أشد أنواع الامتحانات لنهاية أنواع الأقدار، إنه أقدار الله تعالى بضرورة التعامل مع الناس لامتحان الصبر لوجه الله تعالى، هناك أصناف عديدة ومواقف يومية لا تعد ولا تحصى نواجه فيها هذا الابتلاء، إنه امتحان لا ينتهي .الامتحانات كلها لها وقت وتنتهي إلا هذا الامتحان، قائم طالما الإنسان حي يرزق، وطالما يتعامل مع البشر، والله تعالى يرسل لكل إنسان الامتحانات من خلال المحيطين به.

يقول رب العالمين: **(.. وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾)** الفرقان.

الفِتْنَةُ: الاختبارُ بالنارِ، فتَنَ مُعارِضَه: عذّبه ليحوّله عن رأيه أو دينه، الفِتْنَةُ: الابتلاءُ.

فالفتنة هي الامتحان الشديد في الدين؛ فهي التي قد تحول الإنسان عن صحيح دينه إذا أساء استقبال هذا الامتحان فأجاب إجابة خاطئة، لذلك يقول رب العالمين: (.. وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ..) وفى آية أخرى (.. وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ..) لأن خسارة الإنسان بخروجه من دينه، أكبر وأشد من خسارته حياته.

وقد جعل الله تعالى معاملات الناس بعضهم مع بعض فتنة، وهذه الفتنة في حاجة للكثير من الصبر على التعامل السليم مع هذا الامتحان، حتى يستطيع المسلم أن يستقبلها الاستقبال الصحيح الذي يحبه الله تعالى ويرضاه، وينجح في اجتيازها فيكون هذا الابتلاء والاختبار زيادة في درجاته عند الله تعالى.

وسوف نبحث بعض العلاقات الإنسانية الضرورية في حياتنا، ونرى كيف يكون الاستقبال الحسن لها؟ وكيف النجاح في هذا الامتحان وهذه الفتنة؟

١) فتنة الوالدين

من أقدار الله تعالى التي ليس للإنسان يد فيها هي والداه، وقد لا يكون الوالدان محل رضا من أولادهم؛ إما للاختلاف الطبيعي بين الأجيال، والذي يولد اختلافات في رؤية بعض الأمور، وطرق التعامل معها، أو لأن الأبوين بشرٌ مثل أي بشر لديهم أخطاؤهم، وشخصياتهم التي تكونت عبر أحداث ومواقف مختلفة، منها الحسن ومنها السيء، وبالطبع هذه التكوينات الشخصية أثرت في تعاملاتهم مع كل الناس، وخاصة مع أقرب الناس منهم وهم أولادهم..

فالوالدين قدر الله تعالى، فكيف يكون الاستقبال السليم لهذا القدر؟ بين الله تعالى المطلوب من كل مسلم لكي ينجح، يقول تعالى: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ الاسراء.

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) أحسن إليه: أعطاه الحسنة، أحسن: أتى بالحسن، أحسن التصرف، أحسن القول، أحسن الشيء: جعله حسنًا.

فالإحسان يعني أنه لا يكفي أن تعمل خيرًا، بل يجب أن تُحسن صنعه، فتؤديه بأتقن أسلوب، وأجمله وأرقاه.

أَمَر ربك وألزم وأوجب أن يُفرد سبحانه وتعالى وحده بالعبادة، وأمر بالإحسان إلى الأب والأم، والاحسان يعني فعل الشيء الطيب بأحسن طريقة، يصاحبه أحسن قول، وبخاصة فى حالة الشيخوخة، فلا تضجر ولا تستثقل شيئًا تراه من أحدهما أو

منهما بسبب كبر السن، ولا تسمعهما قولاً سيئًا، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء، ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، ولكن ارفق بهما، وقل لهما دائمًا قولاً لينًا لطيفًا.

وكُنْ لأمك وأبيك ذليلاً متواضعًا رحمة بهما، واطلب من ربك أن يرحمهما برحمته الواسعة أحياءً وأمواتًا، كما صبرا على تربيتك طفلاً ضعيف الحول والقوة.

هذا هو الاستقبال السليم لامتحان الأب والأم، إنه من الطبيعي أن تنشأ علاقة محبة عميقة بين الأولاد والوالدين، فيكون الإحسان إليهما هو التصرف الطبيعي من الأولاد تجاه والديهما، لكن إن لم يكن الأمر كذلك. فعلى الأولاد أن يحسنوا التصرف وخدمة والديهم حتى ولو بدون هذه المشاعر، لأن هذا هو الاستقبال السليم الذي يُدخل به الله تعالى الأولاد الجنة. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه عليه الصلاة والسلام: "رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا، ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ". رواه مسلم.

رَغِمَ أَنْفُهُ: ذَلَّ عَنْ كُرْهٍ. أي أصبح في وضع سيء جدًا من الذل وأصابه الخزي في الدنيا والآخرة، من لم يُحسن إلى أبويه عند الكبر، فيدخل بذلك الجنة، وهذا يدل على أن الإحسان لهما هو الذي يفتح باب الجنة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام أَنَّهُ قَالَ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنَّانٌ، وَلَا عَاقٌّ وَالِدَيْهِ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ" مسند الإمام أحمد ـ صحيح لغيره.

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ سِيَاهٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمْرِهِ، وَأَنْ يُزَادَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَبَرَّ وَالِدَيْهِ، وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ" مسند الإمام أحمد ـ صحيح لغيره.

عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام قَالَ: "مَنْ بَرَّ وَالِدَيْهِ طُوبَى لَهُ، زَادَ اللَّهُ فِي عُمْرِهِ". المستدرك على الصحيحين.

ثم هناك وجه آخر لفتنة الوالدين، إنها عندما يأمران ابنهما بمعصية الله تعالى، يقول تعالى: **(وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾)** لقمان

في هذه الآية الكريمة أمرنا رب العزة بتوازن حكيم في التعامل مع الأبوين إذا كانوا من العصاة، لا مجال على الإطلاق لسوء الخُلق معهما، غير مباح وغير مقبول على الإطلاق، لكن على الابن أن يكون على علم بماهية المعصية والشرك بالله تعالى .فإن أمراه وضغطا عليه وأصرا وحاولا بكل الطرق أن يقوداه للمعصية أو العمل لغير الله تعالى (الشرك) فعليه ألا يطيعهما، فلا عذر لمن يطيعهما في المعصية، فالله تعالى الذي خلقه ويعلم قدراته، يعلم أنه يستطيع ألا يطيعهما في المعصية مهما كانت الضغوط عليه، ومع عدم طاعتهما في المعصية، عليه أن يصاحبهما بالمعروف، وهذا يعني أن المصاحبة تقتضي معاملتهما بالمعروف وتفقُّد شأنهما، بحيث يعرف الابن حاجة أبويْه، ويعطيهما قبل أنْ يسألا، فلا يلجئهما إلى ذُلِّ السؤال، كل هذا وهم على حالتهم من المعصية، هذا هو الاستقبال السليم للابن إذا نشأ بين والدين من العصاة.

يقول تعالى: **(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾)** العنكبوت

وصية الله تعالى بالوالدين تكون بين المصاحبة بالمعروف والإحسان، يعني أرقى أنواع المعاملة، لكن العلم للابن هنا أساسي (..مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ).. فلا بد له من تعلم دينه لكي يستطيع التفرقة بين ما هو طاعة لله تعالى وما هو شرك، ليتخذ الموقف

الملائم. وحتى لا نجد أبناء يعادون أباءهم وأمهاتهم؛ لأنهم جهلة لايعرفون حقيقة ما هو الشرك، فيتهمون والديهم بالشرك بناء على جهلهم وحماقتهم.

إذًا فتنة التعامل مع الوالدين ينجح فيها من أحسن إلى والديه في كل حالاتهم، ولا يتأفف منهم فيما يصدر عنهما في كبرهما، لكنه لا يطيعهم في معصية، ولا يطيعهم في عمل لا يُبتغى به وجه الله تعالى.

٢) فتنة الحياة الزوجية

العلاقة الزوجية من أهم الامتحانات التي يمر بها الإنسان في حياته، ذلك لاستمرارية الاحتكاك بين الطرفين، مع اختلاف الثقافة والتربية، وتضارب الأهواء والرغبات؛ لذلك فهي المحك الحقيقي لظهور أخلاق المسلم. فتصرفات الزوج وطباعه امتحان للزوجة، وتصرفات الزوجة وطباعها امتحان للزوج، وكلما أحسنا اختيار الإجابة على هذا الامتحان، كلما ارتقيا في الأخلاق وفي محبة الله تعالى لهما فعاشا أسعد حياة.

عَنْ السيدة عَائِشَةَ رَضِيَ اَللَّه عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ عليه الصلاة والسلام: **"خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي"** السنن الكبرى للبيهقي ـ صحيح لغيره.

رسول الله عليه الصلاة والسلام جعل الخيرية المطلقة لمن كان (أو كانت) هو الأحسن مع أهله، فهو الأعلى درجة في الخيرية، لم يقل رسول الله خيركم ، خيركم في صلاته أو صيامه أو زكاته أو حجه، لكن خيركم خيركم لأهله، لأنه في التعامل مع الأهل يكون الإنسان على طبيعته؛ فهو ليس في حاجة للتصنع الذي يظهره في عمله أو مع أصحابه أو مع أقاربه ومعارفه، بل تظهر شخصيته الحقيقية مع أهله. فإن كان على خير خُلق مع أهله، فهذه حقيقة أخلاقه التي يستحق عليها درجة الخيرية المطلقة؛ لأن هذه حقيقته فعلاً بلا رياء ولا تصنع، وكانت نتيجة امتحانه في التعامل مع أهله هي النجاح .ولأن رسول الله عليه الصلاة والسلام هو الأعلى أخلاقًا في حقيقة طبعه، فهو الأحسن مع أهله على الإطلاق، ولنا في رسول الله عليه الصلاة وله التسليم أسوة حسنة.

وإذا كان قدر الوالدين لا يد للإنسان فيه، فإن اختيار الزوجين لبعضهما البعض يخضع لإرادة كل منهما واختياره؛ لذلك فإن امتحان العلاقة الزوجية يبدأ من اتخاذ الأسباب والمعايير الربانية التي تؤدي إلى حسن الاختيار. إن على المسلم (المسلمة) أن يأخذ بكل الأسباب التي أمر الله تعالى بالأخذ بها عند اختيار الزوجة (الزوج) فتكون الأولوية للدين والأخلاق.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام قَالَ: **"تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ"** رواه البخاري.

في هذا الحديث الشريف يدعونا رسول الله أن نضع الدين -بمعناه الصحيح- كأولوية عند الاختيار. والدين ليس هو اللحية، والحجاب، والجلباب، والعباية، والسواك وترديد المصطلحات الدينية، إنما الدين هو الصدق، والأمانة، والكرم، والتواضع، والعفة، وطيب الكلام، والرفق... هو حُسن الخُلق، عنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام: **"يَابْنَ أُمِّ عَبْدٍ، أَتَدْرِي مَنْ أَفْضَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا ؟" قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "أَحْسَنُهُمْ أَخْلاقًا؛ الْمُوَطِّئُونَ أَكْنَافًا، لا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَحَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ"**. جامع الترمذي ـ صحيح لغيره.

الْمُوَطِّئُونَ أَكْنَافًا: المتواضعون الذين يرفقون بالناس ويتواضعون لهم ويحسنون إليهم، فإذا ما لاحظنا فيمن يتقدم للخطبة التعالي على الناس في كلامه، وإطلاق الأحكام عليهم، واحتقارهم، فهو أبعد ما يكون عن حسن الخلق المطلوب اعتباره عند اختيار

الزوج أو الزوجة. وحقيقة الإيمان وحسن الخلق كذلك أن يلحظ المسلم في الطرف الآخر أنه يحب للناس ما يحب لنفسه، فهذه علامة مهمة جدًا في حسن الاختيار، ثم يترتب عليها حسن الجوار. فإن حقق الشرط الأول في حقيقة الإيمان، فسوف يترتب عليها الشرط الثانى وهو حسن الجوار. والعكس صحيح.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام: **"أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحَاسِنُهُمْ أَخْلاقًا، الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَلا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَأْلَفُ وَلا يُؤْلَفُ"** المعجم الصغير للطبراني ـ صحيح لغيره.

من علامات حسن الخلق الذي يجب الأخذ به عند الاختيار، أن يكون المسلم هين لين يصاحب الآخرين بألفة وتودد، يحب الناس والناس يحبونه..

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام قَالَ: **"خِيَارُكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقًا، الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا، وَإِنَّ شِرَارَكُمُ الثَّرْثَارُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ"** شعب الإيمان للبيهقي ـ صحيح لغيره.

(الثَّرْثَارُونَ) رجل ثَرثارٌ: مُتَشَدِّق كثير الكلام، والثَّرثارُ أَيضًا : الصَّيَّاحُ، والثَّرْثَرَةُ في الكلام: الكَثْرَةُ والترديد.

(الْمُتَفَيْهِقُون) قال الأصمعي : أصل الفَهْقِ الامتلاء، فمعنى المُتَفَيْهِق الذي يتوسع في كلامه ويَفْهَقُ به فمه وتَفَيْهَقَ في كلامه: توسَّع وتنطَّع

(الْمُتَشَدِّقُونَ) فهم المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز، وقيل: أَراد بالمُتَشَدِّق المُسْتهزئ بالناس يَلْوي شِدْقه بهم وعليهم. وتَشَدَّق في كلامه: فتح فمه واتسع.

بهذا البحث البسيط عن حسن الخلق وسوء الخلق، والذي يجب أن يقوم به كل مسلم ومسلمة؛ ليتعرف على معايير الله تعالى ورسوله عن حسن الخلق وسوء الخلق. أما من يختار بمعايير توافق هواه، ثم يقول قد اخترت من تلبس الحجاب والنقاب، كما أمرني الله، لكنني وجدتها سيئة الخلق، أو تقول الفتاة اخترت أطول لحية تقدمت إليَّ، ثم وجدته بخيلاً غضوبًا سليط اللسان، أو يختار الأجمل والأشيك والأكثر لفتًا للأنظار، ثم يجدها أنانية مادية لا تراعى بيتها ولا تهتم بأولاده، فيسارع للمشايخ أغيثوني أعمل إيه؟ أو التي تختار الشاب الكول المتابع لأحدث الموضات الغني ذو العائلة المعروفة، ثم تقول أنا في ابتلاء زوجي يضربني ولا يتحمل المسئولية ويصاحب النساء، إيه رأي الدين؟

كل هذه الحالات تعتبر التعاسة التي يعيشونها أقدارًا صنعوها بأيديهم، إنها ببساطة ما جنوه على أنفسهم، إن الاختيار تم على غير معايير الله تعالى ورسوله، فمن يفعل ذلك فله أسلوب في استقبال هذا الأمر مختلف عمن جاءه قدرٌ لا يد له فيه.

وسنعرض أسلوبين لاستقبال امتحان الحياة الزوجية:

الأول: من أحسن الاختيار كما أمر الله تعالى ورسوله، ولكن لاختلاف طبيعة الرجل عن المرأة، واختلاف الثقافة وأسلوب التربية وطبيعة الشخصية، تحدث الاحتكاكات والاختلافات الطبيعية التي لا بد أن تحدث، والتي تمثل امتحانًا لكل طرف . هنا النجاح في هذا الامتحان يكون ببذل الجهد المخلص للتفاهم وحسن التعامل، وبذل أقصى درجات العفو والتسامح وحُسن الخلق .فخيركم خيركم لأهله، والتأكيد الدائم على نقاط التلاقي والبعد عن نقاط الاختلاف، وأن يكون الإحسان، والعفو، والبذل، والتحمل، والرحمة، والصبر، كلها ابتغاء وجه الله تعالى ومحبة له وشكرًا له على نعمه؛ فمفتاح السعادة الزوجية الحقة أن يكون الله تعالى رقم واحد في عقل وقلب كل طرف؛ فحب كل طرف وبذل كل طرف وتحمل كل طرف، يجب أن يكون خالصاً لله تعالى، فإن فعلوا ذلك أنزل الله بينا المودة، والرحمة، والسعادة، والتوفيق، والبركة، والحب الدائم.

الثاني: من اختار بهواه وتعامى عن العلامات التي ظهرت أثناء الخطوبة، والتي تدل على بعد هذا الإنسان عن المعايير الأخلاقية التي أقرها الله ورسوله. فكيف يكون الاستقبال السليم للقدر الذي تسبب فيه الإنسان بنفسه وباختياره؟ إنه يكون...

أولاً: بالتوبة لله تعالى، والصدق مع النفس، والاعتراف له أن الاختيار تم بعيدًا عن المعايير التي أقرها ويحبها لعباده، بدون هذه التوبة لن يخرج من الاختيار السيء الذي قام به، وسيظل يتهم الطرف الآخر بأنه المخطئ دون أن يُصلح من نفسه. ولو انفصل عن الطرف الآخر، سيظل يختار نفس الشخصية التي أتعسته من قبل؛ لأنه سيختار بنفس المعايير الخاطئة التي اختار بها من قبل.

ثانيًا: ثم بعد التوبة، عليه بالإحسان للطرف الآخر بقدر المستطاع وعدم تحميله الخطأ كله، وعليه بتقوى الله تعالى في التعامل معه، وحسن الخُلق، واللجوء لله تعالى بالدعاء.

يقول تعالى: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾) فصلت

لن تستوي أبدًا نتائج الحسنة التي يفعلها الإنسان مع الآخرين، مع نتائج السيئة، لذلك ادفع بالتي هي أحسن، تعامل بالعفو والحلم والإحسان مع مَن أساء إليك، وقابل إساءته لك بالإحسان إليه، فبذلك يصير المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة، كأنه قريب لك شفيق عليك، وما يُوفَّق لهذه الخصلة الحميدة إلا الذين صبروا أنفسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، ولن يتركك الشيطان لتحظى بموعود الله تعالى، سيوسوس لك لحملك على مجازاة المسيء بالإساءة، ويحفزك على الانتقام ممن أساء إليك، ويخوفك من أن العفو عنه ومقابلة إساءته بالحسنى، سيؤدى إلى أن يستمر في إساءته وسيستهين بك، فلا بد أن تأخذ بحقك الآن ولا تتركه بلا رد كافٍ وافٍ على أفعاله. هنا يجب على المؤمن أن ينتبه لهذه الوسوسة، فيستجير بالله ويعتصم به، وذلك عن طريق سماع أمره بالإحسان لمن أساء إليه.

هذه الأخلاق العالية الأولى بها أهل المسلم، ثم الأولى والأولى شريك الحياة، فمن علامات التوبة -التي هي أول إجابة صحيحة على قدر الاختيار السيء للشريك- الإحسان للطرف الآخر، والوصول معه لأرقى درجات الخُلق الحسن.

ثالثًا: الاستقبال الثالث الصحيح في حال الاختيار السيء، هو الفراق بالمعروف؛ فالمسلم أو المسلمة الذين لم يتبعوا معايير الله ورسوله عند الاختيار، وتنبهوا لذلك وتابوا وبذلوا ما في وسعهم لإصلاح الأمر، ولم يثمر ذلك عن حياة طيبة، فله أو لها، أن تنسحب من هذه العلاقة بالمعروف، ولا يجب أن يستمر أحد في علاقة مؤذية لدينه ودنياه. يقول تعالى: **(وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾)** النساء.

أما صورة الاستقبال السيء للأقدار التي تسبب فيها الإنسان بعدم اعتبار معايير الله تعالى عند الاختيار فتكون بالشكوى الدائمة والسخط، وتحميل الله تعالى التعاسة التي يعيش أو تعيش فيها، والتعجب الشديد من أن الآية الكريمة لم تتحقق معه (معها) على أرض الواقع وهذه الآية: (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَات) النور. بينما هذه الآية الكريمة تحققت بالكامل؛ لأنها تعني أننا يجب أن نُحسن الاختيار، فنجعل الطيبين للطيبات، وإن لم نفعل واخترنا بمعايير خاطئة فسوف يأتي الاختيار بالخبيثين الذين سيكونون للخبيثات الذين اختاروهم بهواهم.

أما المقولة التي تبرر التعاسة التي يعيش فيها من أساء الاختيار بأن الزواج قسمة ونصيب، وأنه قدرٌ من عند الله تعالى لا يد لأحد فيه، وأنه بطيخة مقفولة لا يمكن معرفة ما بداخلها إلا بعد وقوع المحظور. هذا كله كذب وافتراء على الله تعالى، والله

تعالى برئ من هذه التعاسة التي يحياها؛ فالله تعالى سمح للإنسان بالاختيار الكامل، وجعل له معايير يختار على أساسها، فله أن يأخذ بها أو يدعها، ثم عليه تحمل النتائج ومعالجتها.

٣) فتنة الأولاد

إن الأولاد هم من قدر الله تعالى، فلا أحد له الاختيار في جنسهم أو شكلهم. فالآباء والأمهات لن يسألهم الله تعالى عن ذلك، لكن بداية الامتحانات والاختبارات والفتن تأتي بعد مجيئهم على الصورة التي أرادها الله تعالى؛ حيث للآباء والأمهات الآن حرية الاختيار في تربيتهم وتوجيههم.

إن فتنة الأولاد تحتل مكانة هامة وكبيرة في سُلم الفتن والامتحانات التي يتعرض لها الإنسان؛ فالأولاد قطعة من الوالدين، ولهم كل الحب والعناية والرعاية عند الآباء والأمهات ذوي الفطرة السليمة. فإن أولادهم هم فلذة أكبادهم ونور أعينهم ومستقبل حياتهم، وهم ملاصقون لهم على مدى العمر، حيث أنه كلما اقتربت العلاقة وزادت مدتها، كلما ازداد الاختبارات الخاصة بها صعوبة.

وكما أن هناك حسن استقبال وسوء استقبال لكل قدر من أقدار الله تعالى، فإن هناك حسن استقبال لهذا القدر وسوء استقبال، وقد أخبرنا به رب العالمين في العديد من الآيات الكريمة منها:

الآية الأولى:

يقول تعالى: **(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿ ٩ ﴾)**النساء.

إن تحقيق النفع للأولاد هو الشغل الشاغل للآباء والأمهات، هذه الرغبة تقودهم لكثير من التصرفات التي يبغون بها حماية أبنائهم وتأمين مستقبلهم وضمان سلامتهم، ولعلم الله تعالى بهذه الرغبة الملحة عند الوالدين، فإنه وعد الآباء والأمهات إن هم حققوا ما أمر به، فإنه سبحانه سيضمن لأولادهم السلامة والأمان. ومن أصدق من الله قيلاً، ومن أصدق من الله وعدًا، ومن أقدر من الله على تحقيق وعوده؟ الإجابة : لا أحد.

لذلك فإن التعامل مع الله تعالى هو التعامل الوحيد المضمون فيه الوفاء الكامل، فلو اعتمد الإنسان على نفسه فهو قد يتغير وقد لا يرغب في تحقيق ما أراد، وقد يفقد القدرة الجسدية أو المالية على ذلك، وقد يموت فهو لا يضمن بقاءه للوفاء بما وعد.. وهكذا مع أي إنسان أخذ منه الوعد.

أما اتفاقك مع الله تعالى، فهو متحقق الوفاء ومضمون الأداء؛ لأن الله تعالى حي لا يموت، ولأنه على كل شيء قدير، ولأنه غني كريم، ولأنه عزيز يفعل ما يريده بلا ممانعة ولا مغالبة من أحد، ولأنه لا يتغير، فلن يأتي عليه وقت يبدل فيه كلامه أو لا يرغب في أداء ما وعد به .فهو الله تعالى الملك العظيم، القدير، الحي الذي لا يموت، السميع البصير، العليم الحكيم، فهو وحده القادر على إنفاذ ما وعدك به إن أديت ما عليك من الشروط.

فماذا طلب الله تعالى من الوالدين لكي يضمن لهم سلامة أبنائهم؟

المطلوب الأول من الوالدين هو تقوى الله تعالى.. **(فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ..)**

إن تقوى الله تعالى هي طاعته والعمل لمرضاته في كل وقت وفي كل حين وفي أي ظرف، وارتباطها هنا بالخشية على الأبناء يعني تحقيقها من عدة نواح:

أولاً: تقوى الله تعالى في تربيتهم

فالمسلم الذي يخشى على أولاده من بعده يستطيع أن يضمن سلامتهم بحسن تربيتهم على ما يحبه الله تعالى ويرضى، وحسن التربية هذا علمٌ لا بد من تعلمه والعمل به، فلا يكفي أن أعتقد أنني أتقيت الله تعالى في تربيتهم بتلقينهم حفظ القرآن كاملاً وهم في سن صغيرة فهذا جيد ومطلوب، لكنه ليس هذا المقصود من التقوى؛ لأنهم يحفظونه عن ظهر قلب بلا وعي ولا إدراك لمعانيه وكيفية العمل به، فلا يكون له أثر عليهم. لكن التقوى هنا هي تعليمهم قيم القرآن ومعانيه الراقية، وقضاء الأوقات الكافية معهم، والعناية بهم، وحسن معاملتهم بتقديم الرعاية، والحب، والرحمة، والمتابعة، والمشاركة، وبذل الوقت والجهد المطلوب لتربيتهم، وإعطائهم المثل الجيد لكيفية تطبيق أخلاق القرآن وكيفية متابعة أخلاق رَسُولُ ٱللَّه عليه الصلاة والسلام.

ثانيًا: تقوى الله تعالى بإطعامهم الحلال الطيب

إن من أهم علامات تقوى المسلم تحري أكل الحلال وترك الشبهات والمحرمات، وإن خير ما يفعله المسلم ليضمن سلامة أولاده أن يكون رزقه حلالًا طيبًا، ويطعمهم الحلال الطيب، يقول تعالى: **(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾)** المائدة

فمن تقوى الله تعالى تحري أكل الحلال، وتربية الأولاد على ذلك، فإن تركهم فقد أحسن إليهم إذ سيستمرون على هذا الخلق وهذه التزكية، فيكونون أهلاً لعطاءات الله تعالى وتوفيقه وبركاته.

ثالثًا: تقوى الله تعالى برحمة بالضعفاء ومن فقدوا أحدًا من والديهم أو كلاهما.

إن الإنسان يخاف على أولاده أن يدركه الموت، فيتركهم بلا عائل ولا معين، لذلك وعده الله تعالى أنه إن عطف على ذرية ضعيفة تركها عائلها، فإن الله تعالى سيقيض من يعطف على ذريتك الضعيفة إن تركتها. إن كل ما قد تتركه لهم من أموال وعقارات وأراضٍ، قد يذهب في لحظات. أما وعد الله تعالى فهو باق ببقاء الله تعالى، واعلم أن ربنا رقيب وشكور ولا يترك الخير الذي فعلته دون أن يرده إلى ذريتك.

المطلوب الثاني من الوالدين لكي يضمنوا عند الله تعالى الأمن والحفظ والسلامة لأبنائهم بعد التقوى، هو القول السديد **(وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا)** أي صوابًا وصائباً، هذه الآية الكريمة وردت ضمن سياق من التوصية بالضعفاء واليتامى؛ لذلك فإن القول السديد هنا يكون في حق الضعفاء من اليتامى، أو غيرهم من الفقراء أو ذوي الحاجة، أو من لا يملكون القدرة عن الإفصاح عن مطالبهم، كل هؤلاء في أمس الحاجة لمن يقول في حقهم قولاً سديدًا، أي قولاً يُحق الحق، قولاً يرد عنهم الظلم ويعيد لهم حقوقهم، قولاً يقف به أمام من يريد سرقة أموالهم، قولاً صائبًا يحقق به مصلحتهم.

إن الرجل أو المرأة الذين يقفوا هذا الموقف الشجاع من أجل نصرة الضعفاء، يقينًا سوف يحفظ الله تعالى أولادهم، ويرسل لهم من يساعدهم، ويُسخر لهم من يدافع عنهم، ويغنيهم من فضله ومن واسع كرمه. هذا وعد الله تعالى ومن أصدق من الله حديثًا، إن من يتق الله ويقول قولاً سديدًا يرزقه الله بمن يتقي الله في أولاده، لأنه مهما كان يملك من مال وقوة، لا يستطيع دائمًا أن يحفظهم ويعطيهم ويسر لهم أمورهم ويشفق عليهم، فمن يتقِ الله تعالى كما أمر، يرزقه بمن يتقي الله في أولاده في حياته وبعد مماته.

هذه هي الإجابة السليمة على فتنة الأولاد، إن إجابة هذا الامتحان ليس في تكنيز الأموال من كل صوبٍ وحدب من أجل تأمين مستقبلهم وضمان سلامتهم، بل هي في تقوى الله تعالى وابتغاء وجهه في تربيتهم التربية الصحيحة، وإطعامهم الحلال الطيب، ومراعاة من فقد أباه والعطف عليه والإحسان إليه.

الآية الثانية: يقول تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ }** الأنفال

مثل ما قلنا من قبل أن معنى الفتنة هي الامتحان الشديد الذي يبين حقيقة الإيمان، وقد جعل الله تعالى الأموال والأولاد فتنة، أي امتحان واختبار يبين حقيقة الإيمان.

لكن لماذا جمع الله تعالى بين الأموال والأولاد في سياق واحد؟ ما هو وجه التشابه بينهما؟ إن وجه التشابه في الاعتقاد الذى ينطوي عليه الإنسان، والذى يظهر فى أسلوب تعامله معهما؛ فالإنسان عندما يرزقه الله تعالى المال، ويعتقد أن هذا المال ملكية خاصة له، اكتسبه بتعبه وعلمه وليس لأحدٍ حق فيه، (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي..) وبالتالي فإن له الحق في التصرف في ماله كيفما يشاء، فلا يتبع فيه أمر الله تعالى. كذلك الأولاد يعتقد الأباء والأمهات أنهم ملكية خاصة وبالتالي فإن لهم حق التصرف فيهم كيفما شاءوا، بل قد تعتقد الأم أو الأب إذا تشاحنوا أوانفصلوا أن الأولاد ملكية خاصة به أو بها، وليس للطرف الآخر حق فيهم، وبالتالي فكل منهم أن له الحق في التصرف في أولاده كيفما يشاء.

إن العنصر الهام الخاطئ الذي يجمع بين المال والأولاد بالنسبة للإنسان هو الاعتقاد أنهما ملكية ذاتيه واستحقاق ذاتي، ولا يوجد أي قانون أو نظام أو تشريع يحد من هذه الملكية الخالصة، أو يملي عليه كيف يتصرف فيهما.

هذه هي أشد الامتحانات تلك التي يظن فيها الإنسان أنه يملك بصورة كاملة، بينما هو في الحقيقة لا يملك، وبالتالي لا يحق له التصرف كيفما شاء. فالمالك للأموال والأولاد على وجه الحقيقة هو الله تعالى، والإنسان الذي يظن أنه يملك، ما هو إلا مُستأمن على ماله وأولاده، وبالتالي ليس للمستأمن أن يفعل فيما أُستئمن عليه إلا ما يمليه عليه السيد المالك. يقول تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ﴿٢٧﴾)** الأنفال.

لقد أمره المالك أن يعلم أنهما أمانة وأن يتعلم كيف يحسن فيهما، فإن لم يفعل وتصرف بهواه فقد خان الأمانة وسقط في الامتحان وسيناله العقاب الشديد، ومن ينجح فإن العظيم عنده أجر عظيم..

إن الذي يتخبط في ماله بلا علم بالحلال والحرام، وبلا علم بالأولويات التي وضعها الله تعالى عند اكتساب المال وعند إنفاقه، فقد خان أمانة المال ورسب في امتحان الأموال.

وكذلك فإن الذي يتخبط في تربية أولاده ومعاملتهم بلا علم بما يحبه الله تعالى ويرضاه، فقد سقط في الامتحان وخان الأمانة. كالآباء والأمهات الذين يتعاملون معهم بما يمليه عليهم هواهم ورغباتهم، يعطون ويمنعون، ويأمرون وينهون بلا علمٍ بما أمر الله تعالى فيهم، وكأنهم ملكية خاصة منحها الله تعالى لهم ليتصرفوا فيها كيفما شاءوا، ولا يعتقدون أنهم سوف يُحاسبون على كل كلمة قالوها لهم، وكل أمر أمروهم به، وكل توجيه وجهوا لهم، سوف يُحاسبون على نيتهم فيه وهدفهم منه، كذلك سوف يحاسبون على كل كلمة كان لا بد أن يقولوها فلم يقولوها، وكل عناية كان لا بد أن يبذلونها فلم يبذلونها، وكل رعاية أمرهم الله تعالى أن يولوها أولاده فلم يولوهم.

وامتحان الأولاد له إجابة خاطئة أخرى وهي ظلمهم؛ فالآباء والأمهات الذين لا يعلمون أن أولادهم أمانة، ويعتقدون أن لهم الحق في أن يفعلوا بهم ما يوافق هواهم، فيتركونهم بلا تربية ويتركون أمرهم للحضانات والخادمات والتليفزيونات، لأن هذا الأمر يوافق ظروفهم وأعمالهم، أو يظلمونهم بالتفرقة في المعاملة، أو يظلمونهم بالقسوة الشديدة أوبالتدليل المفسد، أو بالبخل عليهم أو بعدم تعليمهم دينهم وهكذا .كل هذه أشكال للرسوب والسقوط والفشل في استقبال ابتلاء وامتحان الأولاد، والتي يعاقب الله تعالى عليه أشد العقاب.

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام، يَقُولُ: **"كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا، أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ"** المستدرك على الصحيحين.

الحديث الشريف يبين أن أثم تضييع الأولاد الذين يعولهم الإنسان، هو من أشد وأبشع الآثام، حتى أنه يكفي لكي يعاقب المرء عليه حتى لو لم يعمل إثمًا غيره والتضييع ليس في النفقة فقط، إنما هو في التعليم والتربية والعناية والرعاية والدين.

إن السبب الحقيقي لسوء استقبال قدر الله تعالى بالأولاد هو عدم شعورهم أن الأولاد أمانة في أيديهم سوف يسألهم الله تعالى عنها وسوف يتحملون الوزر عن تفريطهم فيها، إنما يشعرون أنهم يملكونهم ولهم الحق في فعل ما يشاءون بهم.

إن فتنة الأولاد فتنة كبيرة، في حاجة للصبر وتعلم كيف النجاح فيها؛ لذلك كان عقاب من يسقط فيها شديد، وثواب من ينجح فيها عظيم.

٤) فتنة الأهل والأقارب

إن الأهل والأقارب من قدر الله تعالى، لا أحد يختار أهله ولا أقاربه، وإن من الفطرة السليمة أن تسود مشاعر المحبة والمودة بين الأهل، وأن يسود بينهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يسود بينهم التكافل والتراحم والفضل، ولكن عند التعامل والاحتكاك قد تتضارب المصالح والأهواء، وتتراكم الخبرات السيئة فتقل الروابط والمشاعر الطيبة. فكيف الاستقبال الحسن لهذا القدر ؟

يقول تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾** النحل.

إن للأقارب حقًا أقره الله تعالى وأمر به، إن الأمر بالعدل والإحسان أمرٌ بصفاتٍ عظيمة الأثر على المجتمع، كذلك أن تؤتي ذوي القربى من مالك ووقتك وجهدك ورعايتك أمرٌ بصفةٍ عظيمة الأثر على الأسر وعلى المجتمع كله، لذلك فإن الاستقبال الحسن لقَدر الأقارب هو الصبر على صلتهم وإعطائهم مما أفاء الله عليك من علم أووقت أوجهد أومال.

فإن حدثت خصومات ومشاكل بين الأهل، فإن الاستقبال الناجح لها يكون كما وجهنا رب العالمين في الآيات الكريمة يقول تعالى: **{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾}** فصلت

في هذه الآيات المباركة يدعونا ربنا إلى الرفق في المعاملة، ومقابلة السيئة التي نالتنا من الناس بالحسنة، ولا تستوي الحسنة التي تفعلها من حيث وقعها الجيد وثوابها العظيم، مع مقابلة السيئة بالسيئة التي أتى بها المسيء .ادفع بعفوك وحلمك وإحسانك مَن أساء إليك، وقابل إساءته لك بالإحسان إليه، فبذلك يصير المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة كأنه قريب لك شفيق عليك. وما يُوفَّق لهذه الخصلة الحميدة إلا الذين صبروا أنفسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، وما يُوفَّق لها إلا ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة.

وهناك وجهة أخرى لفتنة الأهل والأقارب، وهي العصبية للأهل والعشيرة، تلك العصبية التي تجعل من يتصف بها يأتمر بأمر أهله ولو كانت على خلاف ما أمر به الله تعالى. وأوضح مثال لذلك تحريم توريث النساء في البلاد والمدن البعيدة عن الدين؛ لأن هذا هو ديدن العائلة، إنه اتباع للأهل يودي بصاحبه لجهنم.

يقول تعالى: **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾)** البقرة

ويقول تعالى:**(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾)** الأعراف

إن الاستقبال السليم للأهل والأقارب الذين هم على غير مرضاة الله تعالى، ألا يتبعهم المسلم ولا يرضخ لضغوطهم في الفساد الذي يريدونه.

عَنْ عَبَّادِ بْنِ كَثِيرٍ الشَّامِيِّ، عَنْ امْرَأَةٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهَا: فُسَيْلَةُ، قَالَتْ: سَمِعْتُ أَبِي، يَقُولُ، سَأَلْتُ النَّبِيَّ عليه الصلاة والسلام **فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ، قَالَ: "لَا، وَلَكِنْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُعِينَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ"** سنن ابن ماجة (حسن لغيره).

هكذا يكون الاستقبال الحسن لأقدار الله تعالى بالأهل والأقارب أن يصلهم ويعطيهم ويؤتيهم، لكنه لا يتعصب لهم ولا يجاريهم في ظلم أبدًا.

ويجمع حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام خلاصة التعامل مع فتنة الناس.

عَنْ يَحْيَى بْنِ وَثَّابٍ، عَنْ شَيْخٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام عَنِ النَّبِيِّ أنه قَالَ: **"الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ"** جامع الترمذي ـ صحيح.

وهكذا التعامل مع الجيران والزملاء والمعارف، النجاح في امتحان التعاملات، يقوم على حسن الخلق والسماحة والعفو، ولن يضيع الله تعالى أجر من أحسن أبدًا.

إذًا قدر الله تعالى: المعاملات بين الناس

حكمته: امتحان الصدق في مرضاة الله تعالى.

الباب الثالث

ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن

- قبل وقوع أقدار الله تعالى

١. العلم.

٢. الاستقامة.

٣. تذكر نعم الله تعالى.

٤. حسن الظن بالله تعالى.

- بعد وقوع أقدار الله تعالى

١. مراجعة الأسباب.

٢. عدم التحسر والندم.

٣. الصبر والشكر.

٤. التضرع والاستكانة والدعاء.

مما سبق علمنا أن أقدار الله تعالى في الحياة الدنيا هي اختبارات وابتلاءات، وأن أقدار الله تعالى هي ورقة الأسئلة، وأن الإجابة التي نجيب بها على هذه الامتحانات هي التي عليها مدار الثواب والعقاب. ونريد الآن أن نحدد ماهية الخطوات التي يجب أن نتخذها لكي ننجح في هذه الامتحانات، وقد قسمتها لقسمين:

القسم الأول: الخطوات التي يجب أن نتخذها قبل وقوع قدر الله تعالى.

القسم الثاني: الخطوات التي يجب أن نتخذها عند وقوع قدر الله تعالى.

وبالرغم من تداخل هاتين الخطوتين معًا، فنحن لا يمر علينا وقت بدون اختبار حتى نتوقف ونقول الآن نأخذ الخطوة الأولى، لكنه تقسيم لسهولة الفهم وتوضيح العمل المطلوب ليس إلا؛ بحيث أن المسلم لا بد وفورًا أن يبدأ في الخطوات الأولى لكي يوفقه رب العالمين فيما هو آت.

أولاً: ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن قبل وقوع أقدار الله تعالى:

١) العلم

تفضل رب العالمين على نبيه وعلينا بأعظم فضل وهو العلم، الله عز وجل سمى عطاء العلم فضلاً عظيمًا، يقول تعالى: **{ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾}** النساء

ويقول تعالى:**{... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾}** الزمر

لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون في كل شيء، في حياتهم، وسعادتهم، وتوفيقهم، ومالهم، وإنفاقهم، وأولادهم، وبيوتهم في حياتهم ومماتهم، في دنياهم وآخرتهم، لكن من يعلم فضل العلم فقط هم أولوا العقول والألباب.

والعلم لكي يؤثر بصورة حقيقية في حركة حياتنا اليومية، ونستفيد مما نتعلمه في مواجهة المواقف المختلفة الواقعية، يمر بثلاث مراحل:

أولاً مرحلة المعلومات:

أي تلك المعلومات المتناثرة التي حصلناها من برنامج تلفزيوني، أو سمعناها بالراديو، أو قرأناها في كتاب، أو مقالة في جريدة، أو سمعناها من صديق وتأثرنا بها عاطفيًا، وظننا أننا بذلك سنفعل ما سمعناه وشعرنا بصدقه وضرورة تنفيذه، ثم بعد مرور وقتٍ قليل، إذ بهذه المعلومات تفقد تأثيرها علينا، وبالتالي لا ننفذ منها شيئًا.

ثانيًا: مرحلة التحقق

هي تلك المرحلة التي تتأكد بها المعلومات من خلال مداومة الدراسة والفهم والممارسة؛ حيث تبدأ هذه المعلومات في الاستقرار بصورة تدريجية بالعقل، ونبدأ في تطبيق ما عرفناه وتعلمته، ننجح مرة، ونفشل مرات لكننا على الطريق السليم.

ثالثًا: مرحلة التطبع

هي المرحلة التي يصبح ما تعلمناه واستقر بعقولنا، مستقرًا بقلوبنا أيضًا، وذلك نتيجة استمرار الممارسة والخبرات السعيدة التي اكتسبناها من تنفيذ ما تعلمناه لمدة من الزمن. في هذه الحالة يتحول ما تعلمناه من علم إلى طبعٍ فينا، يظهر بسهولة وسرعة عند مواجهة المواقف المختلفة.

لو أخذنا فهم الأقدار كمثال، في المرحلة الأولى تصل المسلم معلومات عن رحمة الله تعالى وحكمته من كل قدر يُقدره من خلال قصص، أو مقالات لعلماء، أو فيديو، أو خطبة، يعني معلومات متناثرة من هنا وهناك. وقد تُشفع هذه المعلومات

بقصص مؤثرة تجعله يبكي ويهتز قلبه لما فيها من معاني جميلة جدًا، لكن هذه المعلومات التي دخلت وأثرت من خلال الحالة العاطفية التي تجيء وتذهب حسب الموقف، ظلت على سطح القلب ولم تصل للعقل، فهو لم يفهم معنى الأقدار، أو يعلم حكمة رب العالمين منها بصورة واضحة سليمة، وبالتالي لم تؤثر هذه المعلومات المتناثرة العاطفية في حياته ولا في طريقة استقباله لأقدار الله تعالى.

فانتقل للمرحلة الثانية وعلم بأن العلم فريضة على كل مسلم مسلمة، وبأن العلم هو الطريق الصحيح لمعرفة ما يحبه الله تعالى ويرضاه، وهو الذي يضعه على الطريق الصحيح للتدين، فاتخذ قرارًا بأن يسلك طريق العلم الذي يزيده معرفةً بحقيقة أقدار الله تعالى، فتعلم من خلال قراءة تفسير القرآن، وسماع دروس العلم، وقراءة الكتب. وأخذ علمه يزيد باستمرار، ويتأكد بكثرة المذاكرة والممارسة. وعند التنفيذ قد يتذكر ما تعلمه فينجح في حسن الاستقبال لأقدار الله تعالى مرة، وقد ينسى ولا ينجح مرات، لكن العلم جعله يعلم ما يجب عليه فعله؛ لذلك فعند الخطأ أو السقوط في الامتحان، فإنه قريب التوبة، سريع الندم والمراجعة لنفسه، ويأخذ قرارًا بحسن الاستقبال مستقبلاً، لقد تعلم وفهم وأصبحت لديه رؤية واضحة.

ثم تأتي المرحلة الثالثة بعد شهور أو سنين من العلم والممارسة وتكون الخبرات، فنجده تطبع على حسن استقبال أقدار الله تعالى، وذلك لما استقر في عقله وقلبه من علم مارسه وأسعده. فعند القدر يجد أن العلم الذي استقر بداخله يؤثر بصورة مباشرة على قراراته وعلى مواقفه، فيتخذ أحسن المواقف والقرارات.

في هذا الشرح لمراحل العلم، ردًا على من يشكو من أنه يسمع درسًا هنا أو يحضر محاضرة هناك ويتأثر بها ويقرر العمل بما فيها، ثم إذا به لا يعمل بأي حرف منها، ذلك لأنه توقف عند مرحلة المعلومات، ولم يتجاوزها إلى مرحلة التنفيذ؛ إذ لابد من توالي المعلومات ومن الممارسة ومن تراكم الخبرات حتى تتحول المعلومات إلى علم حقيقي يؤثر في حركة حياة الإنسان.

ونجد شرح هذا الأمر في القرآن الكريم، إذ يقول رب العالمين رداً على من يسأل عن سبب عدم نزول القرآن الكريم كله مرة واحدة وفقط.. يقول تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾}** الفرقان.

قالوا لماذا لا ينزل القرآن مرة واحده ونكتفي بذلك؟ فرد رب العالمين بأن القرآن نزل مرتلاً أي أن آياته متراصة يتبع بعضها بعضًا على مهل، "لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ" أي أن العلم لكي يَثبت في القلب، ويُثبت المسلم، ويجعله يتخذ المواقف والقرارات السليمة عند الأقدار المختلفة، هذا العلم لا بد أن يستمر فترة طويلة ويتلقاه المسلم على مراحل.

وقد تلقى رسول الله عليه الصلاة والسلام القرآن الكريم على مدى ٢٣عامًا أي على مدى عمره كله في الرسالة، وهو قدوتنا وخير الخلق أجمعين. فهذه هي مدة العلم الذي يجب تحصيله، إنها على مدى العمر كله، لنحوز ما وعد به رب العالمين من تثبيت قلوبنا على الإيمان والعمل الصالح.

يقول د .النابلسي: (**العلم** أعظم نشاط يليق بالإنسان، الإنسان له حاجات عليا، وله حاجات سفلى، الحاجات السفلى أن يأكل، ويشرب، ويتزوج، وحاجاته العليا أن يعلم، فالذي يؤكد في الإنسان إنسانيته طلبه للعلم، أنت حينما تأتي إلى بيت من بيوت الله لتعرف كلام الله فأنت تلبي حاجاتك العليا، وتفكيرك المرتفع، أنت تحقق إنسانيتك)..

فما هو العلم الذي أمرنا الله تعالى بالتزود منه، وجعله رسول الله عليه الصلاة والسلام فريضة على كل مسلم" طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ .." إنه العلم به سبحانه وبكتابه وبرسوله.

فيجب أن نعلم من نعبد؟ ماذا أرسل؟ من أرسل؟

إن العلم بمن نعبد وهو (الله تعالى)وماذا أرسل وهو(القرآن الكريم)وبمن أرسل وهو(رسول الله عليه الصلاة والسلام)، يمثل المحاور الأساسية للعلم الذى يجب أن نحصله لكي نحصل على الحياة الطيبة التي وعد الله تعالى عباده المؤمنين.

وسوف نشرح هذه المحاور:

أولاً: من نعبد؟ الله تعالى

العلم بالله تعالى هو أرقى وأشرف العلوم وأهمها على الإطلاق، إنه العلم بالخالق المالك الرازق العليم الحكيم، إنه الطريق الوحيد لإحسان الظن بربك .فكيف تثق فيمن لا تعرفه؟

كيف تأمن له وتطمئن لقراراته؟ كيف تُسلم له أمرك وترضى بأقداره؟ لن يحدث أيان مما سبق دون التعرف إلى رب العالمين، إلى أسمائه وصفاته.

من هنا كانت الأهمية القصوى لمعرفة الله تعالى والإيمان واليقين بكل أسمائه وصفاته.

وقد أبلغنا رسول الله عليه الصلاة والسلام بهذه الأهمية فى حديثه الشريف، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: " إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ " رواه البخارى

أَحْصَى الشيءَ : أَحاطَ به ..

(مَنْ أَحْصَاهَا) أى من عقلها وفهمها وأحاط بعلمها وعمل بها واستقرت فى قلبه، هو من أهل الجنة، لأنها سوف تقوده للاستقبال السليم لأقدار الله تعالى ولأوامره .فالمؤمن لابد أن يوقن بكل صفات الله تعالى، ويتحرك في حياته بناءً عليها، فإذا أيقن أنه هو المحيي المميت وأنه الرحيم الودود، ثم دلت أفعاله على أنه يشك في أنه الحكيم، فسوف يقوده هذا إلى السخط على أقداره، ومن ثم إلى سوء استقبالها فيعيش معيشةً ضنكًا.

وهذا العلم في حاجة أن نتدارسه بصورة دائمة ومن خلال منهج مستمر، والعلم بالله تعالى من أمتع العلوم وأرقاها للنفس والقلب.

ثانياً: ماذا أرسل؟ القرآن الكريم

يقول د .النابلسي: (أنا أقول لكم: ما من عملٍ أجلُّ وأعظمُ وأخطرُ في حياتكم من طلب العلم، وأيُّ علمٍ هذا ؟ معرفة الله عزّ وجل، وكيف تعرف الله عزّ وجل؟ يجب أن تعرف القرآن وتتدارسه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام: **".. مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ"** رواه مسلم.

وكمثال لكيفية تدارس القرآن الكريم ما فعلناه مثلاً في بحث (فهم الأقدار)، لقد تدارسنا القرآن الكريم، واستخرجنا منه ما يخبرنا به ربنا من حكمته من أقداره، واستخرجنا كيف الإستقبال الذى يحبه رب العالمين لأقداره المختلفة، وأيضاً علمنا الاستقبال الفاشل لأقداره حتى لا نقع فيها، ليكون هذا العلم نبراسًا لنا يضيء لنا الطريق إلى الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

هل لو كنا قرأنا القرآن وختمناه مائة مرة دون دراسة أو تفكر وتوقف وتدبر كنا سنصل لهذا العلم؟ بالطبع لا؛ لأن القراءة لا تؤدي إلى ما تؤدي إليه الدراسة.

ونفهم من الحديث الشريف أن الدراسة غير التلاوة كما أوضح لنا رسول الله "يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ" فالدراسة تعني قراءة التفسير، والتوقف عند الآيات والتفكر فيها، والإلمام بالتفسير الموضوعي للقرآن "أي اختيار موضوع معين وجمع الآيات التي تتحدث فيه كما فعلنا في (فهم الأقدار)" وهكذا..

والدراسة تمتد على مدى حياة الإنسان كلها، ولأن الكلام صفة المتكلم، فكلام الله تعالى يحمل صفاته سبحانه، فهو لا تنفذ معانيه ولا تنقطع عطاءاته. وللإنسان أن يختار التفسير الذي يرتاح له، ويقرأه ثم يبحث ليقرأ الأحسن وهكذا.. فلن يكفي تفسير واحد ليُلم ببعض روعة القرآن الكريم.

ثالثًا: من أرسل؟ رسول الله عليه الصلاة والسلام.

بالطبع لن نجد مثالاً لتطبيق ما جاء بالقرآن الكريم أحسن وأعلى وأرقى وأروع من حياة رسول الله وأحاديثه الصحيحة وسيرته الشريفة، فكما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها، عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ قَالَتْ: **"كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللَّهِ تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"** مسند أحمد بن حنبل صحيح لغيره.

لذلك فالعلم النافع الذي يُثبت المسلم ويرتقي به لا بد أن يشمل دراسة سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام بكل ما فيها من صفات، وأخلاق، ومعاملات، ومواقف، ودراسة أحاديثه الشريفة الصحيحة.

كلمة أخيرة في أهمية العلم: إن العلم الذي ينفع المسلم في إحسان استقبال أقدار الله تعالى، لا بد أن يكون قبل وقوع الأقدار والبلاءات والفتن التي تزلزل كيانه. لا يستطع الإنسان أن يتعلم صفات ربه وحكمته من أقداره وهو داخل المصيبة، أو وهو في سكرة الغنى والرفاهية، لابد أن يكون لديه أولاً أرشيف كافٍ من العلم، فإن وجد هذا الأرشيف من المعلومات اليقينية عن الله تعالى وعن صفاته وأفعاله وأقداره، فهنا تكفيه التذكرة وقت الأزمة فتعينه على اتخاذ الموقف السليم من الامتحان ومن القدر مثلما حدث مع الإخوة أصحاب الجنة.

٢) الاستقامة:

يقول تعالى: **(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)** ﴿١١٢﴾ هود.

الاستقامة أمرُ الله تعالى لنبيه وللمؤمنين معه، والاستقامة تعني: السير في طريق واحد بلا انعطاف يمينًا أو يسارًا، إنه طريق الله تعالى المستقيم، إنه الانتهاء قطعياً عن المحرمات التي ذكرها رب العالمين بسورة الأنعام، والقيام بالعبادات، ثم اتباع منهج الله تعالى فيما أمر به ونهى عنه بقدر استطاعتك من الفهم والتقوى.

يقول تعالى: **(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾)** الأنعام.

كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام، يَقُولُ: **" مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ،.."** رواه مسلم.

لكن فيما تنفع الاستقامة في أمر الابتلاءات التي نتعرض لها؟ إن الذي ينجح من أول مرة لا يحتاج لدخول امتحان الملحق والإعادة لكي ينتقل للسنة التالية، كذلك الاستقامة تعينك على النجاح من أول امتحان فلا تحتاج للإعادة .أما من هو على غير استقامة، فإنه لا ينجح من أول امتحان، فيدخله الله تعالى في عدة امتحانات أخرى عسى أن ينجح؛ لذلك نجد غير

المستقيم على أمر الله تعالى تكثر عليه الفتن وتتوالى عليه البلاءات، يقول تعالى في أهل القرية التي كانت على البحر، وكان أهلها يتقوتون من الأسماك، لفسقهم ابتلاهم الله تعالى بامتحان، هو أشد ما يكون، أن الأسماك تأتيهم فقط يوم لا يسمح لهم بالصيد، ولاتأتيهم يوم يسمح لهم بذلك.

وقد علل سبحانه ابتلاءه هذا لهم بأنهم كانوا فاسقين، يقول تعالى: **(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾)** الأعراف. وهكذا فإن الاستقامة تعني النجاح من أول امتحان، وعدم الحاجة للملحق أو لإعادة السنة.

٣) تذكر نعم الله تعالى

إن الفطرة السليمة تحب من أحسن إليها، وكلما تذكر الإنسان إحسان من أعطاه ومنحه ورعاه وأنفق عليه، كلما ازداد له حبًا وتقديرًا. ولأننا نعيش النعم التي أنعم بها الله تعالى علينا بصورة يومية فإننا نعتاد عليها، وكأنها موجودة بذاتها وليست نعمة كبرى من رب العالمين؛ لذلك فإننا ننسى ذكر هذه النعم، وبالتالي لا نضع الله تعالى في المكانة التي تليق بمن نعمه تحيط بنا من لحظة وجودنا في عالم الذر حتى دخولنا الجنة إن شاء الله.

يقول تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ..)** المائدة

يقول تعالى: **(وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾)** النحل.

يقول تعالى: **(فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾)** النحل

ويقول تعالى: **(وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)**﴿ ١٨﴾ النحل

يعني لو أمضينا عمرنا في تعداد بركات نعمة واحدة لن نستطيع إحصاءها.

وإن دوام ذكر نعم الله تعالى وشكره عليها، باللسان والقلب والعمل، يعين على حسن استقبال أقدار الله تعالى. فعند ابتلاءات الشدائد تعودك على ذكر نعم الله عليك وعطاءته ولطفه بك من قبل، يعينك على ذكرها وقت الشدائد، فتهون عليك المصائب وتحسن الظن بربك، فتجتاز الشدائد والابتلاءات بنجاح.

لذلك أحب الله تعالى لنا حمده مع نعمة كل شربة ماء وكل أكلة، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام: **"إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا"** رواه مسلم.

وكذلك فإنه عند الابتلاءات بالعطاءات من أموالٍ وبنين، وعقارات، وأراضي، هذه الامتحانات، لن تحسن استقبالها إلا إذا كنت دائم الذكر لنعم الله عليك من قبل، حيث أن ذلك يُقر في قلبك أن المانح للنعم على وجه الحقيقة هو رب العالمين، فلما يفتح الله تعالى لك باب النعم، تجد قلبك يرجعها لواهبها ومالكها، فيساعدك هذا على حسن الاستقبال لها، بينما من لا يذكر نعم ربه دائمًا ويشكره عليها يتحول عند الفتح إلى قارون الذي نسى مَنِ المالك المانح للنعم وكفر بقوله: **(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي..)** فأساء استقبال قدر الله تعالى له بالغنى، فكانت عاقبته: **(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ..)** القصص

لذلك فإن من أهم الأحوال التي يجب أن يحرص عليها المؤمن، دوام ذكر نعم الله تعالى وشكره عليها على جميع أحواله، يقول تعالى: **(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾)** الضحى .. فعلى المؤمن أن يتذكر دائمًا نعمة ربه وأن يحدث بها نفسه، ويحمده عليها.

٤) حسن الظن بالله تعالى

إن من الصفات والأحوال التي يجب أن يحرص عليها المؤمن -لكي يُحسن استقبال أقدار الله تعالى- أن يحسن الظن بالله تعالى، وهو يأتي من خلال طريقين:

الأول: معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثاني: دوام ذكر نعم الله تعالى.

فبطبيعة الحال إذا كان الإنسان دائم الذكر لنعم الله تعالى عليه، ودائم التعرف على صفات الله تعالى العليا وأسمائه الحسنى فإن حسن الظن بالله تعالى هو النتيجة المؤكدة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: **"أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي"** رواه مسلم.

والمؤمن عندما يتعامل مع أقدار الله تعالى وهو يحسن الظن بربه، نجده عند الفتح بالمال والبنين يظن بربه ظن الحق، وأنه ابتلاه ليمتحنه أيشكر أم يكفر؟ كما قال سيدنا سليمان:

(... قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾) النمل.

وهذا الظن يجعله يُحسن استقبال ربه بالفتح والعطاءات، فيكون الله تعالى معه يوفقه ويحفظه ويعينه، ويجيب دعوته إذا دعاه.

وأما إذا أصابته شدةٌ فإحسانه الظن بالله تعالى يعينه على حسن استقبال البلاء وتجاوزه بنجاح؛ فهو على يقين أن ربه الرحيم الودود لا يريد به إلا الخير فيرضى بقضائه ويفهم الرسالة التي يحملها قدره، فيكون الله تعالى معه يوفقه ويحفظه ويعينه، ويجيب دعوته إذا دعاه.

وأما المسلم الذي لا يحيا بأسماء الله تعالى وصفاته، فإنه يصعب عليه أن يحسن الظن بالله تعالى، فنجده عند العطاء والفتح بالمال والبنين يظن بالله ظن الجاهلية، يظن أنه منحه وأعطاه؛ لأنه يميزه ويرفعه ويكرمه عن باقي خلقه، فينتج عن هذا الظن الخاطئ بالله تعالى أنه يعيث في ماله بالفساد وبما يحقق هواه، ويسيء استقبال أقدار الله تعالى، ويُعرض عن ربه ويرسب في الامتحان.

وأما إذا أصابته شدة فتجده ساخطًا متبرمًا غضوبًا حقودًا، إنه يعتقد أن الله تعالى يقصده بالتعذيب والشدائد، وأن حياته الكئيبة صنعها الله تعالى له، هذا الظن السيء يعني سوء استقبال أقدار الله تعالى، ويعني استمرار آلامه وعذاباته.

يقول تعالى: **(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾)** الاسراء

لذلك كان حسن الظن بالله تعالى من الأخلاق والصفات التي لا بد للمؤمن أن يعمل على اكتسابها؛ لأنها المعين الأساسي في حسن استقبال أقدار الله تعالى. كما قال سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه وهما في الغار، وقد قدر الله تعالى أن يصل الكفار إليهما بعد كل ما اتخذاه من احتياطيات وخطط سليمة، ولم يبق بينهم إلا أن ينظروا تحت أقدامهم فيروهما، في هذا الموقف المخيف ما الذي ثبت رسول الله وأعانه على حسن استقبال قدر الله تعالى، إنه حسن الظن بالله تعالى.

عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ وَأَنَا فِي الْغَارِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: **"مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا"** رواه البخاري.

سؤال لم تتم الإجابة عليه لأن إجابته معروفة، أنه إذا كان الله تعالى هو ثالثهما، فهذا يعني أن معهم التوفيق، والفلاح، والرحمة، والعناية، والحفظ، والقوة، والقدرة، واللطف، والإحاطة، والعلم، والحكمة وقد كان الأمر كذلك، فالله تعالى عند ظن عبده به.

ثانيًا: ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن عند وقوع أقدار الله تعالى

١) مراجعة الأسباب

خلق الله تعالى البشر وكرمهم بحرية الاختيار، يقول تعالى: **﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾** الإنسان.

خلق الله تعالى الإنسان من نطفة ليمتحنه، وأعطاه الأدوات التي تعينه على النجاح في الامتحانات، فجعله سميعًا يستطيع سماع الحق والباطل والتفرقة بينهما، وجعله بصيرًا يرى الحق والباطل ويستطيع التفرقة بينهم، لقد هداه سبحانه وأرسل رسله برسالاته وبما فيها من الهدى، وللإنسان أن يختار طريق الشكر، أي معرفة الله تعالى والإيمان به والعمل بما يحبه ويرضاه، أو يختار طريق الكفر أي الإعراض عن معرفة الله تعالى وعدم الإيمان به وعدم العمل بما يحبه ويرضاه.

وهكذا نرى بوضوح أن الإنسان مخير في كل حدث يستطيع أن يفعله أو لا يفعله، فهو مخير بين أن يصدق أو يكذب، بين أن يسرق أو يؤدي الأمانة، بين أن يظلم أو يعدل، بين أن يقول الكلمة الطيبة أو الكلمة القاسية، بين أن يتقن عمله أو يهمل فيه، بين أن يشكر من يحسن إليه أو يتكبر عليه، بين أن يعفو أو ينتقم، بين أن يختار ما يحبه الله تعالى أو ما يحبه هواه.... وهكذا.

وبناءً على سماح الله تعالى للإنسان بالاختيار، فإنه جعله مسئولاً عما يقع من أحداث تسبب فيها باختياره؛ فهو مختار بين أن يأخذ الأدوية التي تساعد على شفائه وبين ألا يأخذها. فإن اختار أن يأخذها، فقد سار في طريق الشفاء، وإن لم يأخذها؛ فهو مسؤول عن المضاعفات التي تنشأ من عدم أخذه الأدوية. وإن عانى من هذه المضاعفات فليس له أن يقول: قدر الله وما شاء فعل، بل عليه التوبة من تقصيره ومعالجة مرضه معالجة صحيحة.

وقد بين رب العالمين هذا المعنى في الآية الكريمة، يقول تعالى: **﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾** آل عمران.

لقد اندهش السادة الصحابة مما حدث لهم في معركة (أُحد) من قتلٍ لسبعين منهم، وهزيمة مؤلمة. وقالوا وهم متعجبون: كيف تصيبنا هذه المصيبة ونحن مسلمون ورسول الله عليه الصلاة والسلام فينا وهؤلاء مشركون؟ قل لهم أيها النبي: هذا الذي أصابكم هو من عند أنفسكم بسبب مخالفتكم أمْرَ رسولكم وإقبالكم على جمع الغنائم. **"قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ"** بين الله تعالى أن هناك سبب واضح لتلك الهزيمة في هذا الموقف؛ فبالرغم أنهم مسلمون وفيهم رسول الله فإن هذه الحيثيات لا تغني عنهم شيئًا إن لم يتبعوا الأسباب التي أمر الله تعالى باتباعها .فإقبالهم على جمع الغنائم فيه مخالفة دينية؛ لأنها معصية لرسول وفيها أيضًا خطأ مادي؛ حيث أنه سمح لجيش الأعداء بإعادة الهجوم على جنود المسلمين بعد أن انكشف ظهرهم، فحدثت الهزيمة المؤلمة، فكان عليهم أن يعترفوا بخطئهم ويتوبوا لله تعالى منها، ولا يتهاونوا بعد ذلك في اتخاذ الأسباب التي أمر الله تعالى باتخاذها مهما كان اعتقادهم في إيمانهم ومهما كانت تصوراتهم.

ويقول تعالى: **(فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾)** النساء المصيبة قد تصيب الإنسان بما قدمت يداه وبما فعل، ولا ينفعه في هذه الحالة أن يتحجج بأنه كان يريد الخير ويريد الإحسان . النوايا مهما كانت حسنة لا تقيم عملاً ولا تؤدي للنتيجة المرجوة إن لم تؤخذ الأسباب الخاصة بالهدف المنشود، وهكذا، فإنه عند وقوع القدر يجب أن ننتبه لما قد يكون منه ناتج عن اختياراتنا؛ لأن ما هو نتاج أفعالنا له مواجهة مختلفة عما هو قدرٌ من الله تعالى لا يد لنا فيه.

فتعرض السيارة مثلاً لحادث نتيجة عدم مراجعة الإطارات، يختلف عن تعرضها لحادث بالرغم من القيام بكل المراجعات المطلوبة وعمل اللازم لها..

في الحالة الأولى: صاحب السيارة مسؤول عن هذا الحادث، لذلك فإن حسن استقباله للقدر يكون من خلال أمرين:

١) اتخاذ الأسباب بالقيام بالإصلاحات اللازمة بالسيارة من أجل عدم تكرار هذا الحادث..

٢) الاستغفار والتوبة عن إهماله، ثم حسن الصبر على هذه الشدة حتى تزول.

أما في الحالة الثانية: إذا قام صاحب السيارة بكل المطلوب لجعل السيارة صالحة للسفر، فإذا حدثت حادثة لا قدر الله، فهو مسؤول فقط عن حسن استقبال قدر الله تعالى، فعليه بحسن الصبر ويحتسب عند الله تعالى ما حدث له ويصلحه ويرجو ثوابه.

لذلك فعند وقوع البلاء لابد للمؤمن من أن يرجع إلى نفسه محاسبًا وباحثًا عن أمرٍ قد يكون سببًا لهذا القدر بالشدة، فإلى جانب الأمور المادية التي يجب بحثها، هناك أمور معنوية، مثل أن يكون المؤمن قائمًا على معصية عامدًا أو غير عامد، والله يريد أن ينبهه إليها بهذا البلاء حتى يقلع عنها ويتوب ويستغفر، والمعصية قد تكون في النقص في العبادات الظاهرة كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج. وقد تكون في عبادات القلب كأن يكون بالقلب كبر، أو عجب، وغرور، أو حقد، وحسد وغيرة، أو كراهية أن يصيب إنسان خيرًا، أو شماتة حين يُصاب بمصيبة. وما إلى ذلك من أمراض القلوب التي لا ينتبه لها إلا القليل لصعوبة اكتشافها ولتحايل النفس على تبريرها. وكذلك كان إنسانٌ على سوء الخلق، فإن هذا السوء يجعل حياته مجموعة من المشاكل الدائمة والمؤلمة مع الناس من حوله، فليس عليه الصبر على هذه المشاكل واعتبارها بلاء، بل عليه معالجة السبب والعمل على تحسين أخلاقه في تعاملاته مع الناس.

إن ربط كل الأقدار بفعل الله وحده دون النظر في مسئولية المسلم عن بعض أحداثها لا يُصلح الحياة، بل يفسدها ويعطلها ويضيع عليه فرصة الاستفادة من أخطائه، فيظل يستغفر ويتوب وهو ما زال قائم على فعل السبب الأساسي لحدوث البلاء، فلا يُصرف عنه ولا يُرحم منه مهما استغفر وتاب.

ولنا في أصحاب الجنة أسوة حسنة، لما رأوا ما حدث في حديقتهم الغناء من تدمير كامل، لم يتوقفوا عند الألم وتقبل أقدار الله بالصبر والرضا، لكنهم عادوا لأنفسهم وراجعوا أسبابهم، فوجدوا أنهم كانوا على معصية في قرارهم بحرمان المساكين من ثمار الحديقة، فاعترفوا بذنبهم وتابوا لله تعالى، وتعاهدوا على إصلاح ما فسد .لو أنهم لم يراجعوا أنفسهم واكتفوا بالصبر والدعاء لما انتبهوا لمعصيتهم، ولما تاب الله عليهم ولأعادوها بعد ذلك، ولعاد عليهم العذاب. لكنهم قدموا خير نموذج لمن أخطأ، فنبهه الله تعالى بقدرٍ فيه شدة، فتنبه وراجع نفسه وأسبابه، فنجا وأفلح.

٢) عدم التحسر والندم

الحَسْرة: شدَّة التلهُّف والحزْن.. يا للحسرة: عبارة تقال تعبيرًا عن الحزن لمُصابٍ وقع، فالحسرة تدل على الألم الشديد نتيجة عدم سير الأحداث كما أراد الإنسان أو سيرها عكس ما أراد. وهو ألم يسكن القلب فيمرضه ويشيع في النفس الكآبة والحزن. لذلك فإن من الأمور التي يجب على المسلم أن ينتبه ألا يفعلها بعد وقوع الشدائد، عدم التحسر والندم على ما كان وما كان يمكن أن يكون لو لم يكن ما كان، وما كان يمكن تحاشيه لو لم يتم الأمر بهذه الصورة، وما كان يمكن أن يتم لو لم يحدث الأمر في هذا الوقت أو لو لم أقابل هذا الإنسان أو لو استعنت بهذا أو ذاك.

لماذا لا يتحسر المؤمن بعدما يتخذ أسبابه؟ ليقينه بأن المُقَدر هو الله تعالى العليم الحكيم أرحم الراحمين، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، فأي قدر يقدره الله تعالى يأتي بالخير عاجلاً أو آجلاً، وأن لصبره على ما حدث من أمر على عكس ما يريد، له فيه أجر ومثوبة، وأن الدنيا لا تستحق الحسرة على شيء فُقد منها، إنما هي وقت محدد قليل منتهٍ.

فمن الذين تسكن الحسرة قلوبهم؟ إنها تسكن قلوب من لا يؤمنون به ولا يعرفونه، يقول تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) ﴿١٥٦﴾** آل عمران.

تعني الآية: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، لا تُشابهوا الكافرين الذين لا يؤمنون بربهم، فهم يقولون لإخوانهم من أهل الكفر إذا خرجوا يبحثون في أرض الله عن معاشهم أو كانوا مع الغزاة المقاتلين فماتوا أو قُتِلوا: لو لم يخرج هؤلاء ولم يقاتلوا وأقاموا معنا ما ماتوا وما قُتلوا. هذا القول يزيدهم ألمًا وحزنًا وحسرة تستقر في قلوبهم.

أما المؤمنون فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله، فيهدي الله قلوبهم، ويخفف عنهم المصيبة، والله يحيي مَن قدَّر له الحياة -وإن كان مسافرًا أو غازيًا- ويميت مَنِ انتهى أجله -وإن كان مقيمًا- والله بكل ما تعملونه بصير، فيجازيكم به.

لذلك جعل رسول الله عليه الصلاة والسلام حقيقة الإيمان في التسليم بقدر الله تعالى دون حسرة أو ألم، عن أبي الدرداء، عن النبي قال: **(لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَما بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَما أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ)** مسند أحمد بن حنبل ـ صحيح لغيره. حقيقة الإيمان استقرار القلب على التسليم بأن كل الأحداث حلوها ومرها، هي أقدار الله تعالى التي قدرها لخير كل من يحسن استقبالها.

ولقد علمنا رسول الله عليه الصلاة والسلام كيف نواجه ما يحدث من أحداث يظهر لنا أن فيها ضرر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: **"الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ"** رواه مسلم.

لقد دعانا إلى اكتساب القوة في كل شيء في الصحة، والعلم، والمال، والمكانة، لأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، ثم أن نحرص على كل شيء ينفعنا، ينفع لديننا، ولعقلنا، ولجسدنا، ولعلاقاتنا، ولحياتنا، ونستعين بالله ونقدم على نراه محققًا لطموحنا ولا نقول أن هذا شيء نعجز عن الوصول إليه، ثم بعد الأخذ بكل هذه الأسباب، إن أصابنا شيء لا نحبه ولا نريده، فلا نتحسر ونندم ونردد مقولة :لو كنت فعلت كذا وكذا... ولكن نُثبت أنفسنا باسترجاع القاعدة الإيمانية التى تحمينا من الحسرة،"لَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ" لأن (لو) تفتح عمل الشيطان، فيتمكن من الإنسان فيحزنه ويزعزع إيمانه ويملأ قلبه حسرة وألمًا، والله تعالى يحب المؤمن القوي الذي لا يغلبه الشيطان.

٣) الشكر والصبر

أقدار الله تعالى تكون بالعطاءات والمنح، وتكون بالمنع والشدائد، وبعد وقوع هذه الأقدار نحن أمام موقفين: الشكر عند العطاء، والصبر عند المنع. وإذا كان الحديث يدور دائمًا على الصبر على الأقدار التي تأتي بالشدائد، فيجب ألا ننسى الشكر عندما تأتي الأقدار بالفتح والعطاءات والنعم.

والشُّكْرُ هو عِرْفانُ الإحسان ونَشْرُه، فالشكر لله تعالى يعني عرفان الإحسان الذي مَنَ الله تعالى به على الإنسان، وكيف يكون هذا العرفان بالإحسان من الله تعالى؟ يكون بالعمل الصالح، يقول تعالى، **{اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ }** ﴿ ١٣﴾ سبأ

فإذا قدر الله تعالى لعبده نعمة المال الوفير، فإن شكر هذا المال أن ينفق منه على الفقراء والمساكين، ويغيث الملهوف، ويجيب المضطر، ويسدد عن المديون، ويعالج المريض، وينفق منه على صلة الأرحام والمعارف والأصدقاء، ويكرم الضيف، ويقوم بواجباته بطيب نفس وسخاء، هذا هو شكر نعمة المال. وشكر نعمة الأولاد، يربيهم على العلم بدينهم ويحبب إليهم الإيمان، وشكر نعمة الزوجة يحسن إليها ويعاملها كأحسن ما تكون الأخلاق، وكذلك شكر نعمة الزوج. ونعمة الصحة يحافظ عليها وينفقها فيما يحبه الله تعالى ويرضاه .وشكر نعمة العلم يزداد علمًا ويُعلم من لا يعلم.... وهكذا.

هذا هو حسن استقبال بلاء وامتحان النعمة. فإن لم يشكر يكون قد كفر النعمة أي غطى عليها ولم يشكر ربه عليها بالعمل الصالح، وكما بينا من قبل، فإنه بذلك يكون قد أساء استقبال ابتلاء النعمة ورسب في الامتحان.

أما في حال الأقدار التي تأتي بالشدائد، فإن حسن استقبالها يكون بحسن الصبر عليها، وقد قيل أن الصبر هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، وقيل هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب..

وللصبر مكانة كبيرة في الإسلام، وأهمية عظمى في حياة المسلم، فهو طريق النجاح وجنى ثمرات الدنيا والآخرة، وفي مقام الابتلاء بالشدة أو بالنعمة، فإن الصبر عليه مدار النجاح أو الفشل، فالصبر على ألم المصيبة هو ركن أساس في حوز ثوابها، والصبر عن طغيان النعمة والوقوف عند حدود الله فيها هو ركن أسا سي في أن تكون طريقًا لرضاء الله تعالى عن العبد.

ويوصينا الله تعالى بالصبر فيقول: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)** ﴿٢٠٠﴾ آل عمران.. أي التزموا الصبر في أموركم كلها وأعينوا إخوانكم على الصبر واثبتوا على ذلك واتقوا الله تكونوا من المفلحين في الدنيا والآخرة.

والصبر يتناسب طردياً مع العلم؛ فكلما ازداد علم الإنسان زاد صبره، مثل الطفل الصغير مع طبيب الأسنان، والكبير عند نفس الطبيب. فالصغير عنده ضرر بأسنانه، ولا بد من العلاج حتى لا يستفحل الضرر ويكون له عواقب أشد إيلامًا، لكن عندما يبدأ الطبيب في العلاج، نجده يبكي ويرفض ويصيح؛ لأنه لا يعلم مدى خطورة مرضه وتبعاته، ولا يعلم أن ما يفعله الطبيب له فيه مصلحة كبيرة؛ لذلك فلا صبر عنده. أما الكبير الذي علم، فإنه يذهب للطبيب بسكون ويدفع من ماله لقاء العلاج، الذي فيه ألم ووجع، لكنه يتحمل بصبر لكي يُعالج ويُشفى ويتجنب ألمًا أكبر لو لم يصبر .الذي ساعده على الصبر هو العلم، والذي جعل الصغير يقاوم العلاج هو الجهل.

ويبين لنا الدكتور راتب النابلسي متى يصبر الإنسان فيقول: "متى يصبر الإنسان؟ من الذي يصبر؟ الذي يعرف الله عز وجل، أما الذي لا يعرف الله عز وجل لا يصبر؛ بل العكس يزمجر ويتكلم كلامًا سيئًا يسجل عليه، علامة معرفتك بالله صبرك على قضائه وقدره، وكل حسنة بعشر أمثالها، وكل شيء بحساب إلا أن الصابرين يقول تعالى فيهم: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ

آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ } الزمر

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: "مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، **وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**" رواه البخاري.

٤) التضرع والإستكانة والدعاء

علمنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن المؤمن عند الشدائد عليه أن يكثر من الدعاء متضرعًا مستكينًا خاشعًا سائلاً ربه أن يعفو عنه وأن يرفع عنه البلاء كما فعل رسول الله بعد غزوة أُحد، ففي هذه الغزوة لاقى النبي والمؤمنون الكثير من الآلام والمصائب وفاقت خسائرهم كل توقعاتهم، ففقدوا سبعين من السادة الصحابة الكرام وعلى رأسهم سيدنا حمزة رضي الله عنه عم الرسول وأخوه في الرضاعة وكان يحبه حبًا كبيرًا، ولقد رمى أحد المشركين حجرًا نحو الرسول عليه الصلاة والسلام فكسرت عصاه، كما أنه وقع في حفرة فشُجت رأسه الشريف .مع كل هذه البلاءات، سنرى كيف كان استقباله لهذه الأحداث المؤلمة؟

عَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: **"اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي"**، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا فَقَالَ: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلا هَادِيَ لِمَنْ أَضْلَلْتَ، وَلا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ، وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللَّهُمَّ عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا، وَشَرِّ مَا مَنَعْتَنَا، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ، وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِهَ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، غَيْرَ خَزَايَا، وَلا مَفْتُونِينَ.." (المستدرك على الصحيحين، صحيح لغيره).

استقبل رسول الله عليه الصلاة والسلام قدر ربه بالصلاة والثناء عليه، إن الثناء يعني ذكر صفات الله تعالى العليا، وأسمائه الحسنى التي تعين المؤمن على تقبل الأحداث، وتذكره بمن بيده الأمر كله، فيلجأ إليه ويتضرع له، ويدعوه بما يريد من أمر الدنيا والآخرة، ففي ذلك تفويض كامل لله تعالى بالمُلك وتوحيده، وهو دعاء فيه تذكره بأن الأمر المهم في حياة المؤمن هو الآخرة، فهي الجائزة الحقيقية وهي التي لها يعمل.

استقبل رسول الله عليه الصلاة والسلام قدر ربه بعد وقوعه، بالالتجاء إليه والتضرع والدعاء له، ولنا فيه أسوة حسنة.

الباب الرابع

متى يكون الابتلاء نعمة
ومتى يكون نقمة؟

هل الابتلاء نعمة أم نقمة؟

هناك سؤالٌ دائم نسأله في حال الابتلاء وهو: كيف أعرف إذا كان الابتلاء نعمة من الله تعالى؟ أم غضبًا منه؟ هل قَدْر الله تعالى بالمرض، أو الفقر، أو الحرمان.. لأنه يريد أن يرفع درجاتي؟ أم لأنه يعاقبني؟

إن الإجابة على هذا السؤال تكون بعد التحليل التالي:

إن أقدار الله تعالى لها ثلاث جوانب:

الأول: الإنسان الذي يستقبل هذا القدر.

الثاني: القدر أو الحدث نفسه الذي يُنزله الله تعالى.

الثالث: صورة استقبال القدر ونتيجة هذا الاستقبال.

للتقريب سنضرب المثل التالي:

امتحانات المدارس تشمل: التلميذ وورقة الامتحان ونتيجة الامتحان، والامتحان يوزع على كل الطلبة بلا أي استثناءات، وبلا اختيارات، فلا يختار طالب أن يمتحن من خلال أن يُطرح عليه السؤال الفلاني فقط ولا يريد السؤال العلاني، بل هو لا بد أن يكون جاهزًا -من خلال مذاكرة المنهج كله- لأي سؤال. ثم ما هو الهدف من هذا الامتحان؟ إنه لترتيب مكانة كل طالب حسب درجاته التي يُحصلها من خلال إجاباته، ومعرفة من سيجيب أحسن إجابة فيحصل على أعلى درجة، ومن سوف يرسب لفشله في مذاكرة المنهج وبالتالي فشله في الإجابة.

هكذا تمامًا لا بد أن ننظر لما يُنزله الله تعالى من أقدار، إنها مكونة من الإنسان الذي يستقبل القدر، وورقة الامتحان أي القدر أو الحدث كالصحة والمرض، والغنى والفقر.. ثم النتيجة التي تبين الناجح من الفاشل، تلك النتيجة التي يكتبها بيده وتترتب عليها مكانته ومعاملة الله تعالى له.

وسنفصل ذلك في التحليل التالي:

الجانب الأول: الإنسان الذي يستقبل هذا القدر.

هو العبد الذي يقع عليه الابتلاء، وهذا العبد هو كل عباد الله تعالى في الأرض كل الأرض لا استثناءات، ولا محاباة، ولا ابتلاء لأحدٍ دون أحد، ولا لشعبٍ دون شعب، ولا لجنسٍ دون جنس، ولا علاقة للابتلاء بالإيمان والكفر الكل يُبتلى والكل يُمتحن.

الجانب الثاني: القدر أو الحدث الذي ينزله الله تعالى.

القدر الذي يُنزله الله على العبد، كالغنى والفقر، والصحة والمرض.. هذا القَدَر هو ورقة الأسئلة، وتتميز هذه الورقة أنها من الله تعالى، المطلع على المنهج الذي بعثه كله، والمطلع على مستوى كل إنسان، والمطلع على ما يُصلح كل إنسان، وأن هذه الورقة وهذا الامتحان يأتي لكل إنسان بصورة شخصية، وأنه يأتيه بصورة غير متوقعة، فلا أحد يعرف كيف سيمتحنه الله تعالى ولا متى ولا في أي مادة.

هذه الورقة إلى الآن حيادية، أي لا تدل على أن للإنسان مكانة متميزة، أو مكانة متدنية، والعجيب في الأمر أن الكثير من الناس يعتبرون هذه الورقة تدل على النتيجة!

يقول تعالى: **(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا...)** الفجر.

الكثير من الناس يعتقدون أن القدر هو النتيجة، فمن أعطاه الله وقدر له ورقة امتحان الغنى؛ فقد أكرمه لأنه راض عنه، ومن منعه أو أخذ منه أو قدر له ورقة امتحان قلة الرزق؛ فقد أهانه لأنه غير راض عنه، وفي هذا الحكم بعد كامل عن ميزان الله تعالى في تقدير من الذي أكرمه ومن الذي أهانه.

يقول سبحانه (كَلَّاَ) ينفى ربنا هذا الميزان وهذا الحكم، فالعطاء والمنع ليس بنعمة أو نقمة، وليسا بدليل على محبة الله أو غضبه، إنما هما ورقة الأسئلة التي توزع على الطلبة كلٌ حسب سنه ومرحلته، ولا اختيار لأحد في نوعية السؤال الذي سيأتيه، والنجاح والرسوب يتوقف على الإجابة التي سوف يخطها الطالب بيده.

فلو أن طالبًا صاح فرحًا بمجرد أن تسلم ورقة الامتحان؛ لأنه اعتقد أن استلامها يعني أنه قد نجح، وأنه متميز ومحظوظ وأن الأستاذ يحبه، فلم يعبأ بأن يكتب الإجابة السليمة، وأمضى وقت الامتحان في الفرح واللهو، حتى انتهى وقته. أو آخر بمجرد أن تسلم ورقة الأسئلة صرخ شاكيًا متذمرًا؛ لأنه اعتقد أن استلام ورقة الأسئلة يعني أن الأستاذ يبغضه ويعاقبه، فلم يستطع أن يكتب الإجابة الصحيحة، وأمضى وقت الامتحان في التذمر حتى انتهى وقته.

هؤلاء قد فشلوا في الامتحان، لو رأيناهم في لجنة الامتحانات يتصرفون بهذه الصورة سنعتقد أنهم حمقى. لكن من الذي اجتاز الامتحان بنجاح، من عَلِمَ أن عنده امتحان واستعد له بالعلم الصحيح، ثم صب تركيزه كله على كتابة الإجابة السليمة، ولم يعتبر ورقه الأسئلة تدل على شيء أكثر من أنها مجرد ورقة أسئلة.

يبين هذا المثل بوضوح أن نجاح الإنسان أو فشله في الامتحانات والأقدار التي يواجهها في الحياة، إنما تتوقف على إجابته على الأسئلة وهي بدورها تتوقف على سابق المذاكرة والاستعداد، فلا ابتلاء الغنى، أو الصحة، أو الجمال، أو الذكاء، أو الزواج، أو الأولاد، أو أي من عطاءات الدنيا يعني أن الله تعالى راض عن هذا العبد، ولا ابتلاء الفقر، أو المرض، أو قلة الجمال، أو تواضع المستوى الاجتماعي، أو عدم الزواج، أو عدم الخلفة، أو أي حرمان أو نقص من عطاءات الدنيا، يعني أن الله تعالى ساخط على هذا العبد.

إن العطاء والمنع هما مجرد ورقة الأسئلة، ورضا الله تعالى وسخطه إنما هو نتيجة إجابتك على هذه الامتحانات.

الجانب الثالث: صورة استقبال القدر ونتيجة هذا الاستقبال.

ما الهدف من أن يُغني الله تعالى هذا الفاسد ويُقدر الرزق على هذا العابد؟ ما الهدف من أن يتعرض هذا لحادث وينجو منه آخر؟ لماذا رزق هذا هذه الصحة؟ وأصاب الآخر بهذا المرض؟

إن الهدف من أقدار الله تعالى بالصحة والمرض، والغنى والفقر.. **(.. لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا..)** ليختبركم فيظهر من الأحسن استقبالاً لهذه الأقدار. هذا الاستقبال هو الذي يحدد هل الابتلاء الذي أصاب الإنسان نعمة أم نقمة؟، عقوبة أم تكفير ذنوب ورفع درجات؟

فهو نعمة إن نبهه لمعصية كان يرتكبها فتاب عنها. ونعمة إن أعانه على زيادة البر والتقوى. ونعمة إن أحسن الصبر عليه فرفع درجاته. ونعمة إن هداه لمعرفة صفة من صفات الله تعالى واسم من أسمائه.

وهو نقمة إن أدى به إلى التكبر عن التوبة من معصية قائم عليها .وهو نقمة إن استدرجه إلى زيادة البعد عن الله تعالى. وهو نقمة إن سخط وغضب وشك في عدل الله تعالى ورحمته..

وهكذا..

هذا الاستقبال هو الإجابة التي يكتبها الإنسان بيديه وبأفعاله وأقواله ونواياه.

هذه هي الإجابة التي يأخذ عليها الدرجة.

هذه هي الإجابة التي تحدد إن كان هذا الابتلاء بالغنى أو الفقر، والصحة والمرض، نعمة أم نقمة..

إن المسلم إذا أصابه الغنى، وامتلك العقارات، والسيارات، والفائض في البنوك فتواضع لله تعالى، وأنفق يمينًا شمالاً فإنه يكون من الناجحين في هذا الامتحان كما وصفهم رسول الله عليه الصلاة والسلام.. عنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِي وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَلَمَّا رَآنِي، قَالَ: **"هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ"**، قَالَ: فَجِئْتُ حَتَّى جَلَسْتُ فَلَمْ أَتَقَارَّ أَنْ قُمْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، مَنْ هُمْ؟، قَالَ: **"هُمُ الْأَكْثَرُونَ أَمْوَالًا، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ..."** رواه مسلم.

يشرح لنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ابتلاء الغنى إنه يبدأ الحديث بأنهم خاسرون (سقطوا في الاختبار) ويقسم على ذلك! فيسأله سيدنا أبو ذر من هم؟ فيقول: هم الأكثرون أموالاً. إلا من نجح في هذا القدر وهذا الامتحان، فأنفق في كل أوجه الخير يمينًا وشمالاً، ومن أمامه ومن خلفه، في كل الأوجه وفي كل الأوقات.

هذا هو ابتلاء المال الكثير، هو ورقة الأسئلة، هل هو حب من الله؟ أم بغض؟ هذا السؤال إجابته عند صاحب المال؛ إن اتقى الله تعالى في كسبه وإنفاقه، فقد نجح في امتحان الغنى ورفعه هذا النجاح درجات عند ربه. وقليل من ينجح في هذا الامتحان.

وإن جمع المال من حلال وحرام، وأنفقه في حلال وحرام، وبخل في الإنفاق في سبيل الله فقد رسب في امتحان الغنى وهبط دركات في النار.

وهكذا البلاءات بالشدائد الدنيوية كالمرض المؤلم، أو فقد الأحباء، أو فقد المال، وما إلى ذلك، يكون نعمة كبرى على العبد إذا أحسن استقباله فرضى وصبر وأحسن الظن بالله تعالى، ومهما كان حاله قبل البلاء، سواء كان على معصية أو طاعة، فالبلاء بالشدة إذا أعاد الإنسان إلى ربه فهو نعمة، إذا زاده قربًا لله تعالى فهو نعمة .أما إذا استقبل العبد بلاءات الشدائد بالشكوى والسخط وسوء الظن بالله تعالى فهو نقمة عليه، سواء كان قبل البلاء على معصية أو طاعة.

هذه هي الرؤية الصحيحة لأقدار الله تعالى. أيًا كان حجمها ومدتها وتأثيرها، هي مجرد امتحان، ينجح فيه المؤمن الذي علم ذلك، وتعلم العلم الذي يعينه على النجاح في البلاءات المختلفة والكثيرة والدائمة.

الباب الخامس

الفوائد الخمس لتعلم وفهم أقدار الله تعالى

أولاً: إحسان العبادة لله رب العالمين
ثانيًا: طهارة القلب
ثالثًا: الرؤية السليمة لأحداث الحياة
رابعًا: تدرأ عن المسلم سوء الظن بالله تعالى
خامسًا: العلم بأن أقدار الله امتحانات لا بد لها من استعداد

علمنا فيما سبق من فصول الكتاب بعضًا من حكمة الله تعالى من أقداره، فكيف سنستفيد من هذه المعرفة في ديننا ودنيانا ؟ إن إجابة هذا السؤال في هذا الفصل؛ حيث إن علم المسلم بحكمة ربه جل وعلا فيما يسوقه له من ابتلاءات بالنعمة والشدة، يمثل الركيزة الأساسية لفهم ما يحدث للإنسان في الحياة الدنيا، ويهيئه لمعرفة كيفية التعامل مع الأحداث والأقدار، ويعينه على اتخاذ الموقف الملائم لها، ويدرأ عن المسلم الشبهات التي تحول بينه وبين حسن الظن بالله والفهم عنه، ومن ثَم عبادته.

الفوائد الخمس من تعلم وفهم أقدار الله تعالى

أولاً: إحسان العبادة لله رب العالمين

يسعى المسلم دائمًا إلى الترقي في عبادة ربه، يريد زيادة اتصاله بالله تعالى، يريد تحقيق العبودية التي خلقه الله تعالى من أجلها، يقول تعالى: **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)** ﴿٥٦﴾ الذاريات. فالهدف من خلق الله تعالى للإنس والجن أن يعبدوه ويسعدوا بمعرفته وعبادته، والعبادة تقوم على الإيمان .والإيمان لن يكون يقينًا راسخًا لا يهتز ولا يرتاب إلا إذا قام على قاعدة من الفهم والعلم بحكمة الله تعالى في أقداره، تلك التي تبدو للإنسان خيرًا أو شرًا؛ فالمسلم الذي يصلي، ويصوم، ويتصدق، ويعتمر، ويحج ولكن في قلبه شعورٌ خفي بالشك في عدالة الله تعالى، أو الشك في حكمته أو الاستنكار لبعض أقداره. فإن ما في قلبه يمثل حاجزًا بينه وبين الشعور بحسن الاتصال بالله تعالى والرضا عنه والطمأنينة معه، والذي يُصلح القلب ويُصلح الإيمان فتصلح معه العبادة، أن يعرف حكمة الله تعالى من أقداره وابتلاءاته التي أخبرنا بها في كتابه الكريم، ليعرف ما حكمته في ابتلاء المرض، وما حكمته في ابتلاء الغنى، وما حكمته في ابتلاء الأولاد، وما حكمته في ابتلاء الخوف والجوع، وما حكمته في ابتلاء الترف..

ولتبيان العلاقة بين صحة العقيدة والإيمان، وحسن العبادة، نذكر الحديث الشريف.

فى حديث جبريل عليه السلام عندما سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام قالَ:.. **فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ...."**

رواه مسلم.

لما طلب رسول الله عليه الصلاة والسلام من سيدنا جبريل عليه السلام أن يُعرف له الإيمان، بمعنى أن يضع له معايير وعلامات يعرف المسلم من خلالها مدى إيمانه، عَرف له الإيمان بأنه التصديق بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم والآخر، هذا التصديق ليس باللسان وحده، بل هو بالأفعال التي تصدق اللسان، ثم زاد **وتؤمن بالقدر خيره وشره**، وهذا الإيمان أيضًا له أفعال تصدق اللسان أو تكذبه .فكيف يساعدنا فهم الأقدار على تحقيق هذا العنصر الهام من عناصر الإيمان؟ إن الإيمان يعني التصديق بالقول والفعل، والإيمان بالقدر خيره وشره يعني أن أصدق قولاً وفعلاً أن الأقدار من عند الله تعالى، وليست صدفة وليست عبثًا أو بلا هدف، بل هي من عليم حكيم رحيم لها هدف واضح، وهي تتطلب مني استقبالاً سليمًا، فإذا أيقنت بذلك فإن هذا اليقين يظهر في أسلوب تفاعلي مع هذه الأقدار.

أولا: "تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ **خَيْرِهِ**" أي تصدق أن الأقدار الخيرة هي من عند الله تعالى، فإذا صدقت أنها من عند الله تعالى، وقد علمت وأيقنت من قبل أن لله تعالى فيها حكمة وله فيها هدف، وهذه الحكمة هي الاختبار والامتحان والابتلاء .هذا العلم يترتب عليه أن استقبال أقدار الخير يجب أن يكون كما يحب ربنا ويرضى، فمثلاً المؤمن بأن المال من قدر الله تعالى وامتحاناته، لا يستخدمه في ظلم الناس، ولا يتكبر به، بل يتواضع ويستخدمه فيما يرضي ربه، وكذلك يكون استقباله لكل ما يعتقده من

الخيرات كالصحة، والجمال، والأبناء، والوظيفة، والجاه. ومع كل استقبالٍ سليم وصحيحٍ لأقدار الله تعالى الخيرة يزداد إيمان المسلم وترتفع درجاته.

أما من لا يؤمن بالأقدار الخيرية، أي لا يؤمن أنها من عند الله تعالى، وأنها امتحان واختبار فسوف يتعامل معها بهواه، ويعتقد أنها منحة من الله؛ لأنه يحبه ويميزه وليس وراءها حساب، أو أنها نتيجة عمله وجهده فقط؛ لذلك فليس لله أن يأمره كيف يتصرف فيها، لم يعلم ولم يفهم حكمة الله تعالى من أقداره؛ لذلك فإنه لا يهتم بأن يستخدمها بما يحب ربه ويرضى فيلهو ويتحرك فيها على هواه، فتكون هذه هي الاستجابة السيئة لأقدار الله تعالى، ومع توالي الاستجابات السيئة لأقدار الله تعالى الخيرة، يتوالى فشله في الامتحانات، ويتوالى بُعده عن الإيمان.

ثانيًا: "وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ **وَشَرِّهِ** "تؤمن بالقدر الذي تراه شرًا، أي تصدق أن ما تظنه شرًا هو من عند الله تعالى، فإذا ما صدقت أنه من عند الله فإن سابق فهمك لحقيقة أقدار الله تعالى وحقيقة أسمائه وصفاته الحسنى، وأنه سبحانه له حكمة بالغة في كل قدر يُقدره، يحولها لمجرد ورقة الأسئلة التي يجب أن أهتم بحسن الإجابة عليها .فالإيمان بالقدر الذي اعتقده شرًا، يعني النجاح في استقبالي قدر الله تعالى، يعنى حسن الصبر فيما يحتاج الصبر، ومراجعة الأسباب فيما يحتاج مراجعة الأسباب، والتوبة فيما يحتاج التوبة، وهكذا.. ومع كل نجاح يزداد الإيمان وترتفع درجاته.

أما الصورة الأخرى للمسلم الذي لم يفهم أقدار ربه، ولم تستقر في قلبه صفات الله تعالى فإنه عند القدر الذي يراه شرًا لا يؤمن به، أي يسخط ويتذمر ويعيش في أجواء من الحزن المستمر؛ فهو لا يعلم بأن لله تعالى حكمة بالغة من كل أقداره، ولا يؤمن بذلك بل يعتقد أن الأقدار عبثية، أو أن الدنيا تعانده وأنها غير عادلة وما إلى ذلك. هذا الجهل يجعله يسيء استقبال أقدار الله تعالى، فينقص إيمانه أو يذهب مع تكرار أقدار الله تعالى التي يظنها شرًا، وتكرار استجابته السيئة لها.

فالإيمان بالقدر خيره وشره صورته التعامل مع القدر خيره وشره تبعًا لمراد الله تعالى، ولن يتمكن من ذلك إلا من تعلم حكمة الله تعالى من أقداره وبلاءاته.

ثانيًا: طهارة القلب

إن من أهم أسباب معرفة حكمة الابتلاءات أنها تؤدي إلى طهارة القلب، إن القلب الذي لا يعرف حكمة الله تعالى من الخلق وحكمته في الابتلاءات، لا بد وأن يمتلئ همًا وغمًا مع كل فقدٍ لشيءٍ يريده أو منعٍ عن أمر يبتغيه، ويمتلئ غيظًا وغيرةً مع كل عطاء للآخرين الذين لا يستحقون بينما هو الذي يستحق، ويمتلئ حقدًا وحسدًا مع كل نعمة تصيب الآخرين ولا تصيبه، ويمتلئ كراهية وحنقًا على من ظلمه ومنعه.

هذا هو قلب من لا يعلم ولم يتعلم حكمة الله تعالى في بلاءاته وأقداره، أما من علم وأيقن بحكمة الله تعالى وسنته في الخلق فإنه يَسلم من كل هذا، فهو قد علم واتضحت له الرؤية كاملة، ويستطيع الإجابة على كل التساؤلات التي ترد لذهنه، والتي تمثل لمن لم يعلم تساؤلات لا إجابة لها تثير في نفسه اللوعة والأسى.

إن معرفة أن سنة الله تعالى في خلقه البلاء والامتحان، وأن كل عطاء أو منع للإنسان أو للآخرين إنما هو فقط ورقة الامتحان، لا يدل على كرامة ولا على إهانة، إنما الكرامة والإهانة هي التي يكتبها الإنسان بتصرفاته وأقواله عند استقبال البلاء، إن هذه المعرفة تصرف عن قلبه الأمراض التي تفسده وتهلكه، وترحمه من أن يُستهلك في الغل والحقد على الآخرين، وتوجهه الوجهة السليمة ألا وهي حسن استقبال النعمة أو الشدة؛ حتى يجتاز الامتحان بنجاح ويكون من الفائزين ذوي القلب السليم.

يقول تعالى: { وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾} الشعراء

ثالثًا: الرؤية السليمة لأحداث الحياة

تكمن أهمية معرفة حكمة الابتلاءات في أنها تمثل التعرف على الركيزة الأساسية للحياة الدنيا، هذه المعرفة تزيح الظلمة عن عين المسلم وتحفظه من التخبط والألم، وتعينه على اتخاذ المواقف السليمة عند الأحداث المختلفة.

يقول تعالى: **{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} ﴿٧﴾** الكهف جعل الله تعالى كل ما على الأرض من أراضي، ومزارع، وغابات، وأنعام، ومساكن، وعقارات، وسيارات، وأثاثاً، وملابس، وأنواع الطعام، وجعل فيها كلها جمال وزينة؛ ليختبر الناس من الأحسن عملاً، مَن المؤمن الذي سوف يقف عند حدود الله تعالى في استخدام هذه الزينة، من الذي سوف يؤدي حق الله ويتقيه، ومن الذي سوف يطغى ويتكبر بهذه الزينة، إن هذه الرؤية السليمة الصحيحة لكل ما على الأرض من زينة، تحفظ المسلم من الإحباط عندما يرى للعاصي من المتع الدنيوية ما ليس له، فهو يعلم أن ما فيه الغني ما هو إلا امتحان، قد ينجح فيه وقد يفشل، هذه المعرفة تعينه على اتخاذ الموقف السليم، فلا يكون من الذين قيل فيهم (مَنْ تَضَعْضَعَ لِغَنِيٍّ لِيَنَالَ مِنْ دُنْيَاهُ أَحْبَطَ اللَّهُ ثُلُثَيْ عَمَلِهِ) أي من تذلل وتصاغر أمام غنى لغناه، أحبط الله ثلثي عمله، لبشاعة ما فعله من التذلل لغير الله تعالى، ولأن هذا التذلل يعنى أنه فهم قدر الله تعالى لهذا الغنى أنه بذلك قد أعزه ورفعه، وأن بيده أن يرفعه أيضاً ويعزه، وهذا فهم خاطئ تماماً، بل وسيئ في حق رب العالمين.

إن المؤمن الذي لديه رؤية واضحة، لا يشعر بالذل والمهانة أمام الغني، ولا بالانبهار الممزوج بالسخط على حاله، بل يشعر بالعزة والكرامة لإيمانه بالله تعالى وثقته به وتوكله عليه، ولا يسارع في السعى إلى الغَني وابتغاء المصلحة عنده، بل يسارع في ابتغاء رضوان ربه، بيقين أن المؤمن هو الفائز على وجه الحقيقة، وأن العاصي والكافر هو الخاسر مهما امتلك من زينة الأرض، كذلك لا يحتقر الفقير لفقره، لعلمه أن فقر الفقير إنما هو امتحان، إن نجح فيه هذا الفقير، فهو الأفضل والأرقى مكانة عند الله تعالى.

رابعًا: أن معرفة حكمة الابتلاءات تدرأ عن المسلم سوء الظن بالله تعالى

إن مما يحجب المسلم عن عبادة الله ومحبته وحسن الظن به حجابان هما {الشهوات والشبهات}، فأما حجاب الشهوات فهو اتباع النفس لرغباتها وإقدامها على ارتكاب المعاصي والتفلت من شرع الله تعالى، وتسلط هذه الشهوات على النفس يضع حاجزًا بين المسلم وبين سماعه للحق وعبادته لله ومحبته له، فهو يظن أن عبادته لله سوف تُنقص من استمتاعه بالشهوات وهو لا يريد هذا النقص.

أما حجاب الشبهات -الذي نحن بصدده- فهو حجابٌ ينشأ من الجهل بصفات الله تعالى وبما جاء في الكتاب والسنة، إن المسلم الذي لم يوقن بصفات الله تعالى وحكمته ورحمته ووده وقربه، يفشل في تفسير كثير من الأقدار المحيطة به، وعدم القدرة على الفهم أو الفهم المغلوط يمثلان حاجزًا بين العبد وربه، وبين العبد والحياة الطيبة التي وعدها إياه رب العالمين.

وإن من الشبهات التي ترد على قلوب كثير من المسلمين وتُحجزهم عن عبادة الله وتُحجزهم عن محبته وحسن الظن به، عدم معرفتهم بحكمته تعالى في الابتلاءات التي تصيبهم، حيث يتشككون في رحمة الله وحكمته وعدله ويظنون بالله ظن السوء،

فتأتي عباداتهم بلا روح ولا محبة، ولا يشعرون بحلاوة الفهم عن الله والقرب منه؛ لذلك فإن أهمية دراسة حكمة الابتلاءات تكمن في أنها تزيل قدرًا كبيرًا من الشبهات من قلوب المسلمين، فتصفو وتستنير بنور العلم وتعبد ربها بفهم وحب وثقة ويقين.

خامسًا: العلم بأن أقدار الله امتحانات لا بد لها من استعداد

إذا تيقنا أن البلاء بالخير والشر هو سنة الله تعالى في الأرض، وأن هذا واقع على كل البشر، وأنه قائم ومستمر باستمرار الحياة، فلا بد من الاستعداد له كاستعداد الطالب للامتحان، فالطالب العاقل المتفهم لحقيقة الأمر، سوف يستعد للامتحان بدراسة المنهج، والتدريب عليه، ومراقبة مستواه من خلال الامتحانات الشهرية، فيُحسن نفسه فيما نقص فيه، ويسعى دائماً للتحسن والترقي. أما الطالب المتفلت المتجاهل لحقيقة الأمر، الذي يدعي لنفسه أنه قادر على النجاح بدون مذاكرة وتعب، هذا طبعاً لن يهتم بالاستعداد ولا بالمذاكرة، وحتى لما يسقط في الامتحانات الشهرية، فإنه يقنع نفسه أن السقوط ليس بسبب منه، بل إن المصحح مستقصده ومتعمد أن يسقطه.

هكذا بالضبط امتحانات الدنيا وأقدار الله تعالى، من يصدق أنه في امتحان فإنه يكون على استعداد دائم بدراسة منهج الله تعالى من قرآنه وسنة نبيه، ويراقب نفسه عند الامتحانات اليومية والأسبوعية والشهرية، ويصدق مع نفسه، ويسعى دائماً للنجاح والترقي. أما من يتناسى قانون الله تعالى في أرضه، وأنه موجود فيها للامتحان والاختبار، فإنه لا يهتم بالاستعداد والمذاكرة والتدريب، ويعتقد أنه أذكى من هؤلاء الذين يضيعون وقتهم في الدراسة والمذاكرة، لأنه عارف كل حاجة ومش محتاج يعرف حاجة، هذا يُمتحن ويفشل نتيجة جهله وتهاونه وغفلته.

لذلك لا بد من الاستعداد بمدارسة القرآن الكريم -وهو غير الحفظ والتجويد- والتعلم المنهجي المنظم لكل ما جاء بالكتاب والسنة المطهرة لأن الله تعالى أرسل لنا بهما كل القضايا والأمور التي تعين المسلم على فهم أقداره، وهذا الاستعداد يعينه على توالي نجاحاته في الامتحانات المقدرة له.

وكذلك من أساليب الاستعداد للامتحانات مراقبة النفس وحسابها عند ردود الأفعال على الأحداث اليومية التي تحمل له ما يراه خيرًا أو شرًا، فإذا كان المسلم يريد أن يستعد للامتحانات الكبرى وينجح فيها، فلا بد أن يراقب نفسه في الامتحانات الصغرى اليومية، فمثلاً إذا جاءه مال أو طعام بكمية فائضة عن حاجته هل يشكر الله تعالى فينفق منه، أم يبخل به ويكتنزه؟ ما فعله عند هذا الامتحان الصغير هو هو ما سوف يفعل عند الامتحان الكبير عندما يغنيه الله تعالى من فضله، فإذا كان المسلم متيقظًا مريدًا للنجاح، فإنه عندما يلحظ من نفسه صفة لا يرضاه الله تعالى يسارع بالتوبة والإصلاح، ويداوم على الإنفاق حتى من القليل وذلك حتى يتمكن من الإنفاق حين يغنيه الله تعالى ويرزقه رزقًا واسعًا.

وكذلك يراقب نفسه عندما يأتيه قدر بالشدة، كأن يحدث أمرٌ لا يُمَكنه من الذهاب لمشوار ضروري يريده، أو قضاء مصلحة كان من الضروري أداءها، أو عدم حضور شخص كان لا بد من حضوره وهكذا. هل يعلم أن ما حدث لم يخرج عن إرادة الله وأن إرادة الله كلها خير فيهدأ ويرضى ويحتسب، أم سوف يغلي ويتهم كل من حوله بأنهم السبب في عدم قدرته على الذهاب لما يريد، وتكون له الكلمات القاسية والتعليقات السيئة؟ هذا هو هو ما سوف يفعله عندما يأتيه الامتحان الكبير بالشدة، فإن كان مريدًا للنجاح منتبهًا لما يفعل فإنه يراجع نفسه، فإن رأى رسوبه في هذا الامتحان الصغير، فلا بد أن يسارع بالتوبة والإصلاح، ويدرب نفسه على الانضباط والرضا عندما يحدث ما لا يريد من الأمور الصغيرة حتى يستطيع الانضباط والرضا عندما تحدث الشدائد الكبيرة.

هذه هي فوائد فهم أقدار الله تعالى؛ إنها تعيننا على الإحسان في عباداتنا لله تعالى، وتطهر قلوبنا من الغل، والحقد، والحسد، والغضب، وتنير أبصارنا لنرى حقيقة أحداث الحياة، وتدرأ عنا سوء الظن بالله تعالى، ثم إنها تنبهنا لأمرٍ مهم جدًا وهو الاستعداد بالعلم والتدريب والمراقبة للامتحانات التي لا بد أن نمر بها.

الباب السادس

شرحٌ لآيات تخص الأقدار والابتلاءات

المجموعة الأولى من الآيات:

الآية الأولى، يقول تعالى: (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ **وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ** فَمَالِ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾) النساء

نجد المعنى العام لهذه الآية الكريمة بمعظم التفاسير كالآتي:

(أينما تكونوا يلحقكم الموت في أي مكان كنتم فيه عند حلول آجالكم، ولو كنتم في حصون منيعة بعيدة عن ساحة المعارك والقتال. وإن يحصل لهم ما يسرُّهم من متاع هذه الحياة، ينسبوا حصوله إلى الله تعالى، وإن وقع عليهم ما يكرهونه ينسبوه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام جهالة وتشاؤمًا، وما علموا أن ذلك كله من عند الله وحده، بقضائه وقدره، فما بالهم لا يقاربون فَهْمَ أيّ حديث تحدثهم به؟)

نجد هنا أن سياق الآيات تتحدث عن فرض الله تعالى القتال على المسلمين للدفاع عن أنفسهم ودينهم، ففى الآية التى قبلها مباشرة يقول تعالى: (..فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً..) أي أن الحديث هنا عن القتال، ورب العالمين يذكرهم بقانونه الذي لا يتغير في الحياة والموت، أن الموت الذى تحاولون الهرب منه بالهرب من فريضة القتال في سبيله، لن ينجيكم ولن يؤخر ميعاد وفاتكم، فأينما تكونوا ولو كنتم محصنين، سيأتيكم الموت المكتوب عليكم فى وقتكم المعلوم عند الله تعالى، لذلك فإن قولهم (..وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِندِكَ..) فإن الحسنة هنا تعنى الحياة، والسيئة تعنى الموت. فإن نجوا وعاشوا، فهى الحسنة التى من الله تعالى، وإن مات منهم، فيصف الحي موت صاحبه بأنها السيئة التى تسبب فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام بدعوته لهم للقتال.

(..قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) الحياة والموت من عند الله تعالى، لا يملكها مخلوق، لكن هؤلاء الذين يعتقدون هذه الاعتقادات الخاطئة لا يعرفون حقيقة الأمور.

الآية الثانية: مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ و أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ النساء

نجد المعنى العام لهذه الآية الكريمة بمعظم التفاسير كالآتي:

(ما أصابك -أيها الإنسان- مِن خير ونعمة فهو من الله تعالى وحده، فضلا وإحسانًا، وما أصابك من جهد وشدة فبسبب عملك السيئ، وما اقترفته يداك من الخطايا والسيئات. وبعثناك -أيها الرسول- لعموم الناس رسولا تبلغهم رسالة ربك، وكفى بالله شهيدًا على صدق رسالتك)

هنا حكمَ هذا التفسير بحكمٍ خطير، أن ما أصاب الإنسان من خير ونعمة، أي خيرات الدنيا وعطاءاتها من نعمة المال والبنون والصحة والجمال والمكانة..، إنما هى من الله تعالى وحده، فضلاً واحساناً، أي تفضل بها على عبده وأحسن بها إليه، وهذا يؤدى إلى أن الله تعالى راضٍ عمن تفضل عليه بنعم الدنيا. وأن من أصابته أقدار فيها جهد وشدة، فهى بسبب عمله السيئ، هذا يعنى أن كل مرض وفقر وفقد وألم وحزن.. تعنى أن الله تعالى غير راضٍ عنه، وأنها نتيجة عمله السيئ ؟

إن الفهم بهذه الصورة يعني أننا حولنا نوعية الأسئلة التي توزع على الجميع انتظارًا لإجاباتهم إلى دليل على نجاح الطالب أو رسوبه، فإذا جاءت الأسئلة في الأموال، والعقارات، والصحة، والجمال فقد نجح، ودليل نجاحه أن الله تعالى أنعم بها عليه. وإذا جاءت الأسئلة في المرض، والفقر، والخسارة فقد سقط وفشل، بدليل إصابته بالشدائد، هكذا ورقة الأسئلة تدل على

النجاح والسقوط بدون أن يبدأ الطالب في الإجابة. وهذا بالطبع خطأ فادح، لكن في ضوء الفهم الذي تعلمناه من القرآن الكريم يمكننا أن نفسر الآية الكريمة بصورة تتوافق مع الفهم الصحيح لأقدار الله تعالى..

إن نعم الدنيا أو شدائدها لا توصف بأنها حسنة أو سيئة، لكن الحُسن والسوء هو في كيفية استقبالها، فإن أحسن المسلم استقبال شدة المرض مثلاً، ونجح في إجابة هذا السؤال فهي حسنة تصيبه، وهي من عند الله لأن الله تعالى هو من علمه وهداه لكيفية استقبال هذا القدر لكي ينال هذه الحسنة.

أما إن أساء المسلم استقبال ما نسميه نعمة الغنى مثلاً فقد فشل في إجابة هذا السؤال، فهذه سيئة تصيبه، وهي من نفسه؛ لأنه أطاع هواه فى استقبالها، فسوء استقباله نعمة الغنى هى من نفسه وليست من عند الله تعالى.

لذلك فإن الحسنة التي تصيب المسلم قد تكون قدر الفقر، أو الغنى، أو الصحة، أو المرض.. عندما يُحسن استقبالهم. والسيئة التي تصيبه تكون أيضًا نفس الأقدار، قدر الفقر، أو الغنى، أو الصحة، أو المرض إذا أساء استقبالهم.

"وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا " وقد أرسل الله تعالى نبيه بهذا العلم ليبلغه للناس، ثم كفى بالله تعالى شهيدًا على الناس وعلى أعمالهم وسرائرهم.

وقد سألتني إحدى الصديقات هذا السؤال في الآية : **"مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ و أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا"**

قالت: إن كل الأقدار من عند الله والمقصود في الآية استقبالك للأقدار، إن أحسنت الاستقبال فقد أصابك خير من الله، وإن أسأت استقبال القدر فقد أصابتك سيئة من نفسك .ليه الحسنة مش من نفسك(ليه من الله)والسيئة من نفسك مع أن الاثنين هم استقبالك أنت وردة فعلك أنت ؟

سؤالك مهم وإجابته كالتالي :لا تعتقدي أن إرجاع الفضل لمعونة الله تعالى في حسن استقبال الأقدار يعني نفي عمل الإنسان في ذلك، بل له الأجر كاملاً .لكن الله تعالى أرسل رسوله بالعلم الذي ينير لنا طريق حسن استقبال الأقدار، هذا الهدي من الله تعالى ولولا أن هدانا الله ما اهتدينا.

المعنى يعني إرجاع الفضل لله تعالى في الهدي، لكن للمسلم الأجر كاملاً على اختياره اتباع هذا الهدي وتعلمه وجهاده لنفسه. أما السيئة فمن نفسك تعني أن نفسك هي فقط التي أمرتك بذلك، ولم ينزل الله تعالى بهذا الاستقبال السيء أمره.

المجموعة الثانية من الآيات

يقول تعالى: **(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾)** الروم

نجد تفسيرهذه الآية الكريمة بتفسير الميسر كالآتى:

(وإذا أذقنا الناس منا نعمة مِن صحة وعافية ورخاء، فرحوا بذلك فرح بطرٍ وأَشَرٍ، لا فرح شكر، وإن يصبهم مرض وفقر وخوف وضيق بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، إذا هم يائسون من زوال ذلك، وهذا طبيعة أكثر الناس في الرخاء والشدة.)

يظهر لنا من الآية الكريمة أن كل سيئة تصيب الإنسان لها سبب واحد فقط وهى العقوبة، **(وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)**، بينما يقول الله تعالى فى آية سورة البقرة: (وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ

وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾) الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات... كلها فى عرف البشر أقدار مؤلمة (سَيِّئَةٌ).. ولم يقل تعالى أنها بما قدمت أيديهم... فما الفرق بين الآيتين؟

في آية سورة البقرة توجه الله تعالى بحديثه للمؤمنين، وعرض ما قد يتعرضون له من بلاءات وامتحانات، وعرض طريق نجاحهم في هذه الامتحانات وهو حسن الصبر والاحتساب القائم على معرفة الله تعالى، وفهم أقداره وحسن الظن به، وعرض المكافأة والثواب، وقد تم عرض الشرح الكامل لهذه الآية في بداية الباب الثاني.

أما في آية سورة الروم فالله تعالى يخبرنا عن فئة من الناس لم يتعلموا العلم الذي أنزله الله تعالى عن حكمته من أقداره، هؤلاء إن يرزقهم الله تعالى رحمة يفرحوا بها الفرح المذموم المليء بالفخر، والكبر، والخيلاء، والبخل، هؤلاء لما تصيبهم الأقدار التى يرونها (سَيِّئَةٌ) لأنها أقدار بالشدائد، تلك الأقدار التي قدرها الله تعالى بسبب معاصيهم لما فرحوا الفرح المذموم، وقد تحدثنا سابقاً عن الشدائد التي قدرها الله تعالى على بعض اليهود لفسقهم (.. كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) ﴿١٦٣﴾ الأعراف. هؤلاء "إِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ.." يقنطون ويأسون من النجاة لما تصيبهم الشدائد، وذلك لأنهم لا يعرفون الله تعالى كما تجب المعرفة، فيكون استقبالهم للأقدار المؤلمة سيء، مليء بالسخط واليأس وسوء الظن بالله تعالى.

إن القعود عن إصلاح ما قدمته أيديهم من معاصي تسبب في هذه الأقدار؛ لذلك أعقب الله تعالى الآية الأولى بالثانية يقول لهم فيها: **(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)**

أي أولم يتعلموا ويعرفوا أن الرزق بيد الله تعالى يبسطه لمن يشاء لحكمة الامتحان والابتلاء، ويضيقه على من يشاء لحكمة الامتحان والابتلاء .وأن استقباله بالفرح المذموم أو بالقنوط هو إجابة خاطئة، وفي هذا العلم درس للمؤمنين الذين تعلموا قرآنه ودرسوه وتعلموا ما فيه إنهم هم فقط من يحسنون الإجابة على هذه الامتحانات.

المجموعة الثالثة من الآيات

يقول تعالى: **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾** الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ الحديد

تفسير هذه الآيات الكريمة من تفسير الميسر:

(ما أصابكم- أيها الناس- من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم من الأمراض والجوع والأسقام إلا هو مكتوب في اللوح المحفوظ من قبل أن تُخْلَق الخليقة. إن ذلك على الله تعالى يسير.

لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا، ولا تفرحوا بما آتاكم فرحَ بطر وأشر. والله لا يحب كل متكبر بما أوتي من الدنيا فخور به على غيره. هؤلاء المتكبرون هم الذين يبخلون بمالهم، ولا ينفقونه في سبيل الله، ويأمرون الناس بالبخل بتحسينه لهم. ومن يتولَّ عن طاعة الله لا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئًا، فإن الله هو الغني عن خلقه، الحميد الذي له كل وصف حسن كامل، وفعل جميل يستحق أن يحمد عليه.)

وقد خرج البعض من هذا التفسير للآيات باستنتاج أنه ليس للبشر أي يدٍ في أي مصيبة تحدث له أو لغيره أو في الأرض بصفة عامة؛ فالله تعالى كتبها من قبل (**إِلَّا فِي كِتَابٍ**) وبالتالي ينهانا الله تعالى على التأسي والحزن على أي شيء يفوتنا، أو الفرح بأي شيء يأتينا والله لا يحب المختال الفخور.

لكن الحقيقة هذا الفهم أمامه بعض العوائق؛ إذا كانت المصائب من الآلام والأسقام وما إلى ذلك مكتوبة من قبل، فماذا عن العطاءات والنعم؟ أليست مكتوبة أيضًا من قبل؟

ثم إذا كانت المصائب من الآلام وأسقام هي المكتوبة، فمن المنطقي أن ينهانا الله تعالى على ألا نحزن على ما يصيبنا منها، ولكن كيف يتوافق ذلك مع النهي عن الفرح؟ هل هناك فرح بالمصيبة لكي ينهانا الله تعالى عنه؟ ثم هل من تصيبه المصائب يصبح مختالاً فخورًا؟

إن فهم هذه الآيات الكريمة من خلال العلم بحكمته من أقداره يكون كالتالي:

المقصود في الآية من المصيبة هو القدر الذي أصاب مكانه بالضبط، في الوقت الذي أراده الله تعالى، وبالطريقة التي أرادها، وبالكمية التي أرادها .وإن معنى أصاب السهم :بلغ الهدف ولم يخطئ .فالمصيبة هنا تعني الأمر الذي أصاب هدفه .أي أن كل قدرٍ يجري على الأرض عامة بكل مساحتها الشاسعة وتفاصيلها التي تقدر بمليارات مليارات التفاصيل، وكل قدرٍ يجري على أنفسنا أيضًا بكل تفاصيله الصغيرة والكبيرة هي أقدارٌ كتبها الله تعالى من قبل الخلق أصلاً، وهي تجري الآن بكل ما كتبه من قبل وأراده؛ ولأن هذا أمر لا يكاد يصدقه العقل أو يحيط به، أمر شديد الصعوبة أو مستحيل في عالم البشر، لذلك أردف رب العالمين أنه يسيرٌ عليه؛ " إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّـهِ يَسِيرٌ " لأنه سبحانه وحده من يملك الخيوط كلها كلها ومن يديرها كلها..

لذلك فإن المقصود ب(مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ)أي كل قدرٍ قد أصاب مكانه ووقته بعلم وحكمة بالغة، لكن ما علمه الله تعالى وما كتبه لا يجعلنا مُجبرين على كيفية استقبال هذه الأقدار؛ لذلك يدعونا ربنا أن نحسن استقبال أقداره ونختار الإجابات الصحيحة، ولا نختار الإجابات الخاطئة المتمثلة في صورتين..

الأولى:" **لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ** " يجب ألا تأسوا على ما فاتكم، أي أن الله تعالى ينهانا عن الاستقبال السيء للأقدار المؤلمة التي تؤدي إلى فوت مصلحة أو فقد حبيب أو خسارة مال، إن استقبالها لا يجب أن يكون بالأسى والحزن والشعور بالمرارة والاكتئاب، لكن بالتنبه لأنه امتحان من الله تعالى، يمتحن به إيماننا به، ومعرفتنا به، وحسن ظننا به سبحانه، مع أخذنا بالأسباب التي تعوض الخسارة.

الثانية :(**وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**) هل رب العالمين لا يريد لنا الفرح بما آتنا من نعم وعطاءات؟ بالطبع لا .فسبحانه يقول(**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**)﴿ ٥٨﴾ يونس

لكنه سبحانه هنا ينهانا عن الاستقبال الخاطئ لنعمه وعطاءاته؛ فلا تفرحوا الفرح المذموم على ما آتاكم ومن أصابكم من العطاءات بالمال والبنون والسلطة والجاه والغنى؛ لذلك ختم رب العالمين الآية الكريمة بهذا التحذير(**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**) ينهانا عن استقبال ما يصيبنا من نعم، بالكبر والتفاخر على الناس وسوء الخلق، لكن بالتنبه لأنه فقط امتحان من الله تعالى يمتحن به فهمنا لحقيقة أقداره، ويمتحن به إنفاقنا في سبيله.

لذلك قال في الآية التي تليها: (**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**) إن من يصيبه الله تعالى بالمال ثم يبخل به، بل ويأمر الناس بالبخل وعدم الإنفاق في سبيل الله تعالى، فقد أجاب إجابة خاطئة، والبخل هو النتيجة الحتمية لمن يستقبل عطاء الله استقبال خاطئ، فيفرح بها الفرح المذموم.

المجموعة الرابعة من الآيات

يقول تعالى: **(مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾)** التغابن

يؤكد لنا رب العالمين أنه ما من قدرٍ يصيب مكانه ووقته إلا وهو بإذن الله تعالى، فلا حدث يحدث في الكون كله إلا بأمر الله تعالى وحكمته، فلا يوجد ما يسمى بالصدفة أو الارتجال أوالعبث، ولما يعرف المؤمن ذلك ويؤمن بالله تعالى وبأقداره يهدأ قلبه ويطمئن لله تعالى، فلا مجال للحسرة والألم عند الشدة، ولا مجال للكبر والتفاخر عند الرخاء، بل هو الإيمان بأن أقدار الله تعالى واقعة بإذن العليم بكل شيء، والأقدار التي تنتج عن العلم الكامل هي أحكام خيره لها حكمة بالغة، وهي للامتحان وليست للإكرام أو الإهانة.

المجموعة الخامسة من الآيات

يقول تعالى: **(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾)** الشورى

في تفسير الميسر يقول:

(وما أصابكم- أيها الناس- من مصيبة في دينكم ودنياكم فبما كسبتم من الذنوب والآثام، ويعفو لكم ربكم عن كثير من السيئات، فلا يؤاخذكم بها. وما أنتم- أيها الناس- بمعجزين قدرة الله عليكم، ولا فائتيه، وما لكم من دون الله مِن وليٍّ يتولى أموركم، فيوصل لكم المنافع، ولا نصير يدفع عنكم المضارَّ.)

يبدو تفسير هذه الآية الكريمة أن كل ما يصيب الله تعالى به الناس من مصائب أي أقدار بها شدائد، هي بسبب ما اقترفوه من معاصي، وعرفنا أنها معاصي من قوله " وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ " فالعفو يقدمه رب العالمين للمخطئ الذى وجبت عليه العقوبة، إذاً نحن أمام أقدار بالشدائد تصيب العصاة، ونتأكد من أنهم عصاة مما يوجهه لهم في الآية التي تليها: (وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾).

هذه هى أخلاق من تصيبهم المصائب نتيجة أفعالهم، إنهم الذين يعصون الله ويعتقدون أنه لن يطولهم ولن يعاقبهم، معاصي الكذب، والظلم، والكبر، والسرقة، والرشوة، وسوء الخلق و ..و ...و .كل المعاصي التي تمتلئ بها المجتمعات الإسلامية الآن للأسف الشديد، إنهم من يرتكبون هذه المعاصي باستمرار وإصرار كأنما يعتقدون أن الله تعالى لن يطولهم ولن يعاقبهم.

هؤلاء يوجه الله تعالى لهم الحديث فيقول ما أنتم بمعجزين في الأرض، أي ما أنتم بقادرين على أن تجعلوا الله عاجز عن محاسبتكم، فلا يمكنكم أن تفوتوه أبدًا مهما كنتم في أي مكان في الأرض؛ لأنه ليس لكم من دون الله ولي ولا نصير، فهم يعتقدون اعتقادهم الجاهل هذا أن الله لن يطولهم؛ لأنهم يعتقدون أنهم عاملين حساباتهم صح ولن ينالهم أذى، أو يظنون أن فلان وليهم ويحميهم أو أن هذه الجهة ستنصرهم، فيؤكد الله تعالى لهم أنه لا ولي ولا ناصر إلا هو سبحانه. "وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِير".

إذًا فهؤلاء كل ما يصيبهم من مصائب، فهي بما كسبت أيديهم "وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ"، لأن من كانوا على هذا الاعتقاد فهم بالتأكيد يسيئون استقبال أقدار الله تعالى وبالتالي يسقطون في امتحانات الله وأقداره، وكل من كان بهذه الصفات، ستصيبهم أقدار الشدائد كعقوبات؛ لأنهم لا يستقبلونها الاستقبال السليم الذي شرحناه من قبل، بل سبحانه يعفو عن كثير من استقبالاتهم السيئة، لكنهم لا يتعلمون ولا يرتدعون، فهم كمثل أصحاب القرية التى كانت حاضرة البحر، إذ ابتلاهم سبحانه لفسقهم، ثم أساؤا استقبال أقداره بالشدائد، فأهلكم لما أصروا وكأن عقاب الله لن يطولهم.

الباب السابع

أمثلة تطبيقية من القصص الواقعية

سوف نستعرض الآن قصتين واقعيتين من قصص بريد الأهرام التي كان يعرضها الأستاذ/ عبد الوهاب مطاوع رحمه الله تعالى رحمة واسعة. سوف نعرض لمن تغافل عن حكمة الله تعالى من ابتلاءاته، فأساء استقبالها، ثم نرى كيف كانت عقوبته. ثم نعرض لمن فهم حكمة الله تعالى من ابتلاءاته، ونعرض كيف كان استقباله لها، وكيف كانت مكافأته. لنفهم كيف نطبق ما ذكرناه من قواعد ومعايير على حياتنا اليومية، وعلى واقعنا الحالي.

الحصاد المر

سيدي أريد أن أشارك في بابك بقصتي لإيماني بأن ذلك هو الطريق الوحيد الآن لطلب الرحمة والغفران .فأنا سيدة في منتصف العمر، تزوجت منذ سنوات بعيدة من رجل أناني، ربته أمه على أنه الوثن المعبود المميز على أشقائه، وربت شقيقتيه الأصغر على تجنب ثورته، فعشت معه في البيت الكبير أدور في فلكه وأرى أمه تخضع له .وبعد زواج الأشقاء ورحيل الأب خلا البيت لنا أنا وزوجي وأمه، فبدأ زوجي يخطط للتخلص من إقامة الأم معه، وجاءت الفرصة حين توفي زوج شقيقته فأصبحت وحيدة مع أبنائها، فافتعل خلافًا مع أمه وأجبرها على الإقامة مع شقيقته زاعمًا للجميع أن ابنتها أولى بها وبرعايتها.

وكان والد زوجي قبل رحيله قد أراد أن يؤمّن مستقبل زوجته فباع بعض عقارات قديمة كانت قد ورثتها، وأدخل زوجته كشريكة له بالنصف في عمل يديره ويحقق دخلاً معقولاً ، وعندما رحل عن الدنيا كان من الطبيعي أن يدير زوجي هذا العمل، وكان عملاً ناجحًا فتسلم زوجي إدارته وواصل نجاحه، لكنه منذ اليوم الأول الذي تسلمه فيه لم يعطها مليمًا من عائده؛ بحجة أن العمل مضطرب، وأنه لم يكتسب بعد الخبرة الكافية لإدارته.

وأحسَّت الأم بحاجتها إلى مالٍ سائل يغنيها عن طلب النقود من أبنائها فباعت آخر ما تبقى لها من ميراثها وكان قطعة أرض زراعية، وسلمت ثمنها للابن المعبود رغم كل ما بدر منه؛ لكي يشتري لها به شهادات استثمار تدر عليها عائدًا شهريًا .فوجد زوجي في ذلك فرصته لتأمين مستقبل الأبناء وكنا قد أنجبنا ابنًا وابنة، فاشترى الشهادات باسمه هو وأصبح يقبض كل شهر عائدها فيعطيها جزءًا منه ويحتفظ بالباقي لنفسه.

وصارحني بذلك ولا أنكر أني وافقت عليه، بل وفرحت بالمبلغ الشهري الكبير الذي أصبح يتقاضاه من الشهادات، فضلاً عن قيمة الشهادات نفسها التي أصبحت ملكًا خالصًا لأبنائي في المستقبل.

ومرت سنوات دون أن تبدر من الأم أية بادرة شكٍ تجاه زوجي، ولكن أيضًا دون أن نستمتع نحن بهذا المال؛ لأن زوجي أصبح أكثر حرصًا على ألا تبدو علينا مظاهر العيش في بحبوحة حتى لا يثير شك أمه وأشقائه، فمضت زهرة العمر وسنوات الشباب ونحن محرومان من الاستمتاع بمتع الحياة وبالعيش في مستوانا الحقيقي، خاصةً أن العمل الذي أداره زوجي لم يعطِ العائد الكبير الذي توقعناه، فأصبحت النقود التي امتلكناها مجرد أوراق مخزونة في البنك نحتاج إليها ولا نستطيع الاقتراب منها لكيلا نثير الشكوك.

استمر الحال هكذا حتى رحلت الأم عن دنيانا غير راضية عنا بكل تأكيد، وعقب رحيلها اجتمع الأشقاء في البيت الكبير، فأعلن عليهم زوجي بكل ثباتٍ أن أمهم لم تترك شيئًا وراءها؛

فالشهادات باسمه في البنك منذ زمن طويل، والعمل الذي يديره قد نقل ملكيته له منذ سنوات في الأوراق الرسمية، بغير أن تعرف الأم أو الأشقاء، أما البيت فهو يقيم فيه ومن حقه الانتفاع به مدى الحياة، فخرج الأشقاء من بيتنا محسورين مكلومين داعين علينا وعلى أولادنا في أعماقهم بالبوار والخسران .وقابل زوجي الموقف ببرود شديد ولم يهتم حتى بوداع شقيقته التي جاءت من بلدة بعيدة لتحضر وفاة أمها.

وخلت الدنيا لنا بعد ذلك تمامًا، فلا خوف من حساب، ولا خشية من أن تظهر علينا مظاهر الثراء، وأصبحت أنا سيدة البيت الكبير بلا منافس فاطمأنت نفسي إلى ذلك.

واستعددت لكي نعوّض سنوات الحرمان الطويلة، وتطلعت إلى الاستمتاع بالدنيا والمال والسعادة. فبدأنا نعيش في مستوى يتناسب مع وضعنا الاجتماعي، واشترينا سيارة وأمضينا إجازة في المصيف لأول مرة أنفقنا فيها ما يزيد على ألف وخمسمائة جنيه بعملة تلك الأيام منذ سنوات، واشترينا التليفزيون الملون الكبير بعد أن كنا نشتاق إليه ونخاف من شرائه حتى لا تحاصرنا الشبهات..

ثم اشترينا أحدث جهاز للفيديو ظهر في الأسواق وقتها، وغيرنا الثلاجة المصرية القديمة بثلاجة مستوردة ١٦ " قدم" ببابين لتتسع لأطايب الطعام والفواكه التي كنا نتحفظ في شرائها إمعانًا في التخفي، واشترينا الملابس الفاخرة لنا ولأبنائنا وساعدنا على ذلك أن العمل قد ازدهر فعلاً بعد أن استفاد زوجي بثمن الشهادات في توسيعه .وعرفنا الثراء ولم يقلل من استمتاعنا به تأنيب الضمير، أو إحساسنا بأننا اغتصبنا حق الأشقاء الذين يعيشون حياة بسيطة ويعانون من صعوبات الحياة، فزوجي قد تربى على أنه المميز على أشقائه ومن الطبيعي أن يعيش في بحبوحة، وأن يعيشوا هم حياتهم البسيطة لأنه الكبير .. العظيم .. الممتاز.

واشتدت صعوبة الحياة على شقيقه الوحيد، فاضطر إلى الهجرة إلى السعودية؛ لكي يستطيع أن يتزوج فانقطعت صلته بنا ، كما انقطعت تقريبًا صلة شقيقتيه بنا فأصبحت الشهور الطويلة تمر بغير أن تزورنا إحداهما، وبغير أن يدق جرس التليفون من جانبها أو جانب الشقيق، ولم يهتم زوجي بالأمر أما أنا فقد شُغلت بحياتي الجديدة، وشُغلت أكثر بالعبء الثقيل الذي وقع عليَّ بعد رحيل أم زوجي وهو عبء إرضاء الصنم المعبود الذي اعتاد أن يكون محور الأشياء ومركز الكون.

فبعد رحيل أمه وتباعد الأشقاء أصبحت مسئولية إرضائه تقع عليَّ وحدي فناء كاهلي، وشهدت حياتنا الخلافات المستمرة وأصبحت بها حياتي معه خناقة مفتوحة إلى ما لا نهاية، وفي هذا الجو تخطّى ابني وابنتي سن الطفولة ودخلا مرحلة المراهقة، فنشآ في جو مفعم بالخلاف والكراهية، فكثرت مصادماتها معًا وكثرت مشاكلها، حتى ترسَّخ في قلبي أنهما يتبادلان الكره الشديد وساعد على ذلك أن ابني الوحيد قد ورث عن أبيه الاعتقاد الخاطئ بأن الرجل ما هو إلا حنجرة عالية وأن هذا ما يميزه عن المرأة، ففرض سطوته على شقيقته واضطهدها بسبب وبلا سبب حتى انهارت ذات يوم وانتابتها نوبة عصبية شديدة، فأسرعنا بإحضار الطبيب الذي أعطاها بعض المهدئات ونصح شقيقها بعدم إثارتها، فاستهجن النصيحة واعتبر ما حدث لها مجرد دلع لكيلا يحاسبها أحد على شيء، وواصل طريقته في استفزازها حتى انهارت مرة أخرى بعد أيام..

وجاء الطبيب وأعاد فحصها ثم نصح باستشارة طبيب للأمراض العصبية، ذهبنا إليه ففحصها بعناية ثم نزل على رؤوسنا بالحقيقة القاسية وهي أنها مريضة بالصرع ولا شفاء لها منه سوى توفير الجو الهادئ لها وعدم استثارتها، والاستمرار في العلاج النفسي والعصبي إلى الأبد!!!

فبدأنا متاهة العلاج لدى الأطباء النفسيين والعصبيين، وأصبحت حياتها وحياتنا معًا جحيمًا لا يُطاق إذ كيف يثمر معها العلاج في مثل هذا الجو المتوتر، ثم ماذا عن مستقبلها وقد قاربت سن الزواج وتعثرت في دراستها، وأصبح من الصعب أن تجد من يرضى بزواجها وهي مريضة نفسيًا وعصبيًا وتهاجمها نوبات الهياج من حين لآخر.

هذا هو حال ابنتي الوحيدة أعانها الله عليه .أما ابني الصنم الصغير فقد تعثر في دراسته أيضًا، وفشل في الحصول على الثانوية العامة مرتين ثم توقف عن استكمالها وانضم إلى أبيه في العمل الحر، وبلغ سن الشباب فأحب فتاة من جيراننا وطلب الزواج

منها فعارضت؛ لأنه لم يتجاوز الواحدة والعشرين لكنه أصر .وكيف لا ؟ وهو الرجل الذي لا ترد له كلمة فخضع أبوه لرغبته وتم الزواج وانتقلت الزوجة الشابة إلى البيت الكبير لتعيش معنا .فلم تحتمل الحياة معه بطباعه الأنانية التي ورثها عن أبيه أكثر من شهور وطلبت الطلاق وأصرت عليه وعادت إلى بيتها.

وبعد عام آخر أحب ابني فتاة أخرى وتزوجها بلا معارضة مني ولا من أبيه هذه المرة بل لعلنا شجعناه على ذلك لكي يعوض فشله في الزواج الأول، لكنها لم تعش معه سوى عشرة شهور طلبت بعدها الطلاق وأصرت عليه حتى نالته، فيئس ابني من أن يجد من تتحمله بطباعه وصفاته هذه.

أما رب هذه الأسرة المفككة المنهارة فقد هاجمه الشلل النصفي عقب طلاق ابنه الثاني ومرض ابنته بالصرع، فأقعده المرض في البيت وأصبح- غفر الله لي -عبئًا ثقيلاً نفسيًا وماديًا

على البيت؛ لأنه أصبح يحتاج إلى أضعاف أضعاف الخدمة والرعاية التي كان يحتاجها من قبل، وإلى أضعاف الإحساس بأنه ما زال الإله المعبود وأننا ما زلنا العبيد الصاغرين .

وفي هذه الأيام العصيبة ظهر في جدران البيت الكبير وهو منزل قديم واسع من دورين في إحدى مدن الأقاليم شرخ كبير، فاستدعينا المهندس لمعاينته فجاء وفاجأنا بقوله إن المنزل آيل للسقوط خلال شهور، وأنه لا فائدة من ترميمه ولا بد من مغادرته خلال فترة قصيرة قبل أن ينهار !!فنزل علينا الخبر كالصاعقة فلقد تغيرت الدنيا في السنوات القليلة الماضية،

وأصبح الحصول على منزل آخر أو شقة واسعة يتطلب عشرات الألوف التي لم نضعها في الحسبان، كما أن إعادة بنائه عبء ثقيل لا نستطيع احتماله الآن.

ولم يصدق زوجي كلام المهندس، فأحضر مهندس الحكومة في المدينة لمعاينة البيت فعاينه، وكرر نفس الكلام وزاد عليه أنه أرسل إلينا إنذارًا رسميًا بمغادرته قبل انهياره، فاستسلمنا لنصيبنا واستأجرنا شقة صغيرة بإيجار باهظ انحشرنا فيها جميعًا بعد أن اعتدنا على المسكن الواسع .ونقلنا بعض أثاثنا إليها ولم يمهلنا القدر لنقل البعض الآخر لأن البيت قد انهار فوقه، وحمدنا الله أن نجونا منه وإن كنت قد أسفت على كثير مما راح تحته.

وفي هذا الجو الكئيب زاد النفور بين زوجي وابني حتى وصل إلى حد كراهية الابن لأبيه؛ بعد أن أصبح هو المسئول الوحيد عن العمل بعد مرض زوجي، وأصبح يتصرف في بعض الأمور دون استشارته فيثور عليه أبوه، فلا يتورع ابني عن أن يرد ثورته بثورة أشد حتى كادت الأمور تصل بينهما إلى ما هو أسوأ من ذلك لولا تدخل الجيران في الوقت المناسب، وبعد أن أصبحت سيرتنا على كل لسان ووجدت نفسي الضحية في كل ذلك ضاقت نفسي بكل شيء، وكرهت بيتي وحياتي وأيامي وطلبت من زوجي أن أحج إلى بيت الله الحرام؛ لأطلب من الله أن يرحمنا برحمته وأن ينقذ بيتنا التعيس من الانهيار، ووافق زوجي وسافرت إلى الأراضي المقدسة وأديت المناسك وبكيت طويلاً أمام قبر الرسول وحول أستار الكعبة..

وبعد انتهاء مناسك الحج صفت روحي فخطر لي أن أزور شقيق زوجي الأصغر الذي يقيم هناك وأستعيد علاقتنا معه، فذهبت إليه على عنوانه فاستقبلني الرجل وزوجته وأولاده أحسن استقبال، ورحبوا بي غاية الترحيب وتجنبوا الحديث عن الماضي، وحاولوا بإصرار استضافتي لعدة أيام .وسألني الرجل عن أحوال زوجي وكان يعرف كل شيء من خطابات

شقيقته، وتألم لحاله ودعا له بالشفاء وأمضيت معهم وقتًا لم أشعر بمثل هنائه وصفائه منذ سنوات طويلة، ورأيت أسرة سعيدة هادئة تعيش في جو من الحب والألفة والسلام، وقد نجح الأبناء في دراستهم والجميع يظللهم الحب والتدين والوفاء، وقد تجنب شقيق زوجي السفر إلى مصر لكيلا يلتقي بشقيقه بعد ما حدث منه فكان يمضي إجازاته الصيفية كل سنة في بلد من بلاد

العالم الجميلة، وأروني ألبومًا به صورهم وهم في مختلف البلدان سعداء ضاحكين فرحين بما أتاهم الله، ويتبادلون الحب والإعزاز، ولم أستطع تحمل المقارنة أكثر من ذلك وخرجت من تلك المقابلة بشيء واحد هو :أنني قد صمت في الماضي على طمع زوجي بحجة تأمين مستقبل الأولاد، فوجدت نفسي أمام مستقبل أسود كئيب فقد فيه أولادي الحب والدفء والسلام، وعرفت أنني لن أستطيع حتى طلب الرحمة بعد أن فات أوان التوبة..

إذ كيف أرد الحق المسلوب وقد مضى كل شيء منذ سنوات ولم أعد أستطيع رد المال لأصحابه.

فوجدت نفسي فجأة تمتلئ حقدًا على زوجي، بل وعلى شقيقه وأولاده أيضًا وعدت إلى مصر ولم أستطع أن أواجه زوجي بما رأيت في بيت أخيه، ولما حاولت أن أفتح معه الموضوع لم أجد عنده أية رغبة في تصحيح الأوضاع، بل وجدته مصرًا على أن المال وما تبقى منه هو حقه؛ لأنه ضحى كثيرًا واحتمل أمه كثيرًا كما ضحى بوقته ورعى العمل الذي تركه أبوه، فتأكدت من أنه قد لف الحبل حول عنقه إلى الأبد وأحزنني أن هذا الحبل قد اعتصر شباب أولادي بلا ذنب جنوه، فلم أجد أمامي سوى أن أكتب إليك لأحذر الآخرين من أن يقعوا في نفس الوهم الذي وقعت فيه عسى أن يغفر الله لي ولأبنائي.!

ولكاتبة هذه الرسالة يقول الأستاذ /عبد الوهاب مطاوع رحمه الله رحمة واسعة:

لم تضع الفرصة بعد يا سيدتي حتى ولو بدا لكِ أن زوجك مصر في جهالته على أن يبوء بالخسران المبين، فالحق أن مسئوليتك عما حدث أكبر مما تتصورين ومسئوليتك عن إعادة الحق لأصحابه أكبر من مجرد مفاتحة الزوج في الأمر ثم النكوص سريعًا أمام إصراره،

لأنك ساهمت بقدر عظيم في الجريمة بسكوتك عن الحق في حينه" والساكت عن الحق شيطان أخرس "وبتشجيعك له على العدوان على حقوق أمه وأشقائه، والمشجع على الإثم

شريك فيه، حتى ولو لم تقترفه يداه.

بل إن مسئوليتك تتجاوز كل ذلك وتفوقه؛ لأنك لو كنت تصديت لزوجك منذ البداية وأبيت عليه أن يغتصب مال أمه وأن يربي أبناءه بمال حرام لما تمادى في غيه ولما وجد من يعينه

على ظلمه؛ لأن وسواس الشر لو اصطدم بإرادة قوية خيرة يمكن أن ينهزم ويتراجع، والزوجة مسئولة عن أن تعصم زوجها وترده عن السطو على مال الغير، لأن آثاره سوف تنسحب على حياتها وحياة أبنائها .وكثير من الزوجات الصالحات كن صمام الأمان بالنسبة لأزواجهن بتعففهن عن الحرام وتصديهن لضعف بعض الأزواج واستجابتهم لوساوس الشر. لكنك تخليت عن دورك الأساسي هذا وباركت وشجعت، فلقنتك الحياة درس التجربة القديمة قدم التاريخ وهو أن المال الحرام لا يغني ولا يسمن من جوع، ولا يجلب سوى الخراب النفسي والجسمي لأصحابه، ولا يؤمن مستقبل الأبناء كما يوهم البعض أنفسهم مبررين لها هذه الجريمة، وإنما يؤمنه لهم فقط خير الزاد الذي يستطيع كل إنسان أن يورثه أبناءه لو التزم بقول الحق سبحانه وتعالى : "وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿ ٩ ﴾ "النساء

فليتقوا الله يا سيدتي، وليكسبوا المال الحلال ولو كان شحيحًا، وليس" فليسرقوا "مال الأمهات والأشقاء، أو" فليرتشوا" ويختلسوا وينهبوا المال العام، ويسرقوا أموال البنوك وراغبي السفر للخارج وراغبي السكن، وغيرهم من ضحايا السعار العام الذي ينتاب البعض أملاً في الثروة، وطلبًا للأمان الزائف لهم ولأبنائهم .هذا هو الطريق يا سيدتي، وليس غيره.

وقصتك أبلغ دليل وأقوى حجة على من تضعف إرادتهم أمام المغريات إذ ماذا حقق لكم المال المغتصب، وقد لمست بنفسك حياة شقيق زوجك الذي فاز بالكرامة، والسلام، والحب، وصلاح الأبناء، ورضوان من الله أكبر وذلك هو الفوز العظيم.

إن من حقك أن تأسي بنصيبك من الشقاء، وأن تقارنيه بنصيب شقيق زوجك وشقيقته أيضًا لكنه ليس من حقك أبدًا أن تحقدي على شقيق زوجك؛ لأنه ليس مسئولاً عما أصابكم من كوارث، وإنما المسئول عنها هو أنت وزوجك الذي عقَّ أمه وخان الأمانة، فعجل الله له العقاب في الدنيا واعتصر الحبل الذي يلفه حول عنقه كما قلت أنت صادقة، أما ابنيك ففشلا في دراستيهما وفي حياتيهما .وعانت ابنتك من الأمراض النفسية والعصبية، وفسدت علاقة ابنك بأبيه حتى ليكاد يعتدي عليه لولا تدخل الجيران.

ولا عجب في ذلك لأن من عق أبويه عقه ولده كما يقول الحديث الشريف، ولأن من كان في جحر الأفاعي ناشئًا غلبت عليه طبائع الثعبان، والقصة قديمة ولا جديد تحت الشمس؛ فحصاد الظلم شقاء وتعاسة وفشل في الدنيا والآخرة، مع ذلك فقليلون هم من يعون درس التجربة .وكثيرون هم من يصرون على تكرار الخطيئة فيشربون من الماء المالح فلا يرتوون، ولا يبرد لهم ظمأ، ولا يكفون عن الشكوى والأنين .لقد خسرت كل شيء يا سيدتي، ومن واجبك أن تدافعي عن فرصتك الأخيرة لاستعادة سلام النفس وراحة القلب والضمير؛ وأملاً في رحمته لأبنائك قبل رحمته لك، وليس أمامك سوى أن تقاتلي لإقناع زوجك بأن يطهر نفسه وأسرته من أدران هذا المال الملعون .فإذا عجزت بعد الجهد الجهيد كان لك أن تقولي صادقة أنك قد أبرأت ضميرك وذمتك ونفضت يدك من جريرته .وإن كانت كثيرات غيرك يرفضن التسليم بالعجز في مثل هذه الحالة ولو أنصف زوجك لما تمسك بالمال الحرام وهو يرى نفسه فريسة للعجز والمرض، وابنته فريسة للمرض العصبي وابنه شاردًا نافرًا فاشلاً قد ملأ الكره قلبه تجاهه، فيحاول أن يطهر نفسه وينقذ روحه وأسرته بطريقين لا ثالث لهما هما، أن يعيد لأشقائه مالهم المغتصب ويسألهم العفو والغفران أو أن يستوهبهم هذا المال إذا كان عاجزًا حقيقة عن رده ، فيقبل الأشقاء رجاءه ويتنازلون له عنه بنفس راضية وقلب صفوح .أما بغير ذلك فلا أمل، ولا نجاة ، ولا رجاء في مغفرة أو سعادة أو أمان. إن المال الحرام لا يغني ولا يسمن من جوع ولا يجلب سوى الخراب النفسي والجسمي لأصحابه ولا يؤمن مستقبل الأبناء كما يوهم البعض أنفسهم مبررين لها الجريمة، وإنما يؤمنه لهم فقط خير الزاد الذي يستطيع كل إنسان أن يورثه أبناءه.

(انتهى رد الأستاذ /عبد الوهاب مطاوع رحمه الله)

وسوف نعلق على هذه القصة المليئة بأقدار الله تعالى وامتحاناته المختلفة، من خلال عرض بعض الجمل الهامة المعبرة عن صورة استقبال القدر، وذلك من خلال ما تعلمناه من فهم الأقدار:

- *"ربته أمه على أنه الوثن المعبود المميز على أشقائه ، وربت شقيقتيه الأصغر على تجنب ثورته، فعشت معه في البيت الكبير أدور في فلكه وأرى أمه تخضع له"*

الأم التي تظلم نفسها وتظلم ابنها بالتدليل والإفساد، إنما هي فشلت وسقطت في قدر وابتلاء الأولاد كما عرضنا في (الأقدر بالتعامل مع الناس لامتحان الصبر) فالله تعالى يقول: (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿ ٢٠﴾)الفرقان.

فالعلاقة بين الوالدين وأولادهم هي امتحان واختبار، فرزق الأولاد عطاءٌ مثل كل عطاءات الدنيا، ليسوا بملكية خاصة بالوالدين يفعلون بهم ما يشاؤون، وينشؤنهم كما يشاؤون، ويتعاملون معهم كما يشاؤون. هذا استقبال خاطئ وفاشل فى امتحان الأولاد، إنما لهم قانون وضعه الله تعالى لحسن استقبال أمانة الأولاد، وهى تقوى الله تعالى فيهم، بحسن تربيتهم على الدين والأخلاق، ورعايتهم، ومشاركتهم، وإعطائهم المثل الجيد فى المحافظة على القيم، والاستقامة على أمر الله تعالى.

يقول جل وعلا: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾** الأنفال.

فالأبناء أمانة، وخيانة الأمانة تأتى عندما لا نعتقد أنهم فتنة أي اختبار شديد الصعوبة، إنما نتوهم أن الله منحهم لنا ملكية خاصة، ولنا أن نفعل بهم ما نشاء، وننشأهم كما نشاء. فيأتي القرآن ليضع الحقيقة ناصعة، إنهم مجرد أمانة لابد أن نحافظ عليها كما أمرنا صاحبها، الذى خلقنا وخلقهم، رب العالمين.

وهنا هذه الأم قد ربت هذا الولد تربية لا يرضى الله تعالى عنها، لم تتق الله فيه، وقعت فى الفتنة وأعتقدت أنها تملكته ولها أن تربيه كما يشاء هواها، فربته على الاستجابة لكل طلباته بلا نظام ولا حساب ولا عقاب ولا مكافأة، إشباعًا لهواها فى أن تراه راضياً عنها لتكسب حبه، ولرغبتها في الفخر بأن لديها هذا الولد، لم تعلمه ضبط النفس، بينما الدين والأخلاق هما فى ضبط النفس عن الأهواء وترويضها لتسلك السلوك السليم. لقد سقطت فى فتنة الأولاد، وأخرجت للمجتمع وحشاً نرجسياً لا رادع له من دين ولا خلق، لا يملك تعاطفاً مع أي مخلوق ولو كان أمه، لا يتراجع عن أخطائه ولو أودت به إلى الحضيض الأسفلي.

- *"وسلمت ثمنها للابن المعبود رغم كل ما بدر منه لكي يشتري لها به شهادات استثمار تدر عليها عائدًا شهريًا"*

هكذا نرى أن الله تعالى يعطي المسلم الفرصة تلو الأخرى؛ لكي يُصلح أخطاءه أو يؤكدها، وللأسف هذه الأم استمرت في الظلم، لنفسها ولباقي أولادها، وحتى الظلم لابنها الحرامي؛ بأن سلمته أموالها بالرغم مما بدر منه من افتعال خلافات أظهرت سوء خلقه، بعد أن طردها من بيتها واستولى عليه ولم يعطها مليماً من أموالها التي يديرها، وبالرغم من أنها تقيم الآن في بيت ابنتها التي استضافتها ورأت منها الإحسان، إلا أنها لم تعطها المال لكى تضعه لها في شهادات، لكنها مازالت فى غيها واتباعها لهواها، وكأنها تنكر ما رأته منه من سوء خلق حتى لا تؤلم نفسها لأنها هى من ربته على هذه الأخلاق، فهى مازالت تتبع هواها فيما تفعل معه، إن تسليمه أموالها رغم ما بدر منه حيلة نفسية لتحمي نفسها من الألم والشعور بالحسرة؛ لأنها لو رفضت أن تعطيه أموالها فهي بذلك قد اعترفت أنها أسأت تربيته، وأنها أخطأت، وأنها ظلمت نفسها وظلمته.

وهذا يدل على أنها رفضت التوبة لله تعالى مما فعلت، وأصرت على معصيتها وخطئها فسقطت في امتحان التوبة، وسقطت مرة أخرى في امتحان وفتنة الأولاد.

- *"فاشترى الشهادات باسمه هو وأصبح يقبض كل شهر عائدها فيعطيها جزءًا منه ويحتفظ بالباقي لنفسه وصارحني بذلك ولا أنكر أني وافقت عليه بل وفرحت بالمبلغ الشهري الكبير الذي أصبح يتقاضاه من الشهادات فضلاً عن قيمة الشهادات نفسها التي أصبحت ملكًا خالصًا لأبنائي في المستقبل"*

إنها الأقدار بالتمكين لامتحان التقوى؛ لقد مكنه الله تعالى من هذه الأموال ليس لأنه يرضى عنه أو يكرمه، ولكن ليمتحن تقواه فسقط هو وزوجته سقوطًا مدويًا. لقد سقطت أمه فى امتحانها لما أعطته أموالها، وسقط الأبن لما سرقها، وسقطت الزوجة لما وافقت بهذه السرقة. سقوط متوالي، ومازال الله تعالى يرزقهم ويسترهم لعلهم يتقون.

- *"فأعلن عليهم زوجي بكل ثبات أن أمهم لم تترك شيئًا وراءها، فالشهادات باسمه في البنك منذ زمن طويل والعمل الذي يديره قد نقل ملكيته له منذ سنوات في الأوراق الرسمية بغير أن تعرف الأم أو الأشقاء، أما البيت فهو يقيم فيه ومن حقه الانتفاع به مدى الحياة"*

استمرار السقوط في الأقدار بالتمكين لامتحان التقوى، لقد مكنه الله تعالى من الأموال التي سرقها من أموال إخوته من ميراث أبيه وأمه، ومن البيت الذي عاشت فيه أمه.

هل مكنه رب العالمين لأنه سبحانه يغفل عنه أو لا يطوله، أو لأنه يستحق هذه الأموال؟ قد يعتقد هو أو غيره هذا الاعتقاد، لكن الاعتقاد الخاطئ لا يتحول إلى حقيقية مهما بالغنا فى ذكره والتأكيد عليه وضحكنا به على أنفسنا، لقد أخبرنا رب العالمين أنه أعطى قارون أموالاً هائلةً بالرغم مما ذكره عنه أنه كان ظالماً لنفسه ولقومه، فالتمكين من الأموال لا يعنى رضى الله تعالى، ولا تعنى بالتأكيد غفلته عما يعمل الظالمون، إنما سبحانه له أقداره التى ينزلها بعلم وحكمة وبتوقيت لا يعلمه إلا هو، إن الله لا يستعجل باستعجال العباد، لكن يؤخرهم حتى يأخذوا نصيبهم الكامل من الفرص للتوبة والعودة للطريق المستقيم، ثم بعد ذلك عنده الأقدار بالعقوبة تناسب كل حاله تبعاً لعلمه وحكمته سبحانه.

- *وخلت الدنيا لنا بعد ذلك تمامًا، فلا خوف من حساب، ولا خشية من أن تظهر علينا مظاهر الثراء، وأصبحت أنا سيدة البيت الكبير بلا منافس فاطمأنت نفسي إلى ذلك.*

واستعددت لكي نعوّض سنوات الحرمان الطويلة، وتطلعت إلى الاستمتاع بالدنيا والمال والسعادة .فبدأنا نعيش في مستوى يتناسب مع وضعنا الاجتماعي، واشترينا سيارة وأمضينا إجازة في المصيف لأول مرة أنفقنا فيها ما يزيد على ألف وخمسمائة جنيه بعملة تلك الأيام منذ سنوات، واشترينا التليفزيون الملون الكبير بعد أن كنا نشتاق إليه ونخاف من شرائه حتى لا تحاصرنا الشبهات..

ثم اشترينا أحدث جهاز للفيديو ظهر في الأسواق وقتها، وغيرنا الثلاجة المصرية القديمة بثلاجة مستوردة ١٦ " قدم" ببابين لتتسع لأطايب الطعام والفواكه التي كنا نتحفظ في شرائها إمعانًا في التخفي، واشترينا الملابس الفاخرة لنا ولأبنائنا وساعدنا على ذلك أن العمل قد ازدهر فعلاً بعد أن استفاد زوجي بثمن الشهادات في توسيعه .وعرفنا الثراء ولم يقلل من استمتاعنا به تأنيب الضمير، أو إحساسنا بأننا اغتصبنا حق الأشقاء الذين يعيشون حياة بسيطة ويعانون من صعوبات الحياة، فزوجي قد تربى على أنه المميز على أشقائه ومن الطبيعي أن يعيش في بحبوحة، وأن يعيشوا هم حياتهم البسيطة لأنه الكبير .. العظيم .. الممتاز."

بدأت مرحلة من أخطر المراحل، مرحلة الفتح والاستدراج.

سبحانك ربي ما أحلمك، لا يستطيع أحد أن يعطى هذا العطاء لظالم إلا إذا كان يملك القوة الكاملة التى تمكنه من أخذ الظالم فى أي ثانية، قوة كاملة للخسف به بلا ممانعة ولا تأخير، سبحانه العزيز الحكيم. يقول تعالى: **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾** الأنعام.

مرحلة الاطمئنان لأكل الحرام والزيادة منه والاستمرار فيه، مرحلة مخيفة لأنها المرحلة الأخيرة.

هنا وقفة مهمة، كم عدد السنين التي امتدت فيها هذه الحالة؟ فلنقل من ١٠ ل ١٥ سنة، كم عدد الناس الذين رأو هذا الظالم يستمتع بأموال اخوته المسروقة ويتعجبون من هذا الوضع، ويتسألون بداخلهم بشك عن فعل الله معه، وليه ربنا سايبه كده؟ هو فين عدل ربنا؟ أعتقد أننا الآن يمكننا الرد على هذه التساؤلات التي تورث في النفس الشبهات نحو علم الله تعالى وعدله، ففى قانون رب العالمين إعطاء الأموال أو حجبها هى للامتحان وليس للرضى والموافقة على من أعطاه أو حجب عنه، وأن الفتح بالغنى مع الاستمرار في أكل الحرام إنما هو استدراج نحو خطوة أخيرة، فإما أن يتوب العاصي، أو يهلكه.

- *"بعد رحيل أمه وتباعد الأشقاء أصبحت مسئولية إرضائه تقع عليَّ وحدي فناء كاهلي، وشهدت حياتنا الخلافات المستمرة وأصبحت بها حياتي معه خناقة مفتوحة إلى ما لا نهاية، وفي هذا الجو تخطَّى ابني وابنتي سن الطفولة ودخلا مرحلة المراهقة فنشآ في جو مفعم بالخلاف والكراهية، فكثرت مصادماتهما معًا، وكثرت مشاكلهما حتى ترسَّخ في قلبي أنهما يتبادلان الكره الشديد"*

هذه مرحلة العذاب البئيس، يقول تعالى: **"فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾"** الأعراف

إنها الأقدر بالشدائد للفاسقين، نتيجة الاستمرار في المعصية والإصرار عليها، رغم ما يعيشونه من الآلام والمصائب، نرى أن الرجل وزوجته حتى هذه اللحظة لم يتبادر لذهنيهما التوبة وإعادة الحق لأصحابه عسى أن يرفع الله تعالى عنهم الشدائد، لم تنبههم هذه الأقدار للرجوع لله تعالى ونبذ الظلم، لأن القلوب قست فلم تعد تستجيب الاستجابة الطبيعية، القلوب قست من توالى المعاصي وران عليها أكل الحرام فلم تعد تشعر برسائل الله تعالى، فلم يجيبوا على امتحان الشدائد بالإجابة السليمة، وهى التوبة والندم وإرجاع الحق لأصحابه، فسقطا في هذا الامتحان.

- *"ثم نزل على رؤوسنا بالحقيقة القاسية وهي أنها مريضة بالصرع"*

هذا المرض للابنة ما ذنبها فيه؟ هل يأخذها الله تعالى بذنب أبيها وأمها؟ بالطبع لا .فالله تعالى هو العدل، لكن هذا القدر له وجهان؛ الأول :هو الخاص بالابنة وهو الأقدر بالشدائد لامتحان الصبر، فبالنسبة لها هو قدر بالمرض؛ لامتحان معرفتها بالله تعالى وصبرها على ألم المرض وضعفه، ومكافأتها مكافأة الصابرين إن أحسنت استقبال هذا القدر. والوجه الثاني :هي أقدارٌ بالشدائد لأب والأم لامتحان توبتهم وعودتهم عن المعصية .وبالنسبة للأبنة فلا نعلم صورة استقبالها لقدر المرض .أما بالنسبة للأب والأم فاستقبالهم لهذا القدر كان لابد أن يكون التوبة والعودة عن المعصية، لكنهم استمروا في الإصرار على المعصية، وسقوط في هذا الامتحان.

- *" ابني الوحيد قد ورث عن أبيه الاعتقاد الخاطئ بأن الرجل ما هو إلا حنجرة عالية وأن هذا ما يميزه عن المرأة، ففرض سطوته على شقيقته واضطهدها بسبب وبلا سبب حتى انهارت " ـ " .أما ابني الصنم الصغير فقد تعثر في دراسته أيضًا، وفشل في الحصول على الثانوية العامة مرتين ثم توقف عن استكمالها وانضم إلى أبيه في العمل الحر،*

وبلغ سن الشباب فأحب فتاة من جيراننا وطلب الزواج منها فعارضت؛ لأنه لم يتجاوز الواحدة والعشرين لكنه أصر .وكيف لا؟ وهو الرجل الذي لا ترد له كلمة فخضع أبوه لرغبته وتم الزواج وانتقلت الزوجة الشابة إلى البيت الكبير لتعيش معنا .فلم تحتمل الحياة معه بطباعه الأنانية التي ورثها عن أبيه أكثر من شهور وطلبت الطلاق وأصرت عليه وعادت إلى بيتها. وبعد عام آخر أحب ابني فتاة أخرى وتزوجها بلا معارضة مني ولا من أبيه هذه المرة بل لعلنا شجعناه على ذلك لكي يعوض فشله في الزواج الأول، لكنها لم تعش معه سوى عشرة شهور طلبت بعدها الطلاق وأصرت عليه حتى نالته، فيئس ابني من أن يجد من تتحمله بطباعه وصفاته هذه."

هذه صفات الأبن الذى تربى في هذا البيت وفى هذه الأجواء، هل هو مسئول عن هذه الأقدار التى أصابته، من الفشل فى دراسته، ثم الفشل فى زواجتين؟، هل هو غير ملام على سوء خلقه لأنه تربى كذلك؟، بالطبع هو مسؤول مسؤولية كاملة عن أفعاله وعن أقداره بالشدائد التي أصابته، فرب العالمين أعطى كل بنى آدم كل الأدوات التي تعينه وتهديه سواء السبيل، يقول تعالى: **إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾** الإنسان.

جعل الله تعالى الإنسان سميعاً بصيراً ليختار بكامل حريته طريقه، إما أن يكون شاكراً لأنعم الله بالخلق الحسن والاستقامة على أمره. أو يكون كافراً لأنعم الله، بسوء خلقه واتباعه لهواه ومعصيته لربه. فالهداية لشكر نعم الله تعالى أو كفرها، مركوزة فى الفطرة الإنسانية، والإنسان إما يزكيها أو يفسدها. ولا شك أن التربية الحسنة تعين على حسن الخلق وعلى طاعة رب العالمين، والتربية السيئة تجعل هذا الأمر صعب على النفس، لذلك فإن مقاومة النفس ـ رغم التربية السيئة ـ لإتباع أمر الله لها أجر مضاعف. لذلك فإن للإنسان كامل الحرية فى اتخاذ طريق الخير أو طريق الشر، فكم من تربى فى أحسن الأسر خلقاً ودیناً، اختار طريق الشر وكُفر النعمة. وكم من تربى فى أسوء الأسر خلقاً ودیناً، اختار طريق الخير وشكر النعمة. وهذا الأبن اختار بكامل إرادته طريق الشر وكل ما نزل به من أقدار بالشدة هى من صنع يديه، على عكس اخته التى نزل بها قدر ليس لها يد فيه.

- *"أما رب هذه الأسرة المفككة المنهارة فقد هاجمه الشلل النصفي عقب طلاق ابنه الثاني ومرض ابنته بالصرع وفاجأنا بقوله إن المنزل آيل للسقوط خلال شهور وأنه لا فائدة من ترميمه ولا بد من مغادرته خال فترة قصيرة قبل أن ينهار"*

استمرار العذاب البئيس لعلهم يتقون، يبعث الله تعالى أقداره بالرسائل تلو الرسائل، فإن تابوا وأصلحوا، أبدل الله تعالى سيئاتهم حسنات ورفعهم درجات، وكانت هذه الأقدار المؤلمة خيرٌ لهم؛ إما أن أساؤوا استقبالها بأن أصروا على المعاصي، فهي وبال عليهم لأنها ستهوى بهم دركات، وهم قد أصروا.

- *"فخطر لي أن أزور شقيق زوجي الأصغر الذي يقيم هناك وأستعيد علاقتنا معه، فذهبت إليه على عنوانه فاستقبلني الرجل وزوجته وأولاده أحسن استقبال، ورحبوا بي غاية الترحيب وتجنبوا الحديث عن الماضي، وحاولوا بإصرار استضافتي لعدة أيام .وسألني الرجل عن أحوال زوجي وكان يعرف كل شيء من خطابات شقيقته،*

وتألم لحاله ودعا له بالشفاء وأمضيت معهم وقتًا لم أشعر بمثل هنائه وصفائه منذ سنوات طويلة، ورأيت أسرة سعيدة هادئة تعيش في جو من الحب والألفة والسلام، وقد نجح الأبناء في دراستهم والجميع يظللهم الحب والتدين والوفاء."

أُمتحن الأخ الأصغر بحرمانه من كامل حقه من ميراثه، فأحسن الإجابة على هذا الامتحان، لم يملأ الدنيا صراخاً، ولم يُحبط ويقعد عن العمل، ولم يضيع وقته فى مشاجرات لن تأتى بنتيجة، ولم يعلن عداءه لأخيه أو يشغل نفسه بعداوته. أجاب إجابة ممتازة، اتجه للعمل الحلال الطيب، بذل فيه واتقن وداوم عليه، وبالتأكيد كان حسن الخُلق، فاستمر فى عمله سنين، مما مكنه من جمع ما يكفى لإقامة اسرة وحسن الإنفاق عليها، وبارك الله تعالى له فى ماله وفى زوجته وأولاده، وعوضه خيراً مما أُخذ منه، لأنه نجح فى الامتحان.

هذا هو حسن الصبر على الشدائد، الصبر الإيجابي الذي يدعو للعمل والكسب الحلال والمداومة عليه. هذا هو المستحق لوعد الله تعالى (وبشر الصابرين).

- *"ولما حاولت أن أفتح معه الموضوع لم أجد عنده أية رغبة في تصحيح الأوضاع بل وجدته مصرًا على أن المال وما تبقى منه هو حقه لأنه ضحى كثيرًا واحتمل أمه كثيرًا كما ضحى بوقته ورعى العمل الذي تركه أبوه فتأكدت من أنه قد لف الحبل حول عنقه إلى الأبد ، وأحزنني أن هذا الحبل قد اعتصر شباب أولادي بلا ذنب جنوه فلم أجد أمامي سوى أن أكتب إليك لأحذر الآخرين من أن يقعوا في نفس الوهم الذي وقعت فيه عسى أن يغفر الله لي ولأبنائي."*

إصرار هذا الرجل على المعاصي رغم كل الأقدار التي امتحنه الله تعالى بها؛ لكي يحسن الإجابة وينجح، لكنه أصر على السقوط، يقول تعالى: **فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾** الأنعام

يسبب الله تعالى إنزاله للشدائد لبعض العصاة بأنها من أجل أن يتوبوا ويتضرعوا لله تعالى، فهم لم يحسنوا شكر النعم التى أعطاهم الله تعالى إياهم، فأنزل بهم الشدة عسى أن تنبههم وتلين قلوبهم لذكر الله، لكن بدلاً من أن تلين قلوبهم من أثر الشدة، فإنها تقسوا وتتحجر ولا تستجيب الاستجابة السليمة، لقد زين له الشيطان أنه مستحق لهذا المال الحرام، وأنه بذل لأمه وقتًا وجهدًا، وأن المال الذي سرقه من حقه، وهذا كله كذب لا يعطيه الحق فى أخذ مال إخوته، لكنه الكذب الذى يأتى على هواه، وزينه الشيطان له، إنه يزين للفاسقين استحقاق المال الحرام وظلم الآخرين، فيستمروا فيه، فتقسوا قلوبهم، فيضمن استحقاقهم نار الدنيا والآخرة.

هذه هي أهم الأحداث والأقدار بهذه القصة، وهذا هو أسلوب فهم هذه الأقدار؛ لكي نتعلم كيف نحسن استقبال اقدار الله تعالى لنا؟ وكيف ننجح فيها؟ فنحيا أطيب حياة في الدنيا والآخرة.

وأخيرًا، سوف نسأل بعض الأسئلة التي تلقي الضوء على حقيقة أقدار الله تعالى وما فيها من اختبارات وامتحانات:

هل كان الفتح بالمال الكثير للابن العاق مكافأة وكرامة؟ لو أخذنا لقطة من حياة هذه الأسرة، فوجدنا الابن الظالم الذي سرق إخوته يرفل في النعيم ولديه أسرته الجميلة، والتجارة الرائجة، والسكن الواسع والسيارة الحديثة، والأثاث الغالي، بينما إخوته المظلومين يعانون شظف العيش ولا يجد الأخ ما يقيم حياته وما يتزوج به، والأختان بالكاد يدبران معيشتهما.

هل كنا سنتعجب ونتهم الأقدار أنها غير عادلة؟ ونتساءل كيف هذا يا ربي ؟ أين عدلك؟.
هذه التساؤلات تدل على أننا ما زلنا نعتبر أن معيشته في الشقة الواسعة، وفرشها بأغلى أنواع الأثاث، والأدوات الكهربائية الحديثة، والسيارة الجديدة، وتجارته الرابحة والأموال التي تأتيه بكثرة هي كلها دلائل تفضيل ورضا من الله تعالى، بينما هي مجرد امتحان وليست دليل رضا من الله تعالى، وقد تأكد هذا الأمر لما درسنا فهم الأقدار وشاهدنا القصة الكاملة.

العطر الفواح

أنا طبيبٌ أعمل مدرسًا مساعدًا بقسم الجراحة في إحدى الوحدات التخصصية بواحدة من أقدم جامعات مصر، وقد دفعني للكتابة إليك بطل هذه القصة الذي لم أر مثيلاً له في إخلاصه لعمله ورعايته لحدود ربه في التعامل مع مرضاه ومع مرؤوسيه وتلاميذه ومع الجميع.

فلقد عين هذا الأستاذ معيدًا ثم مدرسًا مساعدًا في نفس القسم، ويذكر من زاملوه في هذه الفترة أنه كان شعلة من النشاط والإخلاص، إلى جانب الالتزام الديني والأخلاقي الكاملين فإذا به يكتشف أنه قد أصيب بالمرض الخطير في تجويف البلعوم الأنفي وفي الغدد الليمفاوية !!ولقد جاء اكتشاف المرض بمحض الصدفة؛ فبدأ رحلة العلاج الكيماوي والإشعاعي وتحمل صابرًا تأثيرات العلاج على الصحة العامة، والتركيز والحالة النفسية، مع إدراكه جيدًا كطبيب أن النتائج في مثل حالته ليست مطمئنة، ولم ييأس الأستاذ لحظة واحدة من أمل الشفاء واعتمد في مقاومته للمرض على شيئين :

العلاج الذي يصفه المتخصصون، والدعاء والابتهال إلى الله ومناجاته طلبًا للشفاء.

فكان يناجي ربه قائلاً :ربِ إن كنت قد وقفت يومًا إلى جانب مريض فقير وساعدته فاعفُ عني برحمتك وساعدني، ولقد كانت حياته حافلة بمساعدة المرضى البسطاء ورعايتهم وحسن معاملتهم حتى يلهجوا بالدعاء له كلما رأوه، وتغمره السعادة وينشرح صدره ويبش في وجوههم كلما رآهم.

وفي شدة معاناته للمرض والألم أكمل دراسته للدكتوراه، ونوقشت رسالته في يوم مشهود ونال درجته العلمية متفوقًا على كل الأقران، وقاهرًا اليأس والقنوط، ثم استجاب الله لدعائه ودعاء مرضاه ومحبيه وأسرته فشُفي بإذن الله من مرضه تمامًا، ولم يؤكد له الأطباء المعالجون ذلك إلا بعد أن كرروا الفحوص والإشاعات وأثبتت كلها شفاءه، فزفوا إليه البشرى وقالوا له أنه قد أصبح إنسانًا طبيعيًا ويستطيع أن يعمل أي ساعات عمل يريدها، وأن يسافر إلى أي مكان لأنه قد أصبح صحيح الجسم بإذن الله .فسافر إلى مكة للعمل كاستشاري بأحد المستشفيات وواصل اجتهاده حتى أصبح رئيسًا لقسمه في هذا المستشفى، وحرص خلاله على السفر دوريًا إلى الخارج لإجراء مسح لحالته المرضية، فيتأكد له كل مرة شفاؤه التام فيرجع من الخارج إلى الكعبة ليؤدي العمرة ويطيل الصلاة شكرًا لربه وعرفانا .

ويقضي الرجل في غربته عشر سنوات أدى خلالها فريضة الحج عشر مرات، وقام بعدد كبير من العمرات شكرًا لربه على أن من عليه بالشفاء والصحة، ويرجع في النهاية إلى قسمه في مصر فيقدم لمن يتعاملون معه من المرضى، أو الأطباء الصغار، أو أعضاء هيئة التمريض مثالاً نادرًا للعمل الذي يرعى صاحبه حدود الله في حياته. ومثالاً أكثر ندرة للتواضع الجم والرحمة بالمرضى ومن هم أقل منه .ويجمع الممرضين والممرضات العاملين بالقسم ويقول لهم إن من يحافظ منهم على المال العام ويرعى حق المريض ويعتبره وديعة لديه يحاسبه الله عنها سبحانه وتعالى، أنه يضع التراب الذي يدوس عليه فوق رأسه وينحني له شكرًا وتقديرًا، وما زال هذا الأستاذ ينشر حوله الخير والعطف والخوف من الله سبحانه وتعالى، ويهتم بكل شئون المرضى بنفسه، ويحرص على تدفئة غرفتهم في الشتاء القارص، ويراقب بنفسه نظافتها وحالة الأسرة فيها وأعمال الكهرباء والسباكة بغير أن يكلف أحدًا من صغار الأطباء بالقيام بذلك نيابة عنه كما أنه يشجع الأطباء الشبان ويساعدهم بجدية على تقديم رسائلهم العلمية ويعتبر طلبة الكلية أبناءه.

وكلما عاتبه بعض زملائه الكبار على إرهاقه لنفسه بالعمل وقيامه بما يستطيع غيره من صغار الأطباء القيام به نيابة عنه .أجابه بالإجابة الدائمة التي تكشف عمق تدينه فيقول: أفلا أكون عبدًا شكورًا؛ ذلك أنه يعتبر كل ما يقوم به من عملٍ، وما يقدمه للمرضى والطلبة وصغار الأطباء قربى إلى الله وشكرًا له على أن أنعم عليه بالشفاء من مرضه الخطير.
هذا هو أستاذي الذي أردت أن أكتب لك قصته مع الشفاء والأمل وصالح الأعمال؛ عسى أن يستفيد بها قراء بريد الجمعة.
فهل تراني محقًا في ذلك؟
ولكاتب هذه الرسالة يقول الأستاذ /عبد الوهاب مطاوع رحمه الله رحمة واسعة:
كان الكاتب المسرحي تيرانس راتيجان يقول :في العالم ظلام كثير، لهذا فإنه يرحب بأية شمعة ولو كانت صغيرة !والشمعة التي رويت لنا قصة صاحبها ليست صغيرة بكل التأكيد؛ لأنها تبدد مساحة كبيرة من ظلام اليأس والقنوط، وتنشر الخير والرحمة والعطف حولها، وتؤكد خيرية الحياة وقدرة كل إنسان لو أراد على أن يجود كما يقول الشاعر أمادو نرفو :
بشيءٍ ما مهما كان صغيرًا قد تكون ابتسامة، وقد تكون يدًا تربت على آلام الآخرين وقد تكون كلمة تقوي عزمهم.
وأستاذك الذي رويت لنا قصته مع المرض والأمل والشفاء ورعاية حدود ربه في عمله، تقدم لنا مثالاً يرفع المعنويات ويذكرنا بألا نيأس أبدًا من رحمة الله مهما تكثف الظلام حولنا، وأن نؤمن دائمًا بأن في الغد دائمًا متسعًا لكل شيء، وأن التعلق الأبدي بالأمل في رحمة الله لا بد أن يكشف الضر ذات يوم عن المهمومين كما كشفه سبحانه وتعالي عن عبده أيوب عليه السلام، حين تلقى البشرى في أمره الإلهي له :**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿ ٤٢﴾** ص. فضرب أيوب الأرض برجله فنبعت له عينان، شرب من إحداهما واغتسل من الأخرى فذهب بلاؤه بإذن الله، وما كل وسائل العلاج برغم ضرورتها سوى أسباب علينا اتخاذها ترقبًا لهذا الأمر الإلهي وما دعاء المبتهلين وابتهالهم لربهم ومناجاتهم له إلا استنزال أو استعجال لهذا الأمر.
ولقد من الله سبحانه وتعالى على أستاذك بالشفاء استجابة لدعائه ودعاء محبيه ومرضاه البسطاء، فأحسن شكر نعمة ربه عليه بالاستمرار في نهجه العادل في العمل، وفي رحمته
بالمرضى ورفقه بتلاميذه وحرصه على رعاية حدود ربه في عمله، فهنيئًا له كشف الضر عنه، وعقبى لمن ينتظر. وسلامًا وأمانًا على من يرعون حدود الله في حياتهم .فيكونون كالعطر الفواح ..ينفث الجمال ..ويطرد العطن من أي مكان يوجدون فيه .
انتهى رد الأستاذ /عبد الوهاب مطاوع رحمه الله.

وسوف نعلق على هذه القصة التي تعبر عن صورة من أروع صور استقبال أقدار الله تعالى وامتحاناته، من خلال ما تعلمناه من فهم الأقدار:

- *"كان شعلة من النشاط والإخلاص إلى جانب الالتزام الديني والأخلاقي الكاملين، فإذا به يكتشف انه قد أصيب بالمرض الخطير في تجويف البلعوم الأنفي وفي الغدد الليمفاوية، ولقد جاء اكتشاف المرض بمحض الصدفة "..*

كيف هي أقدار الله تعالى هنا؟ كيف نحكم عليها ونعلم حكمتها؟ إنسان على خُلق حسن وعلى دين، يتقي الله تعالى في معاملاته وأعماله، ثم إذا بالله تعالى يصيبه بمرض خطير .ليه يارب كده؟!! الراجل الطيب الخدوم ده تصيبه بالمرض ده؟ وتحرم الناس من وجوده؟ والظلمة والفاسدين صحتهم زي الفل؟!! فعلاً" الحياة غير عادلة". هي دي الكلمات والأفكار التي تتوارد على أذهاننا لما نسمع مثل هذه الأخبار عن إنسان طيب خلوق خدوم للناس متواضع..

كل ده لأننا حكمنا على أن قدر المرض يعني أن الله تعالى أصابه بشر أو بأمر غير مفهوم، بينما دراستنا لما سبق من فهم الأقدار تخبرنا بأن إصابة هذا الإنسان الطيب الخلوق بهذا القدر الشديد، إنما هو فقط امتحان، و سنبحث فى قدر الله تعالى فى هذه الجملة: *" ولقد جاء اكتشاف المرض بمحض الصدفة"* هو بالطبع ليس بصدفة، فلا شئ بالكون صدفة أبداً، إنما هى الأقدار باللطف لعبادة المتقين، يقول سبحانه: وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ البقرة. فرب العالمين تأتى أقداره "بِشَيْءٍ مِّنَ"، أي تحمل الكثير من اللطف والرحمة، قد يكون من صور هذا اللطف والرحمة الاكتشاف المبكر الصدفة لمرض خطير. إن أحسن الإنسان استقبال هذا اللطف، فإنه يعينه على الشفاء بأمره تعالى.

- *"فبدأ رحلة العاج الكيماوي والإشعاعي وتحمل صابرًا تأثيرات العلاج على الصحة العامة والتركيز والحالة النفسية مع إدراكه جيدا كطبيب أن النتائج في مثل حالته ليست مطمئنة, ولم ييأس الأستاذ لحظة واحدة من أمل الشفاء، . واعتمد في مقاومته للمرض على شيئين: العلاج الذي يصفه المتخصصون والدعاء والابتهال إلى الله ومناجاته طالبًا للشفاء، فكان يناجي ربه قائلًا :ربِ إن كنت قد وقفت يومًا إلى جانب مريض فقير وساعدته، فاعفُ عني برحمتك وساعدني .ولقد كانت حياته حافلة بمساعدة المرضى البسطاء ورعايتهم وحسن معاملتهم حتى يلهجوا بالدعاء له كلما رأوه ..وتغمره السعادة وينشرح صدره ويبش في وجوههم كلما رآهم."*

نراه قد استقبل هذا القدر المؤلم كأحسن ما يكون الاستقبال: بالصبر على المرض بلا سخط ولا شكوى من الدنيا الغدارة، ولا تساؤل عن حدوث هذا القدر له وهو الطيب الخدوم، ثم بالعلاج، حيث أمر الله تعالى بالأخذ بكل الأسباب التي في متناول الإنسان، أخذها بكل جدية ودأب وحرص، ثم بالدعاء المكثف والتضرع لله تعالى وعمل الصالحات.

لقد تعلمنا من هذا الرجل الطيب كيف هو حال النجاح في مثل هذه الأقدار المؤلمة الشديدة التي تأتي للصالحين، وليس للفاسقين أو القائمين على معصية .لماذا نجح هذا الرجل في هذا الامتحان؟ إنه أحسن استقبال هذا البلاء، وهذا الامتحان، لسابق علمه بالله تعالى، وسابق معرفته به، وثباته من قبل على العمل الصالح.

لكن هل لو كان قائمًا من قبل على جهل بالله تعالى، وبصفاته، وأفعاله، وبالتالي فهو قائم على المعاصي وخارج عن أمر الله تعالى. هل إذا أتاه هذا القدر المؤلم هل كان سيستقبله هذا الاستقبال الناجح؟ كان سيسخط ويتهم ربه بالظلم ويسيء معاملة مرضاه؛ لأنه يرى أن حسن معاملته لهم لم تنقذه من أن يمرض هذا المرض، هذا كما قلنا من قبل كمثل من تعلم كيفية فتح الباراشوت وهو في الهواء، إنه في هذا الوقت لا يمكن أن يتعلم فتح الباراشوت الذي ينقذ حياته، إذا لم يكن قد تعلمه من قبل على يد المدربين وهو على الأرض .وهذا الطبيب الناجح في استقبال قدر ربه، قد تعلمه من قبل وهو مازال على الأرض، قبل أن يصير في الهواء، فنجح في استقبال قدره بالمرض المؤلم.

إن هذا الاستقبال حتى على المستوى المادى، يساعده على الشفاء، لأن من أسباب الشفاء الروح المعنوية العالية والتفاؤل وتوقع الخير والأمل فى الشفاء، وهذا يتواجد بقوة لدى المؤمنين بالله تعالى الواثقين من قربه واستجابته وقدرته، العالمين بحكمته من أقداره.

- *"ثم استجاب الله لدعائه ودعاء مرضاه ومحبيه وأسرته فشُفي بإذن الله من مرضه تماما ولم يؤكد له الأطباء المعالجون ذلك إلا بعد أن كرروا الفحوص والإشاعات وأثبتت كلها شفاءه."*

المكافأة التي وعدها الله تعالى عباده الصالحين الذين أحسنوا استقبال أقداره، نراها في هذه الآية الكريمة: **(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾)** البقرة.

إن هذه الآية الكريمة شرحٌ وافٍ لما حدث مع هذا الطبيب الخلوق المتدين حق التدين، المتدين بعمله الصالح، المتدين بخدمة الناس وتواضعه معهم وإشفاقه عليهم، لقد ابتلاه الله تعالى بمصيبة فى نفسه، فكان استقباله هو تحقيق للمعنى العميق للجملة الرائعة" إنا لله وإنا إليه راجعون "فقد تصرف وعمل لله تعالى؛ لأنه عبد له وهو وحده من يملك أمر الحياة والموت، عمل ما يحبه الله لأنه لله وإليه راجع؛ فآتاه الله تعالى ما وعده لعباده الصابرين الصالحين المصلحين،" أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ " آتاه صلوات منه ورحمة، آتاه شفاءً تامًا، ورزقًا حلاً طيبًا، وحبًا من الناس، وأعانه على الثبات على الطاعة، فأصبح من المهتدين.

لكن هنا وقفه وتساؤل : لقد كانت صورة صلوات الله تعالى عليه ورحمته هى الشفاء التام، هل لو كان مات من المرض كان يعني هذا أن الله تعالى لم يقبل حُسن استقباله للقدر ولم يؤته منه صلوات ورحمة؟

بالطبع لا.

لأن الموت والحياة ليستا مكافأة ولا عقوبة؛ إنما هي أقدار الله تعالى. يُقدر الموت حين يكون الموت هو أحسن قدر للإنسان الصالح، ويُقدر الحياة حين تكون الحياة هي أحسن قدر. فلو قدر الله تعالى له الموت فله الجزاء العظيم الخالد من رب العالمين، ولو قدر له الحياة فإن الحياة ليست مكافأة لأحد إنما هي محل للامتحانات..

- *ويرجع في النهاية إلى قسمه في مصر فيقدم لمن يتعاملون معه من المرضى، أو الأطباء الصغار، أو أعضاء هيئة التمريض مثالاً نادرًا للعمل الذي يرعى صاحبه حدود الله في حياته. ومثالاً أكثر ندرة للتواضع الجم والرحمة بالمرضى ومن هم أقل منه .ويجمع الممرضين والممرضات العاملين بالقسم ويقول لهم إن من يحافظ منهم على المال العام ويرعى حق المريض ويعتبره وديعة لديه يحاسبه الله عنها سبحانه وتعالى، أنه يضع التراب الذي يدوس عليه فوق رأسه وينحني له شكرًا وتقديرًا."*

نرى الثبات على حسن الاستقبال لأقدار الله تعالى، والاستمرار في رفع الدرجات، وتقديم خير مثال للمسلم الذي يحسن استقبال مختلف أقدار الله تعالى، يستقبل أقدار النعم والعطاءات، بشكره بالعمل الصالح وخدمة خلقه، وبحسن خلقه وتواضعه وليس بقول "الحمد لله "ألف مرة في اليوم دون أن يقدم عملاً صالحًا. فهذا هو معنى الآية الكريمة...(:اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿ ١٣ ﴾)سبأ .فالاستقبال السليم لأقدار الله تعالى وامتحاناته بالنعم والعطاءات هو الشكر بالعمل الصالح النافع.

ثم نرى هنا تحقيقاً لما بيناه فى الابتلاء برفع الدرجات، يقول تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾)** الأنعام. لقد نجح نجاحاً باهراً فى معاملة من مكنه

الله تعالى منهم *"والرحمة بالمرضى ومن هم أقل منه"* هذا هو النجاح فى امتحان من رفعهم الله تعالى درجات عمن أقل منهم، فكافأه بالغفران والرحمة.

هكذا نستطيع أن نحكم على حكمة الله تعالى من أقداره، ونتعلم أن نحكم على أنفسنا، متى تكون نعمة لنا، ومتى تكون نقمة، متى نكون مع الراسبين، ومتى نكون مع الناجحين.

الخاتمة

هكذا رأينا أقدار الله تعالى ورحمته للناس أجمعين، هي أقدارٌ لها حكمة بالغة ورسائل مختلفة، يفوز وينجح فيها من يحسن استقبالها ويفهم رسالتها..

فهناك أقدارٌ النجاح فيها يكون بالصبر والرضا، وهناك أقدار الصبر فيها والرضا بها، معصية وسقوط في الامتحان .فهذه الأقدار النجاح فيها يكون بإصلاح ما أفسده المسلم والتوبة عما اقترفه. وهناك أقدار لامتحان تقوى المسلم وإظهار مدى خشيته لله تعالى، وهناك أقدار لامتحان صبر المسلم وتقواه عند مواجهة الأذى، وهناك أقدار لامتحان شكر المسلم عند النعم والعطاءات، وهناك أقدار لامتحان مدى معرفة المسلم بربه ويقينه به وبصفاته، وهناك أقدار بالتفاوت بالدرجات بين الناس لامتحان عدلهم وتقواهم، وهناك أقدار بالتعامل بين الناس لامتحان الصبر.

صور كثيرة لأقدار الله تعالى ولابتلاءاته وامتحاناته، ليس النجاح فيها كلها بالصبر الرضا كما هو منتشر بين الناس، إنما لها حكم وأهداف كثيرة تختلف باختلاف حال كل إنسان ورسالة الله تعالى له؛ لذلك فإنه من المهم جدًا لدين كل مسلم، ولسعادته في الدنيا والآخرة أن يتعلم قرآنه وسنة رسوله وسيرته العطرة، كما فعلنا بصورة مبدئية في هذا الكتاب؛ من أجل أن يفهم أقدار ربه، ومن أجل أن يستفيد من هذه الرسائل الربانية، فيحيا أطيب حياة، فكلما نجح المسلم في الإجابة على أقدار ربه واستقبلها كما يحب ويرضى، كلما رقاه وهداه ووفقه ورزقه السعادة والراحة والسكينة.

والحمد لله رب العالمين.

**

آراء لبعض القراء الكرام.

من الصعب أن تجد كتابًا يخطف قلبك من أول كلمة ؟! يجعلك تراجع كل كلمة تقرأها بعينين يملأهما الحرص على عدم السهو أو الغفلة عن معنى من المعاني التي تملأ جنبات صفحات هذا الكتاب، صدقًا لم أقرأ سوى بضع وعشرون صفحة، وبسبب روعة سحر معانيهم أجد نفسى تريد أن تستزيد مرة أخرى مما فاتت قراءته، وأجدها فى ذات الوقت متعجلة أن تستزيد مما هو آت، أجد عينى تختلس النظر في السطور القادمة لعلها ترجع بمعنى تضمه إلى المعاني التي تعرفت عليها، لذلك أود أن أشكرك على رحلة ممتعة بدأتها وسط سطورك، مع تمنياتي بلقاء حضرتك لأعبر لك عن امتناني لكتابك الذى أسأل الله عز وجل أن ينفعك وينفعني بما فيه من معانى نثبت بها قلوبنا عند السرائر كى لا تطغى وعند الضرائر لكى لا تيأس وتقنط من انتظار الفرج واحتساب الصبر لله عز وجل.

شكرا يا أستاذة

الأستاذ الأديب أحمد فؤاد.

الي كاتبه كتاب فهم الاقدار ، ا . اسماء الشرقاوي.

بشكر حضرتك جدا علي الكتاب القيم واللي بيناقش موضوع أساسي في علاقتنا بربنا وأسلوب تفسيرنا وتقبلنا للأحداث اللي بنمر بيها خلال مراحل عمرنا المختلفة. فعلا اختيار موفق لموضوع الكتاب، الكتاب كمان عميق جدا. كل فكره بيتعبر عنها بعمق شديد وده خلاني اقرا كل جمله اكتر من مره لغايه لما أتأكد ان المعني وصلني. الأفكار كمان بتأكد بعضها والمنهج العلمي في البحث واضح من خلال ذكر المصادر واختيار مصادر موثوق منها. عجبني كمان فكره تطبيق افكار الكتاب علي قصص القران وقصص بريد الأهرام. بالرغم اني شوفت سلسله الفيديوهات الا ان الكتاب كان فيه اضافه والتعبير عن الموضوع عن طريق الكتابة أثرى وأضاف. بصراحة شعرت بالغبطة لما قريت الكتاب . ربنا يزيدك علما وينفع بك . اتمني بناتي يدركوا المفاهيم دي والرؤية دي للأحداث وهما صغيرين بإذن الله هيفرق معهم في تقبلهم وتعاملهم مع الأحداث المختلفة، انا بحاول اطبق منهج الكتاب في حياتي وأوصلهم لما ربنا يرزقنا بنعمه أو يشتكوا من ابتلاءات، جزاك الله كل خير.

دكتورة نهلة العرب مهندسة بمعهد بحوث الإلكترونيات التابع لوزارة البحث العلمي.

كتاب فهم الأقدار جاء في وقته ليربت على قلبي و ينير عقلي بإستقبال اقدار الله بنفس طيبه راضيه قانعه و استخدام الدعاء في موضعه لرد القضاء

جزاكي الله خيرا و نفع بعلمك الناس انا شخص كنت في محنه و ابتلاء عظيم ببكي من ضعفي لكن مش سخط و لا عدم رضا كلام حضرتك و سطورك في الكتاب جعلت عندي وعي اكبر بكيفية حسن استقبال القدر اكتر و الرضا به خيره و شره، ربنا يتولاني برحمته و ربنا يجعل علمك في ميزان حسناتك و يخفف به عن كل مكروب و مهموم.

الأستاذة/ إيمان حسن أمينة مكتبة البنك المركزي المصري.

بالنسبة لكتاب فهم الاقدار لد اسماء الشرقاوى فهو كتاب أكثر من رائع استفدت منه جدااا لفهم معنى القدر والفرق بين انواع الاقدار وان تكون سببا فى وقوع القدر فان استقبالك للقدر بالقبول دون اصلاح الخطأ والاعتراف به واصلاحه سيؤدى حتما الى تكرار ذلك معك حتى تتعلم الدرس اما نقطه فهمك واكتمال ايمانك بتدبر معاني اسماء الله الحسنى والايمان الكامل به فهذه اعتقد انها ستكون نقطه فارقه فى حياتي وتحول مساري حيث اضاءت لى الكثير من العلامات والنور ...ربنا يجعله فى ميزان حسنات الكاتبة وجزاها الله عنا خير الجزاء

لها منى عظيم التحية على هذا المجهود الرائع وهذا الفتح المبين الكتاب بقيت امشي بيه فى شنطتى والله.

د.سحر على استاذ علم الميكروبيولوجي - كلية الطب - جامعة المنوفية.

والحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه
له الفضل وله المنة وله الثناء الطيب الجميل

**

المراجع:

١. القرآن الكريم
٢. تفسير القرآن للشيخ الشعراوي
٣. تفسير القرآن للدكتور راتب النابلسي
٤. تفسير الكشاف للزمخشري
٥. تفسير الوسيط للشيخ سيد طنطاوي
٦. التحرير والتنوير لأبن عاشور
٧. أسماء الله الحسنى للدكتور راتب النابلسي
٨. مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى .أ.د .عقيل حسين عقيل
٩. فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي
١٠. المستدرك على الصحيحين
١١.الدعاء للطبري
١٢.كتاب الإمام البخاري
١٣.كتاب الإمام مسلم
١٤.الخامس من معجم شيوخ الدمياطي
١٥.مسند الإمام أحمد
١٦.المعجم الكبير للطبراني
١٧.إغاثة اللهفان لابن القيم
١٨.السنن الكبرى للبيهقي
١٩. جامع الترمذي
٢٠. المعجم الصغير للطبراني
٢١. شعب الإيمان للبيهقي
٢٢. سنن ابن ماجه
٢٣. معجم لسان العرب

فهرس

اهداء ١
المقدمة. ٣
•الباب الأول :توضيح وتصحيح بعض المفاهيم . ٥
١) معنى الأقدار ٦
٢) مُهمة الأقدار ٧
٣) مجال الأقدار . ٩
٤) أنواع الأقدار ١٠
٥) الأسباب والأقدار ١٢
٦) صفات الله تعالى وعلاقتها بأقداره ١٤
•الباب الثاني :الحكمة من أقدار الله تعالى (أمثلة من القرآن الكريم) ٢١
١) أقدار الله تعالى بالشدائد لامتحان الصبر. ٢٢
٢) أقدار الله تعالى بالشدائد للعصاة من المؤمنين لامتحان التوبة. ٢٥
٣) أقدار الله تعالى بالنعم لامتحان الشكر. ٣١
٤) أقدار الله تعالى بالتمكين لامتحان التقوى. ٤١
٥) أقدار الله تعالى بالشدائد لامتحان اليقين برحمته. ٤٢
٦) أقدار الله تعالى بالتفاوت في درجات الدنيا لامتحان العدل والرحمة. ٤٦
٧) أقدار الله تعالى بالنعم والشدائد للفاسقين لامتحان التوبة والتضرع . ٤٨
٨) أقدار الله تعالى بالإيذاء البدني والنفسي لامتحان الصبر والتقوى. ٥٤
٩) أقدار الله تعالى بالتعامل بين بالناس لامتحان الصبر. ٥٦
•الباب الثالث: ٦٦
ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن قبل استقبال أقدار الله تعالى ٦٧
١) العلم . ٦٧
٢) الاستقامة ٧٠
٣) تذكر نعم الله تعالى. ٧١
٤) حسن الظن بالله تعالى ٧٢
ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن بعد استقبال أقدار الله تعالى ٧٣
١) مراجعة الأسباب ٧٣
٢) عدم التحسر والندم ٧٥
٣) الشكر والصبر ٧٦

٤) التضرع والاستكانة والدعاء ٧٧
•الباب الرابع :متى يكون الابتلاء نعمة ومتى يكون نقمة؟ ٧٨
•الباب الخامس :الفوائد الخمس لفهم أقدار الله تعالى . ٨٢
أولاً :إحسان العبادة لله رب العالمين ٨٣
ثانيًا :طهارة القلب ٨٤
ثالثًا :الرؤية السليمة لأحداث الحياة ٨٥
رابعًا :الحماية من سوء الظن بالله تعالى ٨٥
خامسًا :العلم بأن أقدار الله امتحانات لا بد لها من استعداد ٨٦
الباب السادس :شرح لآيات تخص الأقدار والابتلاءات . ٨٨
الباب السابع :أمثلة تطبيقية من القصص الواقعية ٩٤
الخاتمة ١١١
آراء لبعض القراء الكرام. ١١٢
المراجع. ١١٤
الفهرس ١١٥

يناير ٢٠٢٦